جول فيرن

رسول القيصر



روايات الهلال

١٩٩٢/٧/١٩

رسول القيصر

تتضمن وصفا مسهبا لروسيا وحالتها خلال ثورة التتار في عهدها القيصرى . والمغامرات الرائعة التي تخللت رحلة بطلها « ميشيل ستروجوف » وزميلته ، وما صادفاه من أخطار

تأليف

الكاتب الفرنسي

جول فيرن

ترجمة حلمي مراد

دار الهلال بمصر

... بين الخاص
...عها من قراءاته
...هر أنه قرأ قبل تأليا
...مائة كتاب . ومات ... وهو في ...

شخصيات الرواية

القيصر اسكندر : قيصر روسيا . قوى الشكيمة هادىء الطبع كتوم أسراره ، وقعت بينه وبين التتار حروب كثيرة

الجنرال كيسوف : رئيس بلاط القيصر ، وأمينه المطلع على أسرار دولته

الغراندوق : شقيق القيصر ، وقائد جيشه فى اركوتسك لحرب التتار ، وكان محصوراً فى هذه المدينة

ميشيل ستروجوف : رسول القيصر الى شقيقه الغراندوق . يوزباشى فى الجيش الروسى . ذكى شجاع

فيوفار خان : حاكم التركستان وزعيم التتار وقائد ثورتهم ، نشبت بينه وبين القيصر حرب شعواء

ايفان اوجاريف : كولونيل روسى جرده الغراندوق من رتبه العسكرية فانضم الى التتار وأصبح قائداً لجيوشهم ضد بلاده

جوليفيه ، وهارى بلونت : صحافيان . . أولهما فرنسى ، والثانى انجليزى يراسلان صحيفتيهما بأنباء القتال

فاسيل فيدور : طبيب روسى نفاه القيصر فى اركوتسك

نادية فيدور : ابنة الطبيب فاسيل ، وزميلة ميشيل ستروجوف فى رحلته

مارفا ستروجوف : أم ميشيل ستروجوف . . من بلدة أومسك فى سيبريا ، تحب وطنها ، كبيرة النفس والقلب والعقل

نيقولا بيجانوف : موظف روسى يكتب للغراف مدينة كوليفان

سنجار : امرأة من الغجر كانت خادمة وجاسوسة لايفان أوجاريف

مؤلف الرواية



« جول فرن » أديب فرنسى ولد عام ۱۸۲۸ ، وقد عرف منذ صباه بخياله الخصب الفذ . ولكنه لم يكن يعتمد على الخيال وحده فى كتاباته . وكان يستفز أصحاب الجغرافيين بوصفه الأماكن الكثيرة النائية التى يكتب عنها ، كما كان يثير اعجاب العلماء بتنبؤاته التى تتضمنها مؤلفاته . وقد اعترف أكثر من مخترع بفضل كتابات « جول فرن » عليه . ومما قاله عنه ماركونى : « صور فرن للناس رؤى عجيبة تمنوا أن يجعلوا مثلها ، وحفزتهم الى محاكاتها » . وحينما طار الاميرال « بيرد » فوق القطب الجنوبى ، قال : « لقد كانت كتابات « فرن » ترشدنى اثناء رحلتى »

وكان أول مؤلفاته كتاب بعنوان : « خمسة أسابيع فى بالون » ، كان قطعة من الخيال الشائق الممتع . . عرضه على ناشر يدعى « بير هتزل » فابدى اعجابه بكل صفحة من صفحاته . وخرج المؤلف لا بعقد اتفاق خاص بهذا الكتاب وحده ، وانما بعقد لتأليف كتابين فى كل عام لمدة عشرين سنة بأجر لم يكن يحلم به أحد فى ذلك الحين

وبعد بضعة أشهر ، كان القراء يتخاطفون مجلة اتفقت معه على أن يكتب فيها فصولا تتضمن وصف رحلات وأسفار الى مناطق نائية . وقد تنبأ « فرن » فى هذه الفصول باكتشاف القطب الشمالى قبل أن يكتشف بنحو نصف قرن . ثم كتب قصة أخرى بعنوان « رحلة الى مركز الأرض » ، قام أبطالها بالغوص الى باطن الأرض فى « ايسلندا »

وظل « فرن » خمسة وأربعين عاما ينتج كتبا من هذا اللون تباع بالملايين بين الخاصة والعامة فى مختلف أنحاء المعمورة ، وقد كان يستقى وقائعها من قراءاته العديدة ، ثم يضفى عليها من خياله الخصب . وقد ظهر أنه قرأ قبل تأليف كتابه « من الأرض الى القمر » ما لا يقل عن خمسمائة كتاب . ومات « فرن » فى عام ۱۹۰۹ ، وهو فى السابعة والسبعين

حفلة فى القصر الجديد

– مولاى ، برقية جديدة . .

– من اين جاءت ؟

– من « توسك »

– هل قطعت اسلاك التليفون الى ابعد من تلك البلدة ؟

– نعم ، منذ امس !

– اذن أرسل يا جنرال برقية الى توسك كل ساعة ، ودعنى على اتصال بما يجد فى هذا الشأن

فقال الجنرال كيسوف : « حسنا ، يا مولاى »

تبودلت هذه العبارات فى الساعة الثانية صباحا ، فى الوقت الذى بلغت فيه الحفلة القائمة فى « البالبه نوف » – القصر الجديد – قمة روعتها وبهائها . وكانت موسيقى بعض فرق الجيش تواصل منذ بداية السهرة عزف رقصات « البولكا » و « المازوركا » و « الفالس » المختارة . . وجموع الراقصين والراقصات تتضاعف وتزداد فى الصالونات الفاخرة لهذا القصر ، القائم على قيد خطوات من « المنزل الحجرى العتيق » حيث وقعت فى الماضى كثير من المآسى الرهيبة

وكان مارشال البلاط الكبير ينجز مهامه الدقيقة بمعاونة بعض النبلاء ، حاملى رتبة الغراندوق « الدوق العظيم » واركان حربهم وضباط القصر ، وقد ساهموا جميعا فى الاشراف على تنظيم الرقص . بينما تألقت الدوقات وزوجات كبار موظفى الدولة العسكريين والمدنيين فى ثيابهن الانيقة وحليهن الماسية الثمينة

وحين انطلقت اشارة البدء بعزف مقطوعة « البولونيز » الشهيرة « لشوبان » بادر المدعوون من جميع الطبقات ، الى الاشتراك فى هذه الرقصة الوطنية المحبوبة ، فاختلطت الأثواب الطويلة المزينة بالدنتلا ، وتداخلت وتفرقت على هيئة رائعة تحت اضواء مائة من الثريات الفاخرة ، تنعكس اضواؤها على المرايا العديدة التى تزين جدران القصر العظيم . فكان المنظر كله معا يبهر القلوب والابصار !

وبدت حركات الاضواء الباهرة تنبعث من خلال زجاج النوافذ المستديرة الكبيرة اشبه بانعكاس حريق هائل ، فيه مفارقة سافرة لظلام الليل الذى يلف القصر من الخارج ، واسترعى هذا انتباه بعض المدعوين الذين لم تجذبهم حلبات الرقص ، فوقفوا الى جوار النوافذ يتأملون هذه اللوحة الطبيعية وما يرتسم على صفحتها من اشباح بعيدة مختلطة ، وظلال باهتة لابراج الاجراس المتناثرة هنا وهناك

وتحت شرفات القصر المنحوتة ، كان نفر من الحرس يروحون ويجيئون وعلى اكتافهم بنادقهم ، وعلى رؤوسهم خوذاتهم ذات الأطراف المدببة التى تلمع كالذهب على الأضواء المنبعثة من الداخل ، وكان الواقفون الى النوافذ يسمعون وقع خطوات هؤلاء الحراس وهم يسيرون فوق احجار الطريق المربعة بانتظام ، لعله يفوق انتظام خطوات الراقصين فى القصر على « باركيه » الصالونات

ومن وقت لآخر كانت تتردد صيحة الديدبان من مخفر الى مخفر ، واحيانا يختلط نداء النفير بأنغام جوقة الموسيقى ويذهب بشذاه الحانها المتسقة . . وامام واجهة القصر كانت تبدو كتل السفن التى تتهادى على صفحة نهر قريب فتتراءى انوارها وتتراقص على الماء ، بينما يتناثر رذاذ الماء على وجوه الجالسين فى الصفوف الاولى على سطحها

وكانت الشخصية الرئيسية فى الحفلة هى شخصية مقيمها الذى حرص الجنرال « كيسوف » على مخاطبته كما يخاطب الملوك . وكان يرتدى سترة بسيطة لضابط من ضباط الحرس ، لا تتفق مع الأزياء الانيقة التى ارتداها المدعوون ، ولامع الاردية القوقازية الفاخرة التى يلبسها افراد حاشيته المحيطون به ، من ضباط جورجيا والقوقاز !

وكان الرجل فارع القامة ، بشوش القسمات ، هادىء الوجه . وان ارتسم القلق على جبهته . ينتقل من جماعة الى جماعة بغير ان يتكلم الا فيما ندر . وقد بدا كمن لا يلقى بالا الى لهو الشباب من المدعوين ، او تصريحات الشيوخ ذوى المناصب الكبيرة ورجال السلك السياسى الدبلوماسى الذين يمثلون الدول الأوربية الكبرى . وقد لاحظ اثنان او ثلاثة من هؤلاء السياسيين على مضيفهم الكبير امارات قلق لم يعرفوا اسبابه ودواعيه ، ولكن لم يجرؤ احدهم على سؤاله عنها !

على انه حرص برغم ذلك كله على الا تؤثر دواعى قلقه الخفية فى جو الحفلة ، او يعطل سيرها بحال من الاحوال . ولا عجب فهو احد الملوك النادرين وقد تعود ان يطيعه شبه عالم بأسره من البشر طاعة عمياء

وانتظر الجنرال كيسوف ان يصرفه مولاه من حضرته بعد ذلك ، ولكن هذا ظل صامتا بعد ان تناول منه البرقية الواردة من توسك وقرأها ، ثم غامت جبهته ، وبحركة غير ارادية امسكت يده بمقبض سيفه ، ثم ارتفعت الى عينيه تحجبهما كأنما ضايقته الأضواء الباهرة ، وحالت بينه وبين التفكير العميق المتزن . واخيرا قاد الجنرال من يده الى احدى النوافذ وهو يقول له : « اذن فاتصالنا بالغراندوق شقيقى منقطع منذ امس ! »

– نعم يا مولاى . . بل يخشى الا تستطيع البرقيات فى القريب العاجل اجتياز حدود سيبريا !

– ولكن جيوش « امور » و « اباكوتسك » و « ترانزبيكال » .. قد تلقت الامر بالزحف على « اركوتسك » .. اليس كذلك ؟

– ان هذا الامر قد ارسل في آخر برقية استطعنا ارسالها عبر بحيرة « بايكال »

– لكننا ما زلنا على اتصال مباشر بحكومات « أومسك » و « يينيسسك » و « توبولسك » منذ بدء الغزو ؟

– نعم يا مولاى ، ان برقياتنا تصل اليها . ونحن على ثقة – حتى الساعة الراهنة – من ان التتار لم يتقدموا الى ابعد من « ايرتيش » و « اوبي »

– وما من نبأ عن الخائن « ايفان اوجاريف » ؟

– لا يا مولاى ، ولا يعلم مدير البوليس : هل عبر الحدود ام لا ؟

– اذن فلترسل حالا نشرة باوصافه الى جميع المراكز التى تستطيع الاتصال بها تلغرافيا

– اوامر جلالتكم ستنفذ فورا ..

– ولتحرص على التزام الصمت التام فيما يتصل بالأمر كله !

فحنى الجنرال رأسه مطيعا فى احترام وتوقير ، ثم انسحب من امام مولاه واندس فى زحمة الحاضرين . وبعد حين غادر صالونات القصر بغير ان ينتبه الى ذلك احد . اما مولاه فبقى هنيهة كالحالم ، ثم اختلط بجمهور المدعوين من رجال السياسة والجيش ، وقد استرد وجهه هدوءه الذى فارقه دقائق معدودات !

ولم يكن الحديث الخطير الذى جرى فى شأنه ذلك الحديث القصير مجهولا من الجميع كما حسب هو والجنرال ، فالواقع انه – وان لم يتحدث فيه احد بصفة رسمية – كان خبره قد بلغ الى علم بعض الشخصيات الكبيرة ، كما وصل فى شيء من الغموض الى رجال السلك السياسى ، وكان موضع همس بين اثنين من المدعوين لا يرتديان الملابس الرسمية او تزين ثيابهما اية نياشين وقد بدا عليهما كأنما تلقيا تعليمات واضحة فى ذلك الشأن

كان كلاهما كبير السن نحيل الجسم ، واحدهما فرنسى اسمر مثل سكان جنوب فرنسا ، والآخر انجليزى اصهب احمر مثل اهل مقاطعة لانكشير . وبينما كان الفرنسى يتكلم فى حدة مستعينا بتعبيرات عينيه وشفتيه وحركات يديه ، كان زميله الانجليزى هادئا باردا مقتصدا فى حركاته وكلماته، وقد بدا عليه كأنما ليس فى رأسه غير فكرة واحدة . وكان الراقب لهما يستطيع ان يحكم من الفارق الفسيولوجى الكبير بينهما ان اولهما كله عيون ، وان الثانى كله آذان !

كان الفرنسى ذا عينين اكسبهما المران حدة وحساسية بحيث يمكن القول بانهما كفلتا له ما يسمى بذاكرة البصر ، اما زميله الانجليزى فكان كأنما خلق لينصت ويسمع ، بحيث كان يكفى ان تلتقط اذنه صوت انسان ما كى يذكره ويستطيع تمييزه من بين الف صوت ولو بعد عشر سنوات او عشرين سنة !.

وقد اعانت حاسة كل منهما صاحبها فى عمله بصورة رائعة ، اذ كان الانجليزى مراسل جريدة « الديلى تلغراف » والفرنسى مراسل جريدة فرنسية لم يذكر اسمها . وقد دعيا الى تلك الحفلة التى اقيمت بالقصر الجديد ليلة ١٥ يوليو بصفتهما الصحفية هذه !

ومن نافلة القول الاشادة بما كان يتصف به الاثنان من شغف بمهنتهما ، وحرص على الظفر باهم الانباء واخطرها ، وشجاعة فى مواجهة الاخطار التى يتعرضان لها بحكم عملهما ، و « دم بارد » يجعلهما لا يخافان من شيء ولا يحجمان عن امر فى سبيل بلوغ غايتهما .. فكانا فى سباقهما للحصول على الاخبار يجتازان كل سياج ، ويعبران الانهار ويقفزان فوق الحواجز ، بحماسة من يريدون السبق .. او الموت دونه !

ولم تكن صحيفتاهما تبخلان عليهما بالمال ، وهو السلاح الاسرع والاقوى للاستعلامات حتى اليوم ، ومن حقهما ان نضيف ان احدا منهما لم يكن يعمد الى التسمع من وراء الابواب او التطلع الى ما فوق اسوار الحياة الخاصة لأحد من الناس ، وانما كان مجالهما الوحيد ما يتصل بالسياسة والمجتمع او – على حد تعبير الصحافة العصرية – كان اختصاصهما اجراء التحقيقات الصحفية السياسية والحربية . وسنرى – ونحن نتتبعهما عن كثب – ان لهما فى اغلب الاوقات طريقة خاصة فريدة فى استقراء الانباء الهامة وملابساتها

كان المراسل الفرنسى يدعى السيد « جوليفيه » وكان زميله الانجليزى يدعى « هارى بلونت » وقد التقيا لاول مرة فى هذه الحفلة الساهرة القائمة بالقصر الجديد ، والتى كلفا كتابة شيء عنه لصحيفتيهما . وكان المعقول ان يباعد بينهما تنافر طباعهما وشخصيتيهما ، فضلا عما لا شك فيه من الغيرة التى يتبادلها ابناء المهنة الواحدة . لكن الذى حدث ان احدهما لم يتجنب الآخر على اثر تعارفهما ، بل حرص على مبادلة زميله استئناسه بصدد حوادث اليوم وتعليقه عليها . فكانا بمثابة صيادين يصطادان على ارض واحدة ، وبذخيرة واحدة . وما كان يفوت احدهما لم يكن يبعد ان ينتبه اليه الآخر ، ومن ثم اقتضتهما مصلحتهما الذاتية ان يحشدا كل طاقتهما للملاحظة والرؤية والسمع ، وبخاصة فى هذه الليلة التى بدا فيها ان فى الجو شيئا او اشياء !

وهكذا وقف الزميلان يتحدثان اثناء الرقص ، بعد ثوان معدودات من خروج الجنرال كيسوف ، وبدأ جوليفيه الحديث قائلا :

– حقا انها حفلة رائعة يا سيدى

فقال هارى بلونت : « لقد ابرقت لصحيفتى بوصفها وقلت انها حقا مدهشة ! »

فعاد جوليفيه يقول : « وقد وجدت من واجبى ان الفت ابنة عمى الى .. »

فقطع كلامه زميله الانجليزى متسائلا : « ابنة عمك ؟! »

فقال : « نعم ، ابنة عمى « مادلين » التى اراسلها ، انها تحب ان تقف على كل

شيء في جيبه . وقد وجدت من واجبي ان القتها الى ان سحابة من الهم قد ظللت جبين القيصر منذ هنيهة ! »

فقال بلونت : « كيف ! لقد بدا لى متهللا ! »

قال : « ولعلك جعلته كذلك على صفحات الديلى تلغراف ! »

قال : « بالضبط ! »

فقال جوليفيه : « أتذكر يا مسيو بلونت ما حدث فى (زاكريت) عام ١٨١٢ ! »

قال : « نعم اذكره كأنى شهدته ! »

قال : « اذن فأنت تعلم انه خلال حفلة اقيمت تكريما للامبراطور اسكندر ، اخبره المختصون بان نابليون قد جاوز « نيمين » ومعه الحرس الفرنسى الامامى .. ورغم خطورة النبأ الذى كان يمكن أن يعنى ضياع الامبراطورية ، لم يبرح الامبراطور الحفلة ، ولم يظهر شيء يكشف عن ارتياحه ! »

فقال الصحفى الانجليزى : « وهذا ما فعله مضيفنا حين انباه الجنرال كيسوف بان الخط التلغرافى بين الحدود وحكومة اركوتسك قد قطع »

فسأله زميله الفرنسى : « اذن فأنت تعرف هذه التفصيلات ! » . ولما اوما هذا برأسه موافقا ، قال له : « اما انا فقد كان من العسير على تجاهلها بعد أن وصلت برقيتى الاخيرة الى اودنسك »

فقال : « ان برقيتى انا لم تصل الى ابعد من كراسنويارسك »

قال : « واذن انت تعلم انه قد ارسلت تعليمات الى الجيوش المعسكرة فى نيكولايفسك ! »

فقال : « نعم ، حدث هذا فى الوقت الذى ابرقوا فيه الى قوزاق حكومة توبولسك كى يتجمعوا ! »

فأوما برأسه موافقا وقال : « وقد ابرقت الى باريس بجميع هذه التفصيلات »

قال : « وسوف يطلع عليها غدا قراء الديلى تلغراف .. ارايت فائدة اساخة السمع لكل ما يقال »

فابتسم وقال : « وفائدة توجيه البصر الى كل ما يرى ! .. انها حملة سيكون من الشائق تتبعها »

فقال بلونت : « حسنا .. وسوف اتتبعها بدورى يا مسيو جوليفيه »

وحين افترق الصحفيان ، كان كلاهما قرير النفس بأن الآخر لم يسبقه فى استطلاع خفايا الاخبار ، فقد كان الاثنان فى هذا المضمار فرسى رهان

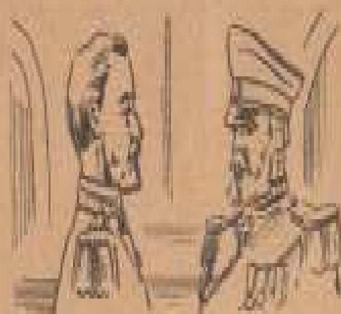
وفى تلك اللحظة فتحت ابواب الصالات المفضية الى الصالون الكبير ، حيث مدت موائد طويلة ، وضعت عليها الاوانى الذهبية والخزفية الثمينة ، بينما حفلت المائدة الرئيسية - المخصصة للامراء والاميرات واعضاء السلك الدبلوماسى - بالأوانى والتحف النادرة التى انتجتها مصانع « سيفر » العالمية ، وقد انتشرت فوق غطاء فاخر المائدة ، وعكست اضواء الثريات المتلألئة فى سقف المكان

وفى اللحظة التى بدا فيها المدعوون يتفرقون فى صالات العشاء ، اقبل الجنرال كيسوف الى حيث كان مولاه جالسا مرتديا سترة فرسان الحرس ، فابتدره هذا فى لهفة سائلا : « ما وراءك ! »

فأجاب بقوله : « لم تعد البرقيات تتجاوز تومسك يا مولاى ! »

قال : « اذن فعجل برسول فى الحال ! » . ثم نهض وغادر القاعة الكبرى الى حجرة واسعة متصلة بها ، هى حجرة مكتبه الخاص ، وكانت مؤثثة باثاث بسيط من خشب « الارو » القديم ، ففتح النافذة بشيء من الحدة ، كما لو كان بحاجة الى أن يملأ رئتيه بالاكسيجين ، واخذ يستنشق هواء تلك الليلة الجميلة من ليالى يوليو ، ويتطلع الى سور ضخم محصن تقوم داخله ثلاثة قصور وكنيستان وترسانة أسلحة ، وتبين خارجه معالم ثلاث ضواح هى : كيتاى ، وبيلوى ، وزمليانوى ، وهذه الضواحى تضم خليطا من الاحياء الاوربية والصينية والتترية ، تشرف عليها الابراج والمنائر والقباب الخاصة بثلاثمائة كنيسة يعلو كل منها صليب من الفضة . وهناك عند اقصى الافق نهر صغير تعكس مياهه ضوء القمر الساجى !

ذلك النهر هو نهر « موسكوفا » .. وتلك المدينة هى مدينة « موسكو » . اما القلعة المحصنة فهى « الكرملين » . واما صاحب الشخصية الكبيرة الذى ارتدى سترة فرسان الحرس ، ووقف هناك وذراعاه معقودتان على صدره ، وعلى جبينه سمة القلق والتفكير العميق ، برغم الضجيج الذى ينبعث من القصر الجديد .. فلم يكن سوى جلالة القيصر نفسه !



روس وتتار

كان القيصر قد غادر فجأة صالونات القصر الجديد ، في الوقت الذي بلغت فيه ذروة التألق حفلته التي اتاهـا السلطات المدنيـة والعسكرية وصفوة شخصيات موسكو ، وذلك لأن انباء خطـيرة ابلغت الى مسامعه من احداث تجري على حدود جبال الاورال ، لا تدع مجالا للشك في ان هناك غزوا ترياً هدفه سلخ ولايات سيبيريا عن سلطان روسيا !

وسيبريا ـ او روسيا الاسيوية ـ مساحة من الارض يبلغ مداها نحو ٥٦٠ الف فرسخ ، ويقطنها مليونان من السكان ، وهي تمتد من جبال الاورال ـ التي تفصلها عن روسيا الاوربية ـ الى المحيط الباسفيكي . وفي جنوبها تقع بلاد التركستان والامبراطورية الصينية ، وفي شمالها المحيط المتجمد الشمالي . وهي مقسمة الى ولايات خمس هي : توبولسك ، وينيزيسك ، واركوتسك ، واومسك ، وباكوتسك . وكانت هذه المساحة الشاسعة من البراري تستخدم منفى للمجرمين والمحكوم عليهم . ويمثل القيصر فيها حاكمان : يقيم احدهما باركوتسك عاصمة سيبريا الشرقية . ويقيم الاخر بتوبولسك عاصمة سيبريا الغربية . ويفصل بين المنطقتين نهر « تشونا »

وفي الوقت الذي وقعت فيه حوادث هـذه القصة لم تكن تخترق تلك الاقطار الشاسعة خطوط حديدية ، برغم ان بعضها كان ارضا خصبة تصلح للزراعة ، وبعضها غني بالمناجم التي تجعل باطن الارض اغنى من سطحها ، وانما كانت الزحافات ، هي وسائل المواصلات الوحيدة في انحائها بجانب الخط التلغرافي الذي يربط بين اطراف الحدود الغربية والشرقية ، وطوله اكثر من ثمانية آلاف ميل ، واجر الكلمة الواحدة بوساطته سبعة روبلات وتسعة عشر كوبيك . وتحمل البرقيات الى بكين في عربة البريد فتبلغها بعد اربعة عشر يوما

وهذا الخط هو الذي قطع عند مدينة تومسك ، فسبب هذا للقيصر كثيرا من القلق والازعاج وجعله ينفرد بنفسه في شرفة مكتبه الخاص ، يفكر ويتدبر الموقف ، ولكن لم تمض عليه في وقفته تلك لحظات حتى فتح الباب وظهر مدير البوليس على عتبته ، فقال القيصر بصوت ملهوف :

ـ ادخل يا جنرال ، وقل لي كل ما تعرفه عن « ايفان اوجاريف »

فقال مدير البوليس : « انه رجل خطر جدا يا مولاى »

قال : « أ[illegible] يحصل على رتبة الكولونيل ؟ وهل هو ذكي ؟ »

فقال : « نعم يا مولاى ، هو ضابط برتبة كولونيل ، وهو على ذكاء مدهش ، وذو طموح وثاب ، لا يتراجع امام عقبة ايا كانت ، وقد ارتمى اخيرا في شبكة مؤامرات سرية انتهت بتجريده من رتبته بأمر سمو الغرانددوق ، ثم نفيه الى سيبريا »

فقال القيصر : « متى حدث ذلك ؟ »

فقال : « منذ عامين ، لكن مولاى اصدر امره بالعفو عنه بعد انقضاء ستة اشهر عليه في المنفى ، فعاد الى روسيا »

فقال القيصر : « الم يعد الى سيبريا مرة اخرى ؟ »

قال : « عاد اليها ، ولكن باختياره في هذه المرة . فلقد مضى العهد الذي كان فيه الشخص الذي يرسل الى سيبريا ، لا يعود منها حيا ! »

ـ ما دمت انا على قيد الحياة فلن تكون سيبريا منفى لا يعود الناس منه احياء

وكان القيصر يتكلم بلهجة زهو واضحة ، لم تخف على مدير الشرطة ، الذي لم يكن يقر سياسة الصفح والتسامح التي يسير عليها القيصر !

وعاد القيصر يسال : « هل لم يعد (ايفان اوجاريف) الى روسيا بعد تلك الرحلة الغامضة الى سيبريا ؟ »

فقال مدير البوليس : « لقد عاد بعدها يا مولاى »

قال : « وهل فقد البوليس آثاره منذ عودته هذه ؟ »

فقال : « لا يا مولاى ، لان المجرم لا يصير ذا خطر حقيقة الا منذ اليوم الذي يظفر فيه بالعفو ! »

وبدا التجهم في وجه القيصر ، ازاء هذا الانتقاد المستور لسياسته الداخلية ، لكنه تابع اسئلته قائلا : « واين كان ايفان في آخر مرة وقعتم فيها على اثره ؟ »

فاجابه مدير البوليس بقوله : « كان في مدينة بيرم يا مولاى »

قال : « وماذا كان يصنع هناك ؟ »

فقال : « كان يبدو عاطلا لا يقوم باى عمل ، ولكن مسلكه لم يكن يحمل على الارتياب فيه »

قال : « الم يكن تحت مراقبة البوليس الاعلى ؟ » . فقال : « لا يا مولاى »

قال : « ومتى غادر بيرم ؟ » . فقال : « خلال شهر مارس »

فسأله القيصر : « الى اين ذهب ؟ » . فأجاب قائلا : « لا احد يعلم يا مولاى ، فمنذ ذلك التاريخ لم نعثر على اي اثر له »

فقال القيصر : « اما انا فاعلم اين ذهب ، ان عندي تقارير سرية عنه ، واعتقد على ضوء الاحداث الاخيرة انها صحيحة ! »

فقال مدير البوليس : « هل يقصد مولاى ان لايفان اوجاريف يدا في غزو التتار ؟ »

قال : « نعم يا جنرال ، وساطلعك على ما تجهل في هذا الشأن . لقد غادر ايفان مدينة بيرم عبر جبال الاورال الى حيث عسكر مدة في سيبيريا داخل الخيام ، ونجح في اثارة شعور اهلها ؛ ثم هبط الى الجنوب نحو التركستان الحرة ، وهناك وجد من بين رؤساء القبائل من واتفوه على تسخير جنودهم التتار في غزو الامبراطورية الروسية الاسيوية . وبعد ان تم الاستعداد للمؤامرة في الخفاء ، انطلق الهجوم فجأة كالصاعقة ، وها هي ذي سبل المواصلات قد قطعت بين سيبيريا الغربية والشرقية . واكثر من ذلك ان ايفان اوجاريف يدبر امر الاعتداء على حياة شقيقي ، امعانا في الانتقام ! »

وكان القيصر يتكلم في حدة ، وهو يذرع الحجرة كالنمر الحبيس ، ولم يجب مدير الشرطة بكلمة ، وان كان قد حدث نفسه بان مؤامرة ايفان اوجاريف ما كانت لتتم او تنجح لو انه قام بها في الزمن الذي كان فيه القياصرة يقضون فيه على المنفيين بالصفح !

وبقي مدير الشرطة صامتا هنيهة ، ثم قال للقيصر الذي جلس متهالكا على مقعد هناك :

ـ احسب ان جلالتكم اصدرتم امرا عاجلا بصد هذا الغزو ! »

فقال القيصر : « نعم ، وقد كانت آخر برقية وصلت الى « نيجني اودنسك » تحمل الامر بحشد جيوش عدة ولايات وتسييرها نحو جبال الاورال . ولكن لسوء الحظ لا بد من انقضاء اسابيع قبل أن يتاح لها بلوغ مستعمرات الاعداء ! »

قال : « وهل انقطع اتصال جلالتكم بسمو الغرانديوق شقيقكم الذي عزل الآن في اركوتسك ! »

فقال : « نعم .. لكنه يعلم من البرقيات التي وصلت اليه ما اتخذت من اجراءات لنجدته بجيوش الولايات القريبة منه . وان كان يجهل الدور الذي قام به ايفان اوجاريف في تدبير الغزو ، كما يجهل النية التي بيتها هذا الخائن للاعتداء عليه ، انتقاما منه بسبب الامر الذي اصدره بتجريده من رتبته . وتتلخص خطة ايفان الانتقامية في ان يتوجه الى اركوتسك منتحلا اسما مستعارا ، وهناك يعرض خدماته على الغرانديوق الذي يجهل شخصه . وبعد ان يظفر بثقته ، وفي الوقت الذي يكون فيه التتار قد بلغوا ابواب المدينة ، يعمد الى تسليمهم اياها ، ومعها اخي ! .. لذلك ارى ان اول ما يجب ان نفعل هو اخطار الغرانديوق بهذا التدبير الذي يجهل كل شيء عنه ، وهذا يتطلب رسولا ذكيا شجاعا »

فقال مدير البوليس : « نعم يا مولاي ، ولا سيما ان سيبيريا موطن المتمردين والثوار ! »

قال : « اتعني ان المنفيين ينتظر ان ينضموا الى الغزاة ؟ »

قال : « ارجو المغفرة يا مولاي »

فقال : « انني اكثر وطنية من هذا فيما أعتقد »

قال : « لكن بينهم كثيرين من المجرمين غير السياسيين يا مولاي ! »

قال : « اوه انني ادع امر هؤلاء لك يا جنرال . انهم حثالة النوع الانساني ، وهم لا ينتمون الى اي وطن . اما الآخرون فلا احسبهم ينسون ان الغزو ليس موجها الى شخص القيصر بل الى روسيا ذاتها ، وهم لم يفقدوا الامل في ان يطأوا ارضها مرة اخرى ، وسوف يطأونها ! .. لكن كلا ، لا يمكن ان يتعاون روسي مع تتاري في سبيل اضعاف سطوة حكومة موسكو ! »

وكان القيصر على حق في ثقته بوطنية خصومه السياسيين الذين ابعدوا الى سيبيريا حتى حين ؛ ولا سيما ان سياسته نحو هؤلاء كانت تقوم على التسامح والرحمة بالقياس الى سياسة اسلافه القساة . ولكن الموقف بازاء الغزو كان ما يزال خطرا برغم ذلك ، لاحتمال انضمام قسم كبير من اهل سيبيريا الى الغزاة ، بغية الحصول على استقلالهم الذاتي ، وقد طالما حضهم تتار التركستان على شق عصا الطاعة على موسكو والانسلاخ عن سلطانها

والتتار ينتمون الى جنسين : الجنس القوقازي ، والجنس المغولي . وقد كان اهل التركستان الذين يهددون روسيا بالغزو من الجنس الاول . وكانت التركستان مقسمة الى ولايات عدة ، يحكم كل ولاية منها « خان » . وفي تلك الحقبة كان اخطر الولايات التركستانية وادعاها الى الارتياب هي ولاية « بخارى » التي اشتبكت روسيا مرارا في منازعات مع حكامها بسبب تحريضهم سكان سيبيريا على التمرد ، ودعوتهم عشيرة « الكرجيز » الى الانفصال عن سلطان حكومة موسكو

وكان حاكم بخارى في ذلك الوقت « فيوفار خان » يسير على نهج اسلافه في سياسته العدائية نحو روسيا . وكانت ولايته تشغل مساحة تقرب من عشرة آلاف فرسخ مربع وسكانها يربون على مليونين وخمسمائة الف نسمة ، وجيشها يقدر بنحو ستين الف مقاتل ، يتضاعف عددهم الى ثلاثة امثاله في زمن الحرب ، يضاف اليهم ثلاثون الف فارس

وكانت بخارى الى ذلك ولاية غنية ، ذات ثروة حيوانية ومعدنية ونباتية متنوعة . وبها تسع عشرة مدينة كبيرة وتعد مركز الحضارة الاسلامية في آسيا الوسطى ، وقد اشتهرت « سمرقند » بانها تضم قبر « تيمورلنك » كما تضم القصر العظيم الذي يحتفظون فيه بالحجر الازرق الكبير الذي يتعين على كل خان جديد ان يجلس فوقه على اثر اعتلائه منصبه .. وتحمي القصر قلعة ضخمة محصنة اقوى تحصين ، كما تحمي الولاية كلها سلسلة من الجبال والبراري الشاسعة التي يضطر من يريد مهاجمتها الى أن يحشد لذلك جيوشا جرارة

وكان « فيوفار خان » حاكم الولاية رجلا شرسا طموحا ، يعتمد الى حد ما على معاونة حكام الولايات المجاورة كي يمدوه بالمقاتلين القساة الشجعان ، الذين يلقون بانفسهم على العدو بغريزة التترى المتوحش ؛ وعلى راسهم قواد من رؤساء عشائر آسيا الوسطى الذين يدين رجالهم بالطاعة والولاء . وبهذا الاستعداد الضخم تزعم « فيوفار خان » مشروع الغزو الذي وضع خطته

بالحكمة ذلك الضابط المفصول إيفان أوجاريف ، بدافع من طموحه وحقده ، وكان عماد تلك الخطة قطع طريق سيبريا الرئيسي الكبير !

وبايحاء من ايفان ، قذف الأمير – كما يطلقون على « خان » بخارى – برجاله المقاتلين على الحدود الروسية ، فغزوا مقاطعة « سميبالاتسك » واضطر المدافعون عنها من رجال القوزاق – وكانوا قلة ضئيلة العدد – الى الانسحاب .. بينما تقدم هو بجنون حتى حاوز بحيرة بلخاش ، وكان في طريقه قد استمال اليه بعض سكان المناطق التي مر بها من قبائل الكرجيز .. وهكذا مضى يكتسح بلدة بعد بلدة ، ناهبا سالبا متلفا مخربا ، ومجندا من استسلموا له ، أسرا من قاوموه وفي ركابه أسرته وحاشيته على عادة ملوك الشرق ، ومن بينها نساؤه وجواريه .. وهو حريص على ابراز مظاهر القوة والسلطان اللائقين بجبار مثله من المشبهين بجنكيز خان !

ولم يكن أحد يعرف الى أي مدى تغلغل جنوده ، في الوقت الذي بلغ فيه نبأ الغزو الى موسكو ، ولا الى أي مدى تقهقرت القوات الروسية امام الغزاة !. ذلك لأن الاتصال بين المدافعين والعاصمة كان معدوما . ولا أحد يدري : هل هل قطع الخط بين « كوليفان » و « تومسك » بيد الجيش الروسي المرتد ، أم بيد جيش التتار ؟ وهكذا انتشرت الأسئلة على الأفواه : وتساءل المختصون هل وصل « الأمير » الى ولاية « ينيسيسك » ؟ وهل ثبت التتار في القطاع الجنوبي من سيبريا الغربية ؟ وهل امتدت الفتنة الى المناطق الشرقية ؟

ولم يكن ثمة من عجب بعد أن فقد الرسول الوحيد الذي يسير بسرعة الصاعقة ، ولا يخشى البرد ولا الحر ، ولا يعوقه زمهرير الشتاء ولا هجير الصيف .. فقد التيار الكهربائي ، الذي كان وحده يستطيع عبور تلك البراري الشاسعة ، ولم يعد في الامكان تحذير الغراندوق المحصور في « ايركوتسك » من الخطر الذي يهدده من جانب الخائن ايفان اوجاريف !

رسول واحد آخر كان يستطيع أن يحل محل الخط المقطوع ، وان احتاج الى وقت أطول كي يعبر الخمسة الآف ميل من موسكو الى ايركوتسك ، كما انه يحتاج الى شجاعة وذكاء خارقين كي يخترق صفوف الثوار والغزاة ويصل الى هدفه

ولقد كان القيصر يتساءل : « ترى هل احد هذا الرسول ؟ »

ميشيل ستروجوف

فتح باب مكتب القيصر ، واعلن الحاجب حضور الجنرال كيسوف ، وسأل القيصر زائره في لهفة : « هل جئت بالرسول ؟ » . فقال الجنرال : « انه هنا يا مولاى »

قال : « هل وجدت الرجل الذي تريده ؟ » . قال : « نعم »

فسأله : « أتعرفه جيدا ؟ وهل له خدمات سابقة ؟ »

قال : « نعم يا مولاى ، وقد نجح في عدة مهام خطرة ! »

فسأله : « أكانت هذه المهام في الخارج ؟ »

فأومأ برأسه موافقا وأردف يقول : « في سيبريا بالذات ! »

قال القيصر : « ومن أين هو ؟ » . قال : « من اومسك .. انه سيبيري أصيل ! »

فعاد يسأله : « أتتوافر فيه الصفات المطلوبة : الذكاء والشجاعة ، وامتلاك الأعصاب ؟ »

قال : « نعم يا مولاى ، وعنده كل ما يحتاج اليه لينجح حيث يفشل غيره ! »

فسأله : « ما سنه ؟ » . قال : « ثلاثون سنة »

قال : « أهو قوي البنية ؟ » . قال : « وله طاقة كبيرة بتحمل البرد والجوع والظمأ والتعب ، لكأن جسمه من فولاذ ! »

فقال القيصر : « وقلبه ؟ » . قال الجنرال : « من ذهب يا مولاى »

فسكت القيصر هنيهة ، ثم قال : « ما اسمه يا جنرال ؟ »

فقال : « اسمه يا مولاى ؟ ميشيل ستروجوف »

قال : « أمستعد هو للسفر ؟ » . قال : « انه الآن ينتظر اوامر مولاى في قاعة الحرس » . قال : « فليدخل علي »

وبعد لحظات دخل ميشيل ستروجوف مكتب القيصر ، فوجد هذا أمامه رجلا طويل القامة ، قوي الراس ، عريض المنكبين ، واسع الصدر ، يمثل رأسه القوي خصال الجنس القوقازي الجيدة .. وتتدلى من جبهته العريضة خصلات من الشعر الثائر . وكان وجهه في العادة شاحبا ، لا يحمر الا حين تسرع نبضات قلبه في المواقف التي تثير الانفعال . أما عيناه فزرقاوان نظراتهما صريحة مستقيمة براقة تنم من الشجاعة الفائقة ، وأنفه قوي واسع يشرف على شفتين بارزتين ، تفصحان عن طبيعة كريمة طيبة . أما أبرز خصاله فكان الحزم والحسم اللذان لا يعرفان التردد أو التقهقر

« ووقف ميشيل امام القيصر ، كما يقف الجندى امام ضابطه . وكان يرتدى سترة عسكرية انيقة ، يزين اكمامها الفراء ، وعلى صدره العريض يلمع صليب وبضع مداليات . وكان ينتمي الى فرقة « المراسلين » للقيصر ، برتبة ضابط . وكان الذى يبدو من قسماته ومشيته وحركاته انه يعرف كيف « ينفذ » الاوامر . والواقع انه كان خير من يقوى على عبور البرارى وتحمل المشاق وتخطى العقبات ، فضلا عن اتقانه لهجة اهالى المناطق التى سيمر بها وخبرته بعاداتهم وطباعهم ، بحكم نشأته الصارمة فى احراش اومسك وتوبولسك ، كما اراد له ابوه « بيتر ستروجوف » الذى مات منذ عشر سنوات ـ وامه « مارفا » التى ما تزال تقطن اومسك . وكان ابوه صيادا بارعا فى صيد الوحوش والدببة ، قديرا على تحمل القيظ والزمهرير ـ الذى يصل احيانا الى خمسين درجة تحت الصفر ! ـ ومنذ بلغ ابنه ميشيل الحادية عشرة صار يصطحبه معه فى رحلات الصيد ، ويحمله حربة كى ينجده بها ـ عند اللزوم ـ لانه لم يكن يتسلح بغير السكين ، وفى الرابعة عشرة افلح ميشيل فى اصطياد دبه الاول ، وحده ، ثم جر جثته ثلاثة اميال حتى بيت ابيه !..

وقد اعانته حياته على هذا المنوال ، فلما صار رجلا ، امتاز بقوته الخارقة على تحمل المشاق والتقلبات الجوية . واستطاع ان يبقى اربعا وعشرين ساعة بغير طعام ، وعشر ليال بغير نوم ، وعرف كيف ينشيء لنفسه مخبا فى البرارى الموحشة العارية ، وكيف يشق طريقه فى الضباب الكثيف ، مهتديا بالأثر التافه لوبر الثلج واغصان الأشجار ، واعشاب الغابات ، والاصوات البعيدة الغامضة ، والطيور العابرة فى اتجاه معين .. وغير ذلك من العلامات الضئيلة التى تكشف لذكائه عن سر الطريق . وكان اذا غاص فى الثلج ، كما يغوص النصل فى مياه سوية ، اعانته صحته الفولاذية على النجاة سالما !

اما عواطفه فكان يختص بها كلها امه العجوز ، وقد ابت ان تفارق البيت الذى عاشت فيه مع ابيه دهرا سعيدا ، فى اومسك . فلما تقرر ان يفارقها ابنها ، حين بلغ العشرين ، كى يلتحق بخدمة القيصر اخذت منه وعدا بان يزورها كلما مكنته ظروفه .. وقد بر بوعده فى كل مناسبة . وفى فرقة الرسل القيصرية الخاصة ، اثبت الشاب كفاءة ممتازة ، وذكاء نادرا ، وخلقا حميدا ، ومثابرة على العمل . وعندما ارسل فى مهمات خطيرة الى القوقاز ، ثم الى اطراف روسيا الاسيوية ، اظهر شجاعة فائقة وحذرا وحصافة وسيطرة على الاعصاب ، فرضى عنه كل رؤسائه ، وشق طريقه الى الترقية بسرعة . وكان يكرس دائما اجازاته لزيارة امه ، برغم بعد الشقة ومصاعب السفر الطويل . لكنه لم يزرها منذ ثلاثة اعوام ، حسبها كل منهما ثلاثة قرون ، وكان ذلك لانتدابه للعمل فى الجنوب ، وقد اسعده ان وعده رؤساؤه باجازة قصيرة ، فاخذ يتأهب للرحيل لدى صدور التصريح له بالسفر

ولكن ها هو ذا القيصر يطلبه !.. ترى ماذا يريد منه ؟!. انه يقف الآن امامه وليس فى ذهنه سوى فكرة غامضة عن الغرض الذى دعى من اجله !

ولبث ال[illegible]يهة ، يتأمل ميشيل بنظراته الفاحصة ، دون ان ينبس



« وأدى ميشيل ستروجوف التحية العسكرية للقيصر ثم تناول منه الخطاب »

بكلمة ، بينما وقف هذا منتصبا بلا حراك . وراح يملى عليـه بهمس خطابا قصيرا لا يجاوز السطور المعدودة . ثم تناول الخطاب وأعاد قراءته بعناية ، ثم مهره بامضائه ، ووضعه فى ظرف ختمه بالخاتم القيصرى .. وعندئذ نهض من مقعده واشار الى الرسول بالاقتراب ، فدنا ميشيل بضع خطوات وتسمر فى مكانه من جديد ، متأهبا لأى طلب أو سؤال .. بينما رمقه القيصر بنظرة اخرى فاحصة ، ثم سأله بصوت حازم : « ماسمك ؟ »

قال : « ميشيل ستروجوف .. يوزباشى بفرقة رسل القيصر »

فسأله : « أتعرف سيبريا ؟ » . قال : « ولدت ونشأت فيها »

فقال : « اذن اليك هذا الخطاب ، أعهـد اليك يا ميشيل ستروجوف فى تسليمه للغراندوق دون غيره ، يدا بيد ، فى اركوتسك »

قال : « سيكون ما أمر به مولاى »

قال : « انك ستمر بمناطق يحتلها الثوار الأعداء ، ومن مصلحتهم مصادرة هذا الخطاب .. ولتكن على حذر من خائن يدعى (ايفان أوجاريف) قد تلتقى به فى الطريق »

قال : « سأكون على حذر تام يا مولاى »

وواصل القيصر تعليماته فقال : « حين تمر بأومسك لا تزر أمك هناك ، والا عرف الأعداء شخصيتك »

فقال : « لن أزورها يا مولاى »

قال : « يجب الا تقوى اية قوة على جعلك تفصح عن اسمك او وجهتك . اتقسم على ذلك ؟ » . قال : « أقسم يا مولاى »

فناوله الخطاب قائلا : « تذكر دائما ان سلامة سيبريا وحياة أخى قد تتوقفان على وصول هذا الخطاب »

فتناوله باجلال وهو يقول : « سأوصله أو أقتل ! »

فقال القيصر : « بل يهمنى أن تعيش. قال : « اذن سأعيش ، واصل .. تنفيذا لأمر مولاى »

قال : « اذهب اذن ، تحرسك عناية الله .. من اجل روسيا ، ومن أجل اخى ، ومن أجلى »

وادى ميشيل ستروجوف التحية العسكرية للقيصر ، وغادر الحجرة ، ثم القصر ، بينما التفت القيصر الى الجنرال كيسوف وقال : « أعتقد أنك وفقت فى الاختيار »

فقال الجنرال : « أعتقد أن ميشيل ستروجوف سيفعل اقصى ما يستطيعه رجل »

فقال القيصر : « نعم .. انه رجل ! »

المرحلة الأولى

كانت المسافة التى يتعين على ميشيل ستروجوف ان يعبرها بين موسكو واركوتسك نحو خمسة آلاف ميل . ومنذ قطع الخط التلغرافى بين جبال الاورال وحدود سيبريا الشرقية صارت الرسائل تنقل بواسطة رسل لا يستطيع اسرعهم أن يقطع المسافة فى اقل من ثمانية عشر يوما ، مع الاستعانة بكل التسهيلات التى تعطيها السلطات لرسل القيصر ، فان المدة العادية لقطع تلك المسافة لا تقل عن اربعة اسابيع او خمسة !

وقد كان ميشيل ستروجوف يفضل ـ وهو لا يخشى البرد والثلج ـ لو ان رحلته كانت فى الشتاء ، حيث تستحيل البرارى كلها والانهار الى مساحة واسعة مصقولة من الجليد الذى تنزلق عليه الزحافة بسرعة فائقة ، دون ما عقبة او عائق ، ومع ان كثافة الضباب واستمراره فى الشتاء ، فضلا عن البرد الرهيب والذئاب الجائعة التى تجتاح السهول الاف منها احيانا ، كفيلة بارجاع غيره عن مثل هذه المخاطرة

ولعل ستروجوف قد ادخل فى حسابه ايضا ان من حسنات الرحلة فى الشتاء ان يعسكر الاعداء فى المدن ، احتماء من البرد ، فيقل عدد جواسيسهم ورقبائهم الذين يتعرض المسافر لخطرهم فى العراء والبرارى المكشوفة .. ولكن انى للرسول ان يختار وقت الرحلة او ظروفها ؟

وهكذا اعد ستروجوف عدته للسفر ، وزوده الجنرال كيسوف بالمال ، وبجواز سفر مصطنع باسم « نيقولا كوربانوف ـ تاجر متجول ، مقره الرئيسى « اركوتسك » يخوله حق الركوب فى عربات البريد او امتطاء صهوات جيادها . لكنه امر بالا يستخدم هذا الجواز الا فى مناطق روسيا الاوربية ، خشية اكتشاف امره لو ركب تلك العربات او الجياد فى ارض الاعداء المليئة بالجواسيس . كما أوصاه الجنرال كيسوف بالحرص على ان يبدو فى كل الظروف تاجرا عاديا ، لا مبعوثا خاصا ، ومن ثم عليه ان يتحمل جميع المضايقات التى يتحملها المسافر العادى

وفى ذلك العهد ، لم يكن ركاب المسافر ذى الحيثية يضم اقل من مائتى فارس قوزاقى ، ومائتى جندى من المشاة ، وخمسة وعشرين فارسا خاصا ، وثلاثمائة جمل ، واربعمائة جواد ، وخمس وعشرين عربة ، وزورقين خفيفين ومدفعين .. تلك كانت عدة المسافر عبر سيبريا . لكن ستروجوف لم يكن ليأخذ معه فارسا ولا مدفعا ولا جملا ولا جوادا .. وانما عليه ان يسافر بالعربة او الجواد اذا استطاع .. او على قدميه اذا وجب السير على القدمين .

ولم تكن الالف ميل الأولى تنبىء بصعوبة ما ، فقد كان فى متناول اى مسافر ان يستقل فيها القطار ، فعربة البريد ، فالسفينة البخارية فالجياد المطهمة !

وهكذا ، فى صباح يوم ١٦ يوليو ، خرج ستروجوف فى لباس مدنى عادى ، يحمل حقيبة سفر على ظهره ، متجها الى المحطة ليستقل اول قطار . ولم يكن يحمل اى سلاح ، او على الاقل كان هذا هو الظاهر ، فقد دس تحت حزامه مسدسا وفى جيبه خنجرا ، من النوع الذى يستعمله الصيادون فى سلخ جلد الدب ، دون أن يمزقوا فراءه الثمين !

وكانت محطة موسكو فى ذلك الصباح مزدحمة بجمهور المسافرين والمودعين ، فاتخذ ستروجوف مكانه فى القطار الذاهب الى « نيجنى نوفجورود » حيث كان ينتهى الخط الحديدى فى تلك الايام ، وهى مسافة تبلغ ٤٢٦ كيلومترا ، يقطعها القطار فى نحو عشر ساعات . اما بعد ذلك فكان امام ستروجوف ان يختار السفر الى جبال الاورال اما طريق البر ، واما طريق سفن الفولجا البخارية ، تبعا للظروف !

وتمدد ستروجوف فى ركنه بالعربة كأنه يريد قتل الوقت بالنعاس ، ولكنه لم يكن وحيدا فى العربة فحرص على ان يظل متنبها ويصغى الى كل حركة وحديث . وقد تبين من مناقشات رفقائه فى السفر ـ وجلهم من التجار القاصدين الى سوق « نيجنى نوفجورود » السنوية ان ثورة عشائر الكرجيز وغزو التتار شاعت انباؤهما فى كل مكان واستأثرت باهتمام الجميع ، ورغم ان المسافرين كانوا خليطا من اليهود والاتراك والقوزاق والروس واهل جورجيا ، فقد كانوا جميعا يتحدثون باللغة الروسية ، ويعربون عن خشيتهم ان تكون الحكومة مقصرة فى اتخاذ الاجراءات التحفظية لحماية المصالح التجارية فى الولايات القريبة من الحدود .. اما فيما يتصل بالاخطار السياسية التى تهدد البلاد من جراء الغزو فقد حالت انانيتهم دون أن يلقوا اليها بالا ، ولا سيما ان احدا منهم لم تكن تداخله ريبة فى ان هذا الشاب الذى انضم اليهم فى العربة قد يكون ضابطا متنكرا !.. ومن ثم استطاع ان يرهف سمعه للحديث الدائر وهو آمن ، فسمع شخصا تدل قبعته المصنوعة من فراء استراخان على انه ايرانى ، يقول :

ـ يبدو ان اسعار الشاى آخذة فى الارتفاع

فاجابه يهودى مسن قائلا : « لا خوف على الشاى من هبوط ثمنه ، فمن الممكن تصديره من ناحية الغرب . وانما الخوف على سجاد بخارى الذى يتعرض لاخطار الطريق من ناحية الشرق »

فسأله صاحبه : « الدن فانت تنتظر رسالة من بخارى ؟ »

فقال : « بل رسالة من سمرقند ، ومن يدرى ماذا يصيبها فى البلاد التى اجتاحتها جيوش الخان ! »

ثم عاد الاول يقول : « اذا لم يصل السجاد ، فاغلب الظن ان الخونة ايضا لن يصلوا ! »

فقال الثاني: « والارباح !. اواه يا اله اسرائيل، الا تحسب لها حسابا ! »

وهنا انبرى له مسافر ثالث وقال: « معك حق .. ان منتجات آسيا الوسطى سوف تختفي من الاسواق، بما فيها الاصواف والشحم وشيلان الشرق ! »

فاجابه رابع تبدو عليه سيماء الروس، وهو يضحك في سخرية ظاهرة: « حذار من أن تتلف الشيلان بالشحم ! »

فرد عليه محتدا: « اوهذا امر يضحكك ! »

وانضم اليه اليهودي قائلا: « يبدو انك لست تاجرا ! »

فقال: « نعم انى لست تاجرا يا سليل (ابراهيم) الموقر .. وانما انا اشترى فقط ما احتاج اليه لاستهلاكي الشخصي »

وهنا التفت اليهودي الى الايراني قائلا: « انه يمزح ! »

فاجابه هذا في صوت اجش: « او انه جاسوس !.. فلنحذر ولا نتكلم اكثر مما ينبغي .. ان البوليس لايعرف الرحمة في هذه الايام، والانسان لايستطيع ان يعرف شخصية المسافر معه ! »

وفي ركن آخر من العربة كانت جماعة اخرى تتحدث في السياسة والغزو اكثر مما تتحدث في التجارة، فقال واحد منها: « ان جياد سيبيريا سوف تصادر لحساب الحكومة، وسوف تتعذر المواصلات بين مختلف ولايات آسيا الوسطى »

فقال آخر: « اصحيح ان قبائل (جركيز) المنطقة الوسطى قد تحالفوا مع الغزاة التتار ؟ انهم يقولون ذلك، ولكن من يستطيع ان يزعم انه يعرف شيئا على وجه اليقين في هذا البلد »

فقال الاول: « سمعت بعضهم يتحدثون عن حشد الجيوش عند الحدود، وعن تجمع قوزاق منطقة نهر (الرون) على ضفاف (الفولجا) لمواجهة الجركيز الثائرين »

فقال الآخر: « اذا كان الجركيز قد اجتاحوا وادي (ارتيش) فان طريق اركوتسك يصبح غير آمن. ولقد حاولت امس ان ارسل برقية الى (كراسنويارسك) فتعذر وصولها. ولشد ما نخشى ان يعزل الغزاة سيبيريا الشرقية قبل مرور وقت قصير »



على هذا المنوال كانت تجري الاحاديث في تلك العربة من القطار، وفي غيرها من العربات، في حذر بالغ يخشى التعرض بكلمة لنوايا حكومة موسكو او الخوض فيها. وكان يجلس في عربة امامية مسافر — يبدو انه اجنبي — يكثر من توجيه الاسئلة الى الركاب عن كل بقعة يمر بها القطار، وتجارتها وصناعاتها، وعدد سكانها، ونسبة الوفيات من الجنسين .. الخ. وكان يقيد كل ذلك في دفتر مزدحم بالبيانات. كان ذلك الشخص السيد « جوليفيه » المراسل الصحفي الفرنسي الذي مر بنا ذكره، وكان يرمي من وراء الاكثار من الاسئلة الى دس السؤال الذي يهمه معرفة جوابه بينها، كي يمر غير ملحوظ !.. ولكن كان من الطبيعي ان يرتاب الركاب في ان يكون جاسوسا فيتحفظون في اجاباتهم عليه، ويتجنبون كل ما يمت بسبب الى احداث الساعة

وفي الوقت نفسه كان زميله الصحفي الانجليزي جالسا في عربة اخرى من القطار نفسه، يسعى الى الهدف ذاته، ولكن بطريقته الخاصة .. بالاستماع اكثر من الكلام والسؤال !.. وبهذه الطريقة لم يثر حوله اي ارتياب في شخصه ونواياه. وخرج من تجسسه الصامت بهذه النتيجة التي خطها في مفكرته الخاصة: « المسافرون قلقون جدا على تجارتهم، ولا حديث لهم الا عن الحرب في حركة وجراة غير عاديتين ». ولما كان جالسا في الناحية اليسرى من القطار، المطلة على الجبال، فقد اضاف بغير ان يكلف نفسه مؤونة التطلع الى السهول الفسيحة التي الى اليمين: « المناطق بين موسكو وفلاديمير جبلية »

وكانت الحكومة الروسية في اثناء ذلك قد اتخذت اجراءات صارمة بازاء تطور الاحداث الخطيرة. لم تكن الفتنة قد جاوزت حدود سيبيريا ولكن الخوف من النتائج السيئة كان يعم مناطق نهر الفولجا القريبة من بلاد الجركيز، وكان البوليس ما زال يجد في اثر الخائن الفار « ايفان اوجاريف » الذي لجا الى استعداء الاجانب كي ينتقم لنفسه، لكن احدا لم يعرف هل هو مقيم مع « فيوفار خان »، ام سافر ليذكي نار الثورة في اقليم « نيجني نوفجورود » الذي يضم في موسم السوق السنوية خليطا من الفرس والارمن، واهل اقليم « كالموح » الذين اشتهر بعضهم باثارة الفتن والقلاقل داخل البلاد !

ان هذه الامبراطورية الشاسعة التي تبلغ مساحتها ١٢ مليون كيلومتر مربع لا يمكن ان يكون فيها ذلك التجانس الذي تمتاز به الدول الاوربية الغربية. وبين الشعوب المتباينة التي تؤلف شعبها لا بد من وجود بعض التنافر، ولاسيما اذا عرفنا ان تلك الشعوب تتكلم ثلاثين لغة مختلفة، ولئن كان الجنس السلافي هو الغالب بينها فانها تضم غيره فئات من البولنديين والتوانيين والكورلنديين والفنلنديين والاستونيين والالمان واليونان والتتار والقوقاز والمغول، وعشرات من الاجناس الاخرى ذات الاسماء الغريبة على الاذن الروسية، ومن ثم كانت وحدة هذه الامبراطورية المترامية معجزة ساهم في اتمامها عامل الزمن وحكمة الحكومات المتعاقبة

وهكذا كان الظن الغالب ان « ايفان اوجاريف » المختفي قد افلح في الانضمام الى جيوش التتار، وبرغم ذلك كان المفتشون يقتحمون القطار في كل محطة كي يفحصوا اوراق المسافرين ووجوههم بعناية، تبعا لتقارير رجال البوليس التي رجحت انه لم يغادر بعد روسيا الاوربية. وكان المفتشون ينزلون كل مسافر يشكون في امره من القطار، ويحتجزونه حتى يثبت شخصيته في اقرب مركز للبوليس، بينما يتابع القطار سفره. وهناك في مركز البوليس كان المسافر المعتقل يعاني الامرين من جراء تعنت الضباط الذين كفل لهم

القانون سلطة واسعة وتحكما مطلقا باسم القيصر المتبوع بالقاب رسمية تبلغ العشرين سطرا أو تزيد !

ووقف القطار في محطة « فلاديمير » لبضع دقائق ، فأتيح لمراسل « الديلي تلغراف » أن يتطلع بفضول الى معالم محطة هذه العاصمة الروسية القديمة ، بينما كان ركاب جدد يصعدون ليأخذوا أماكنهم في عربات القطار المتفرقة

وكان من بينهم فتاة صعدت الى العربة التي يجلس فيها رسول القيصر المتنكر « ميشيل ستروجوف » وشاءت المصادفة أن تجلس في المقعد الخالي المواجه له مباشرة . وبعد أن وضعت بالقرب منها حقيبة متاع متواضعة من الجلد الاحمر ، استكانت في مجلسها وخفضت بصرها دون أن تنظر حتى الى رفقاء السفر الذين قضت الظروف بأن تزاملهم طيلة الساعات العديدة الباقية من الرحلة

لم يستطع ستروجوف أن يقمع ميله الى تأمل صبية حسناء . وحين وجدها غير مستريحة في مقعدها العكسي لاتجاه القطار عرض عليها أن تأخذ مقعده ، لكنها اعتذرت شاكرة بإيماءة من رأسها . كانت سنها تتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ، ذات وجه جذاب يمثل الجنس السلافي بكل نقائه وطهره ، وصرامته بعض الشيء ، وكانت تبرز من تحت خمارها خصلات من الشعر الأشقر الذهبي ، المتناسب مع عينيها العسليتين اللتين تنم منهما نظرة بالغة العذوبة والرقة . وكانت ذات أنف مستقيم ووجنتين شاحبتين غائرتين قليلا ، وفم دقيق جميل ، بدا كأنه نسي الابتسام منذ زمن طويل !.. أما قوامها فكان طويلا رشيقا ، حسبما ظهر من خلال معطف الفراء الذي ترتديه . وكانت قسماتها توحي بأنها على قدر كبير من النشاط المعنوي ، الأمر الذي لم يخف على عين ميشيل ستروجوف الفاحصة .. فقد استنتج من هيئتها أنها تألمت كثيرا في الماضي ، وأن المستقبل لا يتراءى لها في لون ضاحك ، ومع ذلك بدا له أنها عرفت كيف تكافح وما زالت مصممة على الكفاح في جلد ومثابرة وعزم هادىء لا يلين ، حتى في الظروف التي قد تلين فيها أو تخور عزائم الرجال !

ذلك كان الأثر الذي خلفته المسافرة الحسناء في نفس مرافقها الشاب « ستروجوف » . وكان هو بدوره ذا طبيعة متوثبة ، ومن ثم وجد متعة في أن يرقب الفتاة بانتباه غير ملحوظ . وكانت ثيابها تجمع بين البساطة والنظافة الفائقتين ، وفي قدميها الصغيرتين حذاء من الجلد المتين يناسب الرحلة الطويلة

وخيل الى ستروجوف من ملاحظته للفتاة أنها من أصل يمت الى احدى دويلات البلطيق . ولكن ترى الى أين تقصد فتاة في مثل سنها وحيدة محرومة من رعاية الأب أو الأم أو الشقيق ؟ ومن أين أتت ؟ أمن أقاليم روسيا الغربية البعيدة ؟ وهل تقصد الى نيجني نوفجورود أم الى حدود الامبراطورية الشرقية ؟ وهل سوف ينتظرها قريب أو صديق في المحطة التي ستهبط فيها ؟ أو تراها ستجد نفسها وحيدة في المدينة التي تقصدها كما هي الآن في القطار ، حيث لا أحد يعبأ بها ؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك ، ولا سيما أن فيما

يبدو من حركاتها ما يدل على أنها اعتادت السفر وحدها وعدم الاعتماد في الغربة الا على نفسها !

لبث ستروجوف يرقب الفتاة باهتمام ، لكنه لم يفكر في اغتنام الفرصة للدخول معها في حديث ، برغم الساعات الطويلة التي سيقضيانها معا في القطار قبل أن يصل الى غايته . وكل ما فعله حين نام التاجر الذي بجانبها في مقعده ، فمال رأسه على كتفه ومال جسمه الثقيل على الفتاة ، أنه أيقظه في عنف ونبهه الى فظاظة مسلكه .. فتمتم التاجر الفظ بكلمات يشتم منها اللوم على تدخل الشاب فيما لا يعنيه ، ثم مال على الجانب الآخر وعاد الى نعاسه الثقيل. واثر ذلك نظرت الفتاة الى ستروجوف نظرة قصيرة ملؤها العرفان الصامت بالجميل

لكن شيئا طرأ بعد قليل ، دل الشاب على حقيقة شخصية جارته . ففي أحد المنحنيات الضيقة ارتج القطار رجة شديدة واندفع خارجا عن القضبان فوق منحدر من الأتربة .. وتعالت صيحات الفزع والضجيج ، وتزاحم الركاب على الأبواب يبغون النزول للنجاة بأنفسهم من الكارثة .. وفكر الشاب فورا في جارته ، فاذا هي جالسة في مكانها لا تريم ، ولا تفكر في الفرار ، وان شحب وجهها بعض الشيء !

وحين أيقن الفتى أنها باقية حيث هي .. بقي حيث هو ! وظل كلاهما في مكانه لا يبرحه !

وفي أثناء ذلك زال الخطر ، وأصلح العطب ، واستأنف القطار سيره بعد ساعة الى « نيجني نوفجورود » : فبلغها في منتصف الساعة التاسعة مساء ، وقبل أن يهبط منه أحد صعد اليه مفتشو البوليس ففحصوا المسافرين .. وأبرز الشاب جوازه المسجل باسم « نيقولا كوربانوف » فلم يجد المفتش غبارا عليه .. ثم أبرزت الفتاة جوازها فقرأه المفتش بعناية خاصة ، وتأملها من قمة رأسها الى أخمص قدمها .. ثم سألها : « أأنت من « ريجا » ؟ » . فقالت : « نعم »

قال : « الذاهبة أنت الى اركوتسك ؟ . ومن أي طريق ؟ » . فقالت : « عن طريق بيرم »

فقال المفتش : « حسنا ، ولكن لا تنسي التأشير على جوازك في قسم بوليس نيجني نوفجورود »

فأومأت الفتاة برأسها موافقة . وفي أثناء ذلك كان ميشيل قد استولت على مشاعره عاطفة الاشفاق عليها ، وكان يسائل نفسه : كيف تسافر فتاة يافعة كهذه وحيدة الى أطراف سيبريا النائية التي يهددها الغزو ؟ . وكيف تصل ؟ . ترى ماذا يحدث لها ؟

وانتهى التفتيش ، وفتحت الأبواب ، ولكن قبل أن يقترب الشاب من رفيقته هبطت هي أولا ، واختفت في زحمة الجماهير التي تملأ رصيف المحطة الكبيرة !

أمر من حاكم المدينة

تقع « نيجني نوفجورود » .. او « نوفجورود السفلى » عند ملتقى نهري « الفولجا » و « أوكا » وهي عاصمة الاقليم الذي يسمى باسمها . وفي موسم السوق السنوية الشهيرة التي تقام فيها ، والتي تبقى عادة ثلاثة اسابيع ، يزيد عدد سكانها من خمسة وثلاثين الفا الى ثلاثمائة الف ، وتختلط فيها عشرات الاجناس من التجار الاوربيين والاسيويين الذين تؤاخي بينهم المهنة الواحدة

وبرغم وصول القطار في ساعة متأخرة الى المدينة ، وجد « ستروجوف » رصيف المحطة يغص بالكتل البشرية من اهل المدينة ، بقسميها اللذين يفصل بينهما مجرى الفولجا ، واللذين بنى الأعلى منهما فوق صخرة كبيرة تشرف عليها قلعة من تلك القلاع التي يسمونها في روسيا « كريمل »

وبادر الشاب بالتوجه الى مركز الشركة التي تسير السفن البخارية بين المدينة وبين « بيرم » ، فعلم ان السفينة « قوقاز » لن تبحر قبل ظهر اليوم التالي ، اي بعد سبع عشرة ساعة ، وهي فترة طويلة بالنسبة لشخص يتعجل الوصول الى غايته .. لكنه لم يجد بدا من الاستسلام لحكم الظروف ، ولاسيما ان اي طريق آخر للمواصلات لن يكفل له الوصول قبل ذلك !

وجعل همه البحث عن فندق او حانة ليتناول العشاء والمبيت . وكان هذا عسيراً في وقت تخمة المدينة بالوافدين عليها . لكنه وصل اخيرا الى فندق « مدينة القسطنطينية » ، حيث اعطاه صاحب الفندق غرفة مريحة لا بأس بها ، قليلة الاثاث مليئة بصور العذراء والقديسين . فتناول عشاءه هناك . ثم قام بجولة في شوارع المدينة

لماذا لم يأو الى فراشه كي يستريح ، مثلما ألف في رحلاته السابقة الطويلة بالقطار !.. هل فكر في المسافرة الحسناء التي زاملته اثناء الرحلة ؟ هل خشي أن يصيبها مكروه في هذه المدينة الصاخبة ؟ هل داعبه الأمل في أن يصادفها مرة أخرى ويتولى حمايتها ؟ اما اللقاء فكان عسير التصور .. وأما الحماية ، فأي حق له فيها ؟ صحيح انها وحيدة وسط هذا الخليط العجيب من السياح ، ولكن هل يقاس هذا بالمخاطر المقبلة الرهيبة التي تلقى الفتاة بنفسها فيها ، بإقدامها على التوغل في الشرق ، نحو سيبيريا واركوتسك ؟

وقال الفتى لنفسه : « ان ما اعتزم عمله من اجل روسيا والقيصر ، تعتزمه هي من اجل .. من ؟ ولماذا ؟ انها تملك التصريح بأن تعبر الحدود الى حيث الفتن والقلاقل والعصابات التترية التي تعيث في البلاد فسادا ..! ولكن ، لعلها فكرت في القيام بهذه الرحلة قبل ان يبدأ الغزو ، بل لعلها لا تعلم من أمر الغزو شيئا !.. ولكن كلا .. لقد تحدث الركاب على مسمع منها عن الاضطرابات التي تجتاح سيبيريا ، فلم تبد عليها الدهشة او تطلب اي ايضاح . اذن فقد كانت تعلم ، وقد اقدمت على الرحلة وهي تعلم .. يا للمسكينة !.. لا بد ان الدافع لها على الذهاب قوي ملح ، ولكن مهما تكن شجاعتها فان قواها سوف تخونها في الطريق ازاء متاعب الرحلة ، فضلا عن مخاطرها وعقباتها .. وهي لن تستطيع الوصول الى اركوتسك ! »

وكان يسير في شوارع المدينة على غير هدى ، اعتمادا على ان معرفته السابقة بها ستمكنه من الرجوع .. وبعد ان مشى نحو ساعة جلس على احد المقاعد الخشبية المتلاصقة على شكل دائرة في وسط ميدان كبير . ولم تكن قد انقضت عليه في جلسته تلك خمس دقائق حتى احس يدا توضع على كتفه بقوة ، ورجلا طويل القامة يسأله بصوت جاف : « ماذا تفعل هنا ؟ » .

فأجاب بقوله : « انني استريح قليلا »

فعاد الرجل يسأله : « وهل تعتزم قضاء الليلة على هذا المقعد ؟ » . فأجاب دون ان يفارقه الهدوء : « نعم ، اذا راقني ذلك »

وهنا قال له محدثه : « اقترب كي أراك جيدا ! » . فتمتم قائلا : « لا داعي لرؤيتك اياي ! »

وبرغم الظلام الكثيف ، استطاع الفتى ان يتبين في سائله هيئة شيخ من الغجر الذين يطوفون بعرباتهم في ازمان الاسواق . وتأيد ظنه حين لمح من بعد شبح العربة التي يتخذها الغجر مأوى لهم . وفي اللحظة التي اقترب فيها البوهيمي خطوتين او ثلاثا من ستروجوف ليستجوبه ، اقبل نحوهما شبح امرأة ابتدرت الشيخ قائلة ، في صوت جاف ولغة هي خليط من السيبيرية والمغولية :

ـ اجاسوس آخر ؟. دعه وتعال لتناول عشائك ، ان القطائر تنتظرك

لم يملك الشاب نفسه من الابتسام ، للصفة التي نعتته المرأة بها ، وهو الذي كان بدوره يتجنب الجواسيس !.. بينما اجابها البوهيمي على الفور : « معك حق يا سنجار ، فنحن راحلون غدا .. »

فتساءلت المرأة في شيء من الدهشة : « غدا ؟ »

ـ نعم يا سنجار ، غدا .. و « الأب » نفسه هو الذي يرسلنا الى حيث نريد !

وعاد الرجل والمرأة الى عربتهما ، واغلقا عليهما بابها في عناية ، تاركين ستروجوف يهمس لنفسه : « اذا كان هؤلاء الغجر يحسبون انهم يتكلمون لغة لا افهمها ، فانهم على خطأ مبين .. وليبحثوا لأنفسهم عن لغة أخرى ! » .. ذلك انه كان قد ألف في صباه تلك اللغة الشائعة في سهول سيبيريا ، من بلاد التتار الى البحر المتجمد .. اما المعنى الذي قصده البوهيميان فلم يعبأ بالتفكير في امره كثيرا . وكانت الساعة متأخرة ، فرأى ان يعود ادراجه الى الفندق

ليأخذ قسطا من الراحة . وبعد ساعة كان يغط في نومه . وفي صباح اليوم «التالي - ١٧ يوليو - أفاق من نومه فاذا النهار يغمر الكون

□

ما زالت أمامه خمس ساعات يقضيها في المدينة . وبدا له ذلك دهرا .. فلم يكد يفرغ من تناول افطاره وحزم حقيبته والتأشير على جواز سفره في قسم البوليس ، حتى قرر أن يقوم بجولة أخرى في المدينة يقتل بها الساعات الباقية على رحيل السفينة .. فعبر الفولجا فوق القنطرة التي يحرسها فرسان من القوزاق ، ووجد نفسه في البقعة التي التقى فيها ليلة الأمس بالبوهيميين

وكانت السوق السنوية - التي تفوق في شهرتها سوق ليبزج ذاتها - تقام خارج المدينة ، في سهل فسيح يقع قرب الفولجا ، ويشرف عليه القصر المؤقت للحاكم العام ، وهو يقيم به طيلة موسم السوق كي يسهر على الأمن والنظام ويحمي مصالح ضيوف بلدته .. وكانت تغطي السهل مبان خشبية متراصة ، تتخللها الشوارع المعدة لمرور المتفرجين ، وكان المعرض مقسما الى أحياء عدة ، اختص كل منها بنوع من أنواع المعروضات التجارية ، فهذا حي الحديد ، وذاك حي الفراء ، وهناك حي الأصواف ، وحي الأخشاب ، وحي الأقمشة ، وحي الأسماك المجففة .. الخ .. وكانت هندسة بعض المباني تمثل البضائع المعروضة فيها . وفي ممرات المعرض اختلطت في ذلك الصباح أمواج من الزائرين : الروس ، وأهالي سيبريا ، والألمان ، والقوزاق ، والأتراك ، والفرس ، واليونان ، والهنود ، وأهل جورجيا ، والصينيين .. خليط من الأوربيين والأسيويين يتحدثون ويتناقشون ويثرثرون بشتى اللهجات واللغات . وكان المعرض يحوي كل ما يمكن أن يباع ويشرى من البضائع والمنقولات والحيوانات والسفن والأسلحة والحلي والسجاد والأطعمة .. وكنت ترى جنبا الى جنب واردات سويسرا وفرنسا والأورال والهند والصين وايران وامريكا قد حشدت في هذا الركن من أركان الأرض !.. بل ان العملة المتداولة في المعرض لم تكن تقل بحال عن مائة مليون روبية ، أي ما يقرب من أربعمائة مليون فرنك ، بسعر تلك الأيام . والى جانب المعروضات أقيمت الملاهي والمقاهي التي يرى المتفرج ويسمع فيها أمتع الألعاب البهلوانية والموسيقى ، والأغاني البوهيمية ، والرقصات المبتكرة الشائقة ، والروايات الكوميدية ، ومآسي شكسبير ، وسيرك ترويض الوحوش .. وفي أحد الميادين شبه سفينة من سفن الفولجا يترنم المنشدون فيها بأعذب أغاني « بحارة الفولجا » المشهورة

وكان من أجمل العادات المألوفة في المعرض أن يتبرع بعض ذوي النفوس الكريمة بأثمان الطيور والعصافير الثمينة ، ويحتفظوا بتحريرها من أقفاصها أو سجونها الذهبية ، فتملأ الفضاء سحابة من ذوات الأجنحة التي أطلقت في الفضاء الرحيب - الى غير رجعة !

ولعل من مميزات معرض ذلك العام أن انجلترا وفرنسا قد مثلتا فيه باثنين من أهم أركان حضارتهما العصرية ، هما مستر هاري بلونت ومسيو السيد جوليفيه - رسولا صاحبة الجلالة الصحافة ! - وكان كلاهما قد آثر الالمام بنواحي المعرض المختلفة في جولة قصيرة لاتحاف قرائه بالأنباء الطريفة ، قبل أن يستأنفا رحلتهما الى ساحة القتال على ظهر السفينة « قوقاز » .. وحين التقيا داخل المعرض ، تبادلا تحية فاترة من بعيد واستأنف كلاهما سيره

أما «ستروجوف» فقد أنفق ساعتين وهو يجوب المعرض ، واحدى يديه في جيب سترته ، ويده الأخرى تمسك غليونه الطويل ، وقد بدا عليه الهدوء وعدم المبالاة ، شأن متفرج لا ناقة له ولا جمل .. وفيما هو يطوف بين الجماهير المتزاحمة ، لاحظ مسحة من القلق والانزعاج تلوح على جميع التجار القادمين من المناطق الشرقية المتاخمة لآسيا ، وترددا ظاهرا في التعاقد مع عملاء آسيا الوسطى التي تجتاحها جيوش الغزاة

وثمة ظاهرة أخرى كانت ملحوظة في المعرض حتى اليوم السابق ، هي شيوع السترة العسكرية بكثرة بين المتفرجين ، وتغلغل رجال البوليس ومساعديهم من القوزاق ذوي الحراب في صفوف الناس لحفظ الأمن والنظام في المدينة التي باتت تضم ثلاثمائة ألف نسمة . أما في ذلك اليوم ، فقد لاحظ « رسول القيصر » اختفاء أولئك الجنود من حفلة الأمن

ولكن في الوقت الذي اختفى فيه من المعرض جنود البوليس ، ازدحمت أرجاؤه بضباط الجيش ، الذين انبثوا في كل مكان وكل اتجاه ، على صورة لم يكن ليبررها الا تفاقم الأحداث وخطورة الحالة .. كما انبث سعاة التلغراف في منافذ المدينة الخارجية ، سواء من ناحية فلاديمير أم في اتجاه جبال الأورال ، فإن تبادل البرقيات مع موسكو وسانت بطرسبرج كان لا ينقطع لحظة . ولم يكن المسئولون قد نسوا أن مركز « نيجني نوفجورود » خاصة يتطلب المزيد من الحذر والانتباه ، فقد غزاها التتار مرتين من قبل ، خلال القرن الرابع عشر . وكان أكثر أولئك المسئولين انشغالا بالمهام العاجلة المتلاحقة التي تتطلبها حماية المدينة رجلان : الحاكم العام ورئيس الشرطة

وفيما كان ميشيل ستروجوف يطوف بالمعرض ، شاع نبأ مزعج مؤداه أن رئيس الشرطة قد استدعي على عجل الى قصر الحاكم العام ، لأن برقية خطيرة وصلت من موسكو ، وفي أعقاب هذا النبأ شاع نبأ آخر ، هو أن اجراءات خاصة مشددة سوف تتخذ فورا .. وأرهف ستروجوف سمعه لالتقاط التساؤلات التي تدور حول الاجراءات المرتقبة ، فقال قائل : « سوف يغلقون المعرض » . وأضاف آخر : « لقد تلقت حامية نيجني نوفجورود أمرا بالرحيل » . فقال الأول : « ان التتار يهددون تومسك ! »

ثم تعالى الضجيج من الجميع ، وخمد كل صوت وساد السكون ، في انتظار النبأ الخطير الذي جاء كبير الشرطة ليعلنه باسم الحكومة . وكان هذا قد أقبل من قصر الحاكم العام تحيط به ثلة من الفرسان القوزاق ، فلما وصل الى وسط الميدان الرئيسي ، وقف أمام الجمع الحاشد وفي يده برقية يلوح بها ، ثم صاح بصوت عال : « أمر من حاكم (نيجني نوفجورود) ..

« اولا : يمنع كل مواطن روسي ان يخرج من المنطقة لاي سبب من الاسباب !

« ثانيا : يجب على الاجانب الذين من اصل اسيوي ان يغادروا المنطقة خلال اربع وعشرين ساعة »



كان لذلك الامر الذي اصدره حاكم المدينة ما يبرره من اجل المصلحة الوطنية ، فحظر مغادرة الروسيين قصد به الحيلولة دون لحاق « ايفان اوجاريف » الخائن بشريكه فيوفار خان ، اذا كان الاول ما يزال في المنطقة . واما القرار الثاني فقصد به التخلص جملة من التجار الذين قدموا من اسيا الوسطى ، ومن البوهيميين الغجر الذين هم على صلة بالتتار والمغول ، ويعمل بعضهم جواسيس للغزاة !

على ان هذين القرارين كان لهما وقع الصاعقة على قاطني المدينة جميعا ، فالقرار الاول كان صارما لا يسمح باي استثناء ، وفيه عدوان على حقوق كثير من سكان المناطق المتاخمة لحدود سيبريا ، الذين اضطرتهم اعمالهم الى حضور المعرض ، اذ بات متعذرا عليهم الرجوع الى بلادهم . اما القرار الثاني فكان يعني ان يحرم الاجانب الذين من اصل اسيوي امتعتهم ليعودوا لوا من حيث اتوا ، وفي مقدمتهم الغجر والمشعوذون الذين صار لزاما عليهم ان يعبروا اكثر من الف فرسخ كي يصلوا الى اقرب منطقة خارج الحدود !

وسرت بين الموجودين همهمة احتجاج وصيحة يأس ، لكن وجود فرسان القوزاق خنق الهمهمة في مهدها . وسرعان ما بدات حركة هدم المعرض من اساسه ، فطويت اللافتات التي امام الحوانيت الخشبية ، والمسارح صارت انقاضا ، وتوقف الرقص وماتت الاغاني في الحناجر ، وشلت الاستعراضات ، واطفئت النيران ، ونزعت حبال البهلوانات .. وانهال الجنود بالسوط يستعجلون المتباطئين ، ولم يتورعوا عن هدم الخيام قبل ان يتمكن الغجر الساكنين من مغادرتها . وبسبب هذه الاجراءات الصارمة المشددة اصبح في حكم المقرر الا يهبط المساء حتى تكون سوق المدينة الهائلة قد استحالت صحراء جرداء في مثل صمت القبور !

وفي اللحظة التي فرغ فيها رئيس الشرطة من تلاوة القرارين ، خطر في ذهن ميشيل ستروجوف خاطر مفاجىء .. ما اعجب المصادفة بين هذا المرسوم الذي يطرد ذوي الاصل الاسيوي ، وبين الحديث الذي دار في الليلة السابقة بين التوري الشيخ ورفيقته !.. الم يقل لها الشيخ : ان الاب نفسه هو الذي يرسلنا الى حيث نريد ان نذهب ؟!.. والاب لا يمكن ان يكون في عرفهم غير « القيصر » .. فكيف تكهن البوهيميان بالاجراءات التي اتخذت ضدهم قبل حدوثها ..؟ واين ترى « يريدون » الذهاب ؟.. يبدو كان قرار القيصر قد جاء في مصلحتهم اكثر مما جاء ضدهم !

لكن خاطرا اخر لم يلبث ان طرد جميع الخواطر الاخرى من ذهن ميشيل ستروجوف ، فانساه الغجر ، ومشروعاتهم المريبة ، والمصادفة الغريبة . لقد تذكر نجاة الفتاة التي رافقته في القطار ، فصاح محدثا نفسه : « يا للطفلة المسكينة .. انها لن تستطيع ان تعبر الحدود ! »

وشغل هذا الخاطر ذهن الفتى بعنف وحدة . لقد كان يعتقد انه ـ بغير ان يهمل مهمته الخطيرة المنوطة به ـ يستطيع ان يكون للفتاة الشجاعة عونا وسندا عند الحاجة ، ولا سيما انه اكثر منها خبرة بطرق البلاد ومسالكها ، واقدر منها على مواجهة مخاطر المرور وسط قبائل الغزاة . ولكن اذا كان قد اشفق عليها من الرحلة في الظروف العادية .. فكيف يمكن تصور قيامها بها في الظروف التي تجعلها رحلة شديدة الخطر ، ميئوسا منها ؟.. وعاد يحدث نفسه : « ما دامت الفتاة ستسلك طريق (بيرم) فيكاد يكون مستحيلا الا نلتقي ، وفي وسعي ان اسهر على رعايتها بغير ان تشعر ، ولما كان يبدو عليها انها تتعجل الوصول الى اركوتسك مثلي ، فهي اذن لن تعوقني او تؤخرني في الطريق »

وتزاحمت عليه الخواطر ، وتشعبت ، حتى قادته الى التفكير في الامر على نحو مخالف : « انني اتحدث عن معونتي للفتاة ، ولكن من قال انها لن تكون بدورها عونا لي . ان وجودها معي سيزيل كل شك من جانب الاعداء وجواسيسهم في حقيقة مهمتي ، فقد يكون الشخص الذي يعبر البوادي وحيدا جاسوسا للقيصر ، اما الذي يسافر وفي رفقته حسناء مثلها فلا يمكن ان يكون الا (نيقولا كورباتوف) التاجر !.. والان يجب ان تسافر معي .. وان اعثر عليها باي ثمن . وليس من المحتمل ان تكون قد استطاعت مغادرة المدينة بطريقة اخرى منذ ليلة امس .. فلابحث عنها ! »

وعاد الشاب من فوره الى ارض المعرض ، حيث كان ضجيج تنفيذ الامر الجديد قد بلغ اشده ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة من الصباح .. والسفينة لن تبحر قبل الظهر ، والان امامه ساعتان يستطيع ان يخصصهما للبحث عن الفتاة !

وعبر الفولجا عائدا الى قلب المدينة ، وراح يذرع شوارع قسمها الاعلى ثم الاسفل شارعا شارعا . ودخل الكنائس التي صادفها في طريقه ، باعتبارها الملجأ الطبيعي للمعذبين والمتألمين .. لكنه لم يعثر للفتاة على اثر

ومع ذلك لم ييأس ! وظل يسير بغير توقف ، تقوده عاطفة مسيطرة لا تدع له مجالا للتفكير ، ولكن دون جدوى !..

وحلت الساعة الحادية عشرة ، وخطر له ان يتوجه الى مكتب مدير البوليس ، ليستوثق من ان الامر الجديد لا ينطبق عليه ، ما دام قد حصل على جواز بعد تطور الاحداث الاخيرة .. فعاد الى الضفة الاخرى للفولجا ، ويمم شطر ادارة الشرطة

هناك وجد جموعا غفيرة من الاجانب الاسيويين ، الذين الزموا مغادرة المدينة قبل اربع وعشرين ساعة ، والا تعرضوا لعقوبات شديدة . واستطاع الشاب ان يعبر الفناء ، بفضل قوة بنيته ومتانة عضلاته ، لكن الطاقات الباقية التي

يجب ان يشق طريقه خلالها كانت كافية لتثبيط همته ، ومن لم عمد الى اقصر طريق ، فدس في يد احد الجنود بضع روبيات . وسرعان ما مكنه هـذا من المرور بسهولة الى حجرة الانتظار ، ثم تركه هنـاك ومضى يدعو اليـه احد الموظفين المختصين

وفيما هو يدير بصره حوله ، قفز قلبه من فرط دهشته ، فقد بصر بفتاته المشردة جالسـة في احد اركان المكان في اشد حالات الاعياء واليأس . وادرك ما حدث لها . لقد جاءت للتأشير على جواز مرورها كما امروها في القطـار ففوجئت بالقرار الجديد الذي يمنعها من مواصلة السـفر !

واقترب ستروجوف من الفتاة متهلل الوجه ، فلم تكد تلمحه وتتذكر فيه رفيقها في القطار حتى نهضت اليه بفرحة الغريق الذي وجد منقذه ، وفي نيتها ان تلتمس عونه في محنتها . وفي هذه اللحظة عاد الجندي فلمس كتف الشاب هامسـا : « مدير الشرطة ينتظرك » فتبعه الشاب ملهوفا دون ان يطمئن الفتاة بكلمة او اشارة . . وتهالكت هذه على مقعدها يائسة !

ولكن لم تنقض ثلاث دقائق حتى عاد الشـاب يحمل في يده جواز المرور الذي يفتح امامه سهول سيبريا ، واقترب من الفتاة فهمس لها : « اختاه . . » . . وفهمت انه يقصدها ، فنهضت دون تردد . . بينما اردف هو : « لقد صرحوا لنا يا اختي بمواصلة السفر الى اركوتسك . . هيا بنا ! »

فأجابت وهي تضع يدها في يده : « ها انذا يا اخي »

وغادر الاثنان ادارة الشرطة !



على مياه الفولجا

دق جرس السفينة «قوقاز» قبيل الظهر تنبيها الركاب بدنو موعد الرحيل ، وكان رجال الشرطة يتولون فحص أوراق المسافرين بعناية فائقة تطبيقا الاوامر الجديدة . . وفي الموعد المحدد دق الجرس المرة الاخيرة ، وفكت الحبال من المرسى ، واندفعت المياه بقوة من اجنحة دولاب السفينة . . ومرقت « قوقاز » مسرعة تشق طريقها بين شطري المدينة الأيمن والأيسر

وكان ستروجوف ورفيقتـه قد اخذا مكانهما على ظهر السـفينة ، وجعلا يودعان ببصرهما المدينة الهاربة وهي تبتعد عنهما لا تلوي على شيء . ولم يكن الشاب قد تحدث الى رفيقته او استجوبها ، منتظرا ان تبدأ هي بالكلام ، ان راق لها ذلك . لكنها اكتفت بان اخذت ترمقه بنظرات الشكر لخلاصها على افلاتها من البقاء سجينة المدينة التي خلفاها !

وكانت سفن الخط الذي يصل بين « نيجني نوفجورود » و « بيرم » ، تقطع الثلاثمائة والخمسين ميلا التي بين المدينة الاولى و « قازان » في سرعة فائقة ، ورغم هذا كانت الرحلة الكاملة الى بيرم تستغرق زهاء ستين ساعة ، منها ساعة انتظار في قازان . وكانت السفينة مؤثثة برياش مريح ، ومقسمة الى ثلاث درجات ، وفقا لقدرة المسافرين المالية . وقد حجز ستروجوف ورفيقته في الدرجة الأولى « كابينتين » منفصلتين ، حتى تستطيع الفتاة ان تأوي الى غرفتها الخاصة متى شاءت . .

وكان بين ركاب الدرجة الاولى خليط من الارمن واليهود والصينيين ، والتتار ، كل في زيه الوطني الخاص . اما في مقدم السـفينة حيث الدرجة الثالثة فقد ازدحم عدد كبير من الروس ، والاجانب ، و « الموجيك » ، وفلاحي الفولجا ، وبعض النساء اللواتي يرتدين ثياب القطيفة الزاهية والمناديل الحمراء الملونة على رؤوسهن

وبعد نحو ساعتين من تحرك السفينة ، التفتت الفتاة الى ستروجوف وقالت له : « اذاهب انت الى اركوتسك يا اخي ؟ »

فقال : « نعم يا اختاه ، فنحن نقصد اتجاها واحدا . . وحيثما ذهبت انا سوف تذهبين معي »

فقالت : « غدا ستعلم يا اخي لماذا تركت انا ضفاف البلطيق كي اوغل الى جبال الاورال »

قال : « لست اسألك ايضاحا يا اختاه »

فقالت بابتسامة حزينة : « ولكنك ستعرف كل شيء ، فالأخت يجب الا تخفي على أخيها شيئا ، لكني لا استطيع الافضاء لك اليوم بذلك ، فانني جد متعبة . لقد انهكني اليأس »

فقال : « اتريدين ان تستريحي في مقصورتك ؟ » . فقالت : « نعم ، نعم ، وغدا .. »

وكان قد نهض استعدادا لتوصيلها الى مقصورتها وهو يقول : « اذن تعالي يا ... » ، ولم يستطع اتمام عبارته لانه لم يكن قد عرف اسمها بعد ، وادركت هي ذلك ، فقالت له وهي تمد يدها اليه مصافحة : « نادية ! »

فقال : « تعالي يا نادية .. وارفعي الكلفة مع شقيقك .. نيقولا كوربانوف »

وقادها من يدها الى المقصورة التي حجزها لها في المؤخرة .. ثم عاد هو الى ظهر السفينة ، وبه لهفة الى الوقوف على آخر الأنباء التي قد تعدل خط سيره .. والتمس بين جماعات الركاب يتسمع بغير ان يظهر اهتماما بالاحاديث او يشترك فيها ! ولم يكن من الممكن طبعا أن يتحدث الاجانب الذين تحملهم السفينة في غير موضوع الساعة واحداث اليوم الراهن ، ونتائج الاوامر الجديدة التي اصدرها الحاكم العام قبيل رحيلهم . لكن الغضب منهم الذين لم يكادوا يتجشمون عناء الرحلة الطويلة عبر آسيا حتى اضطرتهم الظروف الى العودة ادراجهم ، كتموا غيظهم وحنقهم في صدورهم ولم يجرؤوا على التعبير عنه بصراحة او التنفيس عنه بصوت عال ، خشية ان يكون بين ركاب السفينة جواسيس من رجال الشرطة يحصون عليهم انفاسهم

وهكذا لم يفز ستروجوف بشيء ذي بال مما سمعه من الركاب ، فقد كان اكثرهم يسكتون او يغيرون مجرى الحديث لدى اقترابه منهم ، لكنه ما لبث قليلا حتى سمعه سمعه صوت بدا كان صاحبه لا يعبأ بان يسمعه احد ، وكان الرجل يتكلم باللغة الروسية ، ولكن بلهجة اجنبية . اما المستمع اليه فكان متحفظا بعض الشيء ، وكان يجيبه باللغة نفسها ، وان بدا انها ليست لغته الاصلية هو الآخر ، وسمع ستروجوف اولهما يقول : « اليس عجيبا ان اجدك على ظهر هذه السفينة يا صديقي ، بعد ان رأيتك في عيد القيصر في موسكو ، وبالامس فقط لقيتك في نيجني نوفجورود ؟ ! »

فاجابه الآخر بلهجة جافة : « هانذا يلحمي ودمي امامك ، فهل لديك شك في ذلك ؟ »

فقال الاول : « اقول لك في صراحة : انني لم اتوقع ان تتبعني فورا ، وبمثل هذه السرعة ! »

قال : « لكنني لست اتبعك يا سيدي ، بل انا اسبقك ! »

قال : « تسبقني ؟ ! فلنفرض اننا جنديان في الميدان نسير معا بخطوات متساوية ، لا يسبق الواحد منا الآخر ! » . فاجاب بلهجة الجفاء نفسها : « بل سوف اسبقك ! »

قال : « سنرى هذا حين نصير في ميدان الحرب ، اما الآن فلنكن رفيقي

رحلة واحدة ، ولنترك الى ما بعد فرصة التنافس و .. » . فقطع هذا كلامه قائلا : « بل العداء ! »

فقال الاول : « العداء ؟ ! فليكن انك دقيق في تعبيراتك ايها الزميل . وسامالبك بتحديد موقفنا المتبادل ! » . قال : « اذن فلنحدده ! »

قال : « اذاهب انت الى بيرم .. مثلي ؟ » . قال : « نعم »

فقال : « ولعلك بعد الوصول الى بيرم تقصد الى « ايكاترينبرج » بوصفها اقصر طريق وآمنه الى جبال الاورال ؟ » . قال : « ربما »

فقال : « وبعد ان نعبر الحدود نصبح في سيبريا ، اي في ميدان الغزو » . قال : « بالضبط »

فقال : « وعندئذ يحق لكل منا ان يسلك طريقه الخاص ، ويودع صاحبه .. اما الآن - وامامنا ثمانية ايام كاملة حتى نفترق ، وفيها لن تمطرنا السماء اخبارا ، فلنكن صديقين حتى يحين الوقت الذي نصبح فيه غريمين ! »

قال : « تقصد اننا نصير عدوين ؟ ! »

فقال : « كما تشاء ! . وحتى ذلك الوقت اعدك بان احتفظ لنفسي بكل ما عسى ان اراه »

قال : « وساحتفظ انا بكل ما عسى ان اسمعه . فهل اتفقنا ؟ » . قال : « نعم ، اتفقنا ! »

ثم تصافحا .. بينما استطرد الأول فقال : « لهذه المناسبة ، لقد استطعت ان ارسل في الساعة العاشرة والدقيقة السابعة عشرة من هذا الصباح برقية الى ابنة عمي بنص الامرين الجديدين »

فقال الثاني : « وانا ارسلتهما الى الديلي تلغراف في الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة عشرة ! »

قال : « احسنت يا مسيو بلونت » . فقال هذا : « شكرا يا مسيو جوليفيه ! »

وعلى اثر ذلك حيى الصحفي الفرنسي زميله التحية المالوفة ، فرد هذا بتحية يتمثل فيها الجمود الانجليزي .. وكان « صائدا الانباء » هذان قد استطاعا - بغير اتفاق سابق - ركوب السفينة المبحرة الى بيرم ، بوصفهما اجنبيين غير اسيويين ، وممن لم لا ينطبق عليهما امر حظر السفر .. وفي الطريق عقدا الهدنة السالفة الذكر ، التي اتفقا بمقتضاها على ان يكونا صديقين ، مدى الطريق ! .. وهي الهدنة التي اقترحها جوليفيه في حماسة ، وقبلها بلونت في برود ، وعلى مائدة الغداء جلس الاثنان في ذلك اليوم متجاورين ، يجرعان خمر « الكليكو » التي تباع الزجاجة منها بستة روبلات !

ولم تظهر الحسناء على المائدة ، فقد اشفق ستروجوف عليها فلم يوقظها . وجاء المساء بغير ان تظهر على سطح السفينة ، حيث جلس الركاب او تمددوا على الارائك والمقاعد المريحة يستنشقون نسمات المساء المنعشة ، بعد قيظ النهار المرهق . وفي نحو الساعة الحادية عشرة بزغ القمر ، فبدل الظلام ضياء

ساجيا . وكان أكثر الركاب نائمين ، وقد ساد السكون ، ولم يكن يعكره غير صوت قلابات السفينة تضرب الماء في فترات منتظمة . لكن قلقا غامضا استولى على قلب ستروجوف ، فراح يذرع السطح في مؤخرة السفينة ، على غير هدى ، ذاهبا آيبا ، كي يقاوم سلطان النوم .. وفي احدى المرات جاوز غير الالات الى المكان المخصص لركاب الدرجتين الثانية والثالثة ، حيث كان بعض الركاب من قبائل الموجيك ينامون على الطرود وبالات البضائع وبعضهم على ظهر السفينة ، فكان المار يضطر الى التزام الحذر كي لا يطأ النائمين أثناء سيره .. وحين وصل الى سلم مقدم الباخرة سمع جماعة يتحدثون قريبا منه ، ولم يستطع تمييز أشكالهم بسبب الشيلان والأغطية التي كانوا متلفعين بها .. وفيما هو يهم باستئناف المسير استوقفته بضع عبارات كان القوم يتبادلونها بتلك اللغة السيبيرية التي سمع البوهيمي ورفيقته يتكلمانها ليلة طوافه بأنحاء « نيجني نوفجورود » .. بل انه استطاع أن يميز بين أصوات الجماعة صوتي ذينك الشخصين بالذات ، ولما كان ظل السلم يحجبه عن الأنظار ، فقد وقف في مكانه يصيخ السمع لحديثهما على سبيل الفضول . فقالت المرأة :

ـ يقولون ان رسولا قد سافر من موسكو ووجهته أركوتسك ..!

فأجابها صاحبها الشيخ قائلا : « هم يقولون هذا يا سنجار ، لكن هذا الرسول سوف يصل متأخرا .. أو لا يصل على الاطلاق ! »

فتقلص جسم « ستروجوف » عرقا لدى سماعه هذه العبارة ، التي كانت تعنيه مباشرة .. وبعد لحظات تسلل من حيث أتى دون أن يلحظه أحد .. ثم جلس في مؤخرة السفينة وقد اعتمد رأسه بين يديه ، يفكر ويتساءل : « من هو الذي يعرف نبأ سفري ، ومن ذاك الذي يهمه أن يعرفه ؟ »



في الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من صبيحة اليوم التالي ـ ١٨ يوليو ـ رست السفينة « قوقاز » الى مرفأ « قازان » التي تفصله عن البلدة نفسها سبعة أميال . وتقع « قازان » عند ملتقى الفولجا ونهر قازانقا ، وبرغم بعد المرفأ عن البلدة خفت جمهرة كبيرة من أهلها لاستقبال ركاب السفينة على الرصيف واستطلاع الأخبار . وكان حاكم الاقليم قد أصدر منشورا شبيها بالذي أصدره زميله في نيجني نوفجورود . وشوهد بين المستقبلين نفر من التتار مرتدين ثيابهم التقليدية الشبيهة « بالقفطان » ، واغطية رؤوسهم المدببة ، أما النساء فقد ارتدين صديريات لامعة وغطين رؤوسهن بأكاليل مرفوعة الى أعلى على هيئة أهلة .. وكان بين الجماهير المتزاحمة على الرصيف بعض ضباط البوليس ، وبعض القوازق المسلحين بالحراب ، وكانت مهمتهم فحص أوراق القادمين والمسافرين خلال الساعة التي تمكثها السفينة في المرفأ النهري ..

أما ميشيل ستروجوف فلم يفكر في مغادرة السفينة للتجول قليلا على الرصيف الحافل بالناس ، ولا سيما أنه أشفق أن يترك مرافقته الحسناء وحيدة على ظهر السفينة . وكان الصحفيان قد استيقظا مع الفجر وهبطا ليقوما بجولة استطلاعية قصيرة وسرعان ما اندسا بين الجماهير

كانت الأنباء قد استطارت في جميع أنحاء الجهة الشرقية لروسيا معلنة أن الفتنة والغزو يتقدمان بخطوات كبيرة ، وأن سبل الاتصال بين سيبيريا والامبراطورية صارت متعذرة الى أقصى حد . وقد سمع ستروجوف هذه الأنباء وهو على ظهر السفينة ، فأحدثت عنده قلقا كبيرا وزادته لهفة على الوصول الى جبال الأورال كي يحكم بنفسه على مدى خطورة الأحداث ويتأهب لمواجهة جميع الاحتمالات .. وفيما هو يفكر في الاستفهام عن حقيقة الحال من أحد سكان قازان ، حدث ما لفت نظره الى أمر مهم آخر . فقد أبصر بين الركاب الذين يهبطون في المرفأ جماعة الغجر البوهيميين ، وكان بينهم الشيخ ورفيقته ، يتبعهم رهط من الراقصات والمغنيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين ، وحسب أول الأمر أنهم يهبطون الى غير رجعة ، ولكنه ما كاد يقترب من السلم الذي يهبطون عليه حتى لمح الشيخ البوهيمي يمرق في الزحام وقد أخفى نصف وجهه المغضن بقبعته التي لوحتها الشمس في بلاد الدنيا بأسرها ، كأنما يتحاشى النظرات ، وهي نزعة مستغربة من رجل من جنسه الشغوف بالاعلان عن نفسه . وكان ظهره محدودبا وثوبه ضيقا خلقا برغم حرارة الطقس .. والى جواره سارت مرافقته التي يدعوها « سنجار » وهي امرأة في نحو الثلاثين ، سمراء البشرة ، ضخمة الجسم ، رائعة العينين ، ذهبية الشعر ، وقد صففته في وضع خلاب .. أما الراقصات فكان أكثرهن جميلات ، وكانت احداهن تغني أنشودة عذبة اللحن مطربة النغم ، لكن ستروجوف لم يصغ الى غنائها ، فقد خيل اليه أن الغجرية الحسناء « سنجار » ترمقه بنظرات عميقة ، كأنما تريد أن تحفر ملامحه في ذاكرتها بحيث لا تمحى وكانت هي آخر من غادر السفينة من الرهط !

وسأل الشاب نفسه : « ترى هل تبينت في الشخص الذي وصفته ذات ليلة في نيجني نوفجورود بأنه « جاسوس » ؟ .. ان لهؤلاء الغجر عيون القطط ، التي ترى جيدا في الظلام ! .. » .. وأوشك أن يطاوع ميله الى تتبع رهط الغجر ، لكنه قمع ميله في اللحظة الأخيرة ، قائلا لنفسه : « كلا ، لا داعي لاتخاذ خطوة تنطوي على التهور ، فلو استوقفت هذا الشيخ وعصابته لانكشف أمري . أما لو اصطنعت الحذر فسوف أكون جاوزت الأورال قبل أن يصلوا الى الحدود ، اذ لا يمكن لعربتهم الهزيلة أن تسابق العربة التي سأستأجرها والتي تجرها أحسن الجياد .. اذن فلتتهدأ يا كورباتوف ! » .. وفي تلك اللحظة كان الرهط قد اختفى عن ناظريه في الزحام

لقد قيل ان قازان « باب » آسيا ، ومركز كل تجارة سيبيريا وبخارى ، وذلك لأنها يتفرع منها الى جبال الأورال طريقان : أحدهما ، الذي قرر ستروجوف أن يسلكه ، طريق « بيرم » ، وهو الطريق الرئيسي وتتخلله محطات البريد ويزدحم بالقرى والمسافرين .. والآخر طريق « ايشيم » الذي اعتزم الغجر أن يسلكوه ، وهو أقصر من سابقه لكنه أقل منه أمانا وعمرانا ، عدا

وعورة أرضه وندرة القرى التي يمر بها ، ومن لم كان ستروجوف على حق في توقعه أن يصل الى غايته قبل رعط النور المريبين !

ولم تكد تنقضي الساعة حتى دق جرس السفينة مؤذنا بتأهبها لاستئناف رحلتها ، داعيا ركابها الجدد ، منبها ركابها القدامى . واتخذ الركاب الذين وجهتهم « بيرم » أماكنهم على السطح ، وفي تلك اللحظة تبين ستروجوف أن الصحفي الفرنسي « جوليفيه » لم يعد الى السفينة .. ترى هل ستفوته ؟ .. ولكن في اللحظة التي أوشك فيها سلم الباخرة أن يرفع ، ظهر صاحبنا وهو يعدو بأقصى سرعته .. ثم قفز الى السلم ومنه الى السفينة بخفة البهلوان في آخر لحظة ، فتلقفته ذراعا زميله الانجليزي بلونت ، وبادره هذا قائلا :

ـ ظننت أن « القوقاز » ستبحر بدونك

فقال : « أوه ، كنت اذن لحقت بها ولو استأجرت لهذا الغرض خصيصا زورقا بخاريا أو مركبة من مركبات البريد السريعة ، على حساب صحيفتي .. لقد كانت المسافة بين المرفأ ومكتب التلغراف بعيدة »

فسأله هذا في دهشة : « هل ذهبت الى مكتب التلغراف ؟ »

فأجابه جوليفيه بابتسامته الودية الظافرة : « نعم ذهبت .. »

فقال : « وهل الاتصال مع (كوليفان) ميسور ؟ »

قال : « هذا ما أجهله ، وان كنت أعلم أن الاتصال مع باريس ميسور على أي حال ! »

فسأله : « هل أرسلت برقية الى باريس ؟.. هل جد جديد ؟ »

فقال : « انني لن أخفي عليك النبأ : لقد جاوز التتار ـ وعلى رأسهم (فيوفار خان) مدينة (سيميبالاتنسك) واتجهوا نحو (ارتيش) .. »

كيف فات « بلونت » مثل هذا النبأ الخطير ، الذي عرفه زميله ولا ريب من أحد أهل قازان فأبرق به الى جريدته ؟.. عقد الصحفي الانجليزي يديه خلف ظهره ومضى ليجلس في مؤخرة السفينة دون أن ينبس بكلمة !

وفي نحو الساعة العاشرة ، غادرت مرافقة ستروجوف الحسناء مقصورتها، لأول مرة ، الى ظهر السفينة .. فمضى الشاب اليها ومد يده مصافحا ، ثم قال لها بعد أن قادها الى مقدم السفينة : « تأملي هذا المنظر يا أختاه .. ! » .. وكانت السفينة قد وصلت في تلك اللحظة الى ملتقى نهري : (الفولجا) و (كاما) ، حيث ينبغي عليها أن تترك مجرى النهر الكبير ، بعد أن هبطت مسافة أربعمائة فرسخ ، كي تصعد مجرى النهر الصغير مسافة أربعمائة وستين فرسخا . وكان مجرى الكاما ينفسح أمام البصر عريضا جميلا تظلل مياهه الرائقة أشرعة زوارق بيضاء تلمع في ضوء الشمس

لكن ذلك المنظر الجميل لم يثر اهتمام الحسناء لحظة واحدة ، أو يستأثر بأفكارها التي كانت تنحصر في أمر واحد ، هو بلوغ هدفها الذي تسعى اليه. وما كان النهر في نظرها غير السبيل الى ذلك الهدف !.. وكانت عيناها

المعلقتان لما انا غربيا وهي تنظر نحو الشرق، كما لو كانت تريد أن تثقب الأفق السحيق بنظرتها النافذة ..

وتركت « نادية » يدها في يد مرافقها ، ثم سألته وهي تستدير نحوه :

ـ على أي بعد نحن من موسكو الآن ؟

فأجابها بقوله : « على تسعمائة فرسخ منها »

فغمغمت وهي تردد عبارته : « تسعمائة فرسخ ؟ ! »

ودق الجرس يعلن موعد الافطار ، فتبعت نادية ستروجوف الى قاعة الطعام، حيث أبت أن تتناول شيئا من ألوان فتح الشهية مثل « الكافيار » وسمك « الرنجة » المقطع قطعا صغيرة ، وشراب « القمح والياسنون » القومي .. وحين أديرت صحاف الطعام لم تأكل الا قليلا ، شأن فتاة فقيرة تعوزها القدرة على الانفاق ، فاضطر الشاب الى مجاراتها والاكتفاء بالألوان التي أكلت منها ، وهكذا لم تكلفهما الوجبة كثيرا ولا استغرقت وقتا طويلا ، بل لم تمض عشرون دقيقة حتى غادرا قاعة الطعام معا الى السطح ، حيث جلسا في المؤخرة .. وهناك قالت الفتاة بصوت لا يسمعه غير صاحبها :

ـ أنا أيها الأخ ابنة رجل في المنفى ، واسمي نادية فيدور .. وقد ماتت أمي في « ريجا » منذ شهر واحد . وأنا ذاهبة الآن الى اركوتسك كي أشاطر أبي منفاه طائعة !

فقال لها : « وأنا ذاهب أيضا الى اركوتسك ، وأرى دينا في عنقي أن أسلم نادية فيدور الى أبيها سالمة ! » . فقالت : « شكرا لك أيها الأخ ! »

وأضاف الشاب انه قد حصل على جواز خاص لعبور سيبيريا ، وان السلطات الروسية لن تتعرض لهما طيلة الرحلة . ولم تزد الفتاة شيئا ، أو تستفهم عن شيء ، فقد كان كل ما يعنيها من مصادفتها لهذا الشاب الطيب أن رأت فيه الوسيلة التي أتاحتها لها السماء كي تبلغ أباها في أمان ..وعادت القول بعد لحظات :

ـ كنت قد حصلت على جواز سفر خاص بي ، لكن منشور حاكم نيجني نوفجورود أبطله ، ولولاك أيها الأخ لكان مصيري الموت المحتوم في تلك المدينة

فقال : « وكيف جرؤت يا نادية على الاقدام على رحلة كهذه الى سيبيريا وحدك ؟ »

قالت : « انه واجبي الذي اقتضاني ذلك »

قال : « ألم تعلمي بأن الأقاليم التي اندلعت فيها نار الفتنة وغزاها الأعداء قد بات عبورها متعذرا ؟ »

قالت : « لم أكن أعرف نبأ غزو التتار حين غادرت ريجا .. لم أسمع به الا في موسكو فقط ! »

فقال : « ورغم ذلك واصلت الرحلة ؟ » . فقالت : « انه واجبي ! »

وفي هذه العبارة أفصحت الفتاة الشجاعة عن خلقها كله . انها لا تتردد في اتيان أي أمر تعتقد أنه واجب عليها !

وتحدثت نادية بعد ذلك عن أبيها ، فاسيلي فيدور ، وكان طبيبا مشهورا في ريجا ، يمارس مهنته بنجاح ويعيش سعيدا وسط أسرته .. حتى ثبت انتماؤه الى جمعية سرية أجنبية ، فتلقى أمرا بالرحيل الى اركوتسك ، ورافقه رجال الشرطة الى الحدود فورا ، دون أن يدعو له غير فرصة تقبيل زوجته ، التي كانت مريضة ، وابنته التي لم يكن لها سند سواه . وعلى أثر ذلك رحل ودموع اللوعة في عينيه !.. وهو منذ ذلك يعيش في عاصمة سيبيريا الشرقية ، حيث أتيح له أن يعاود ممارسة مهنته ، ولكن بلا ربح يذكر . ولعله كان يصير سعيدا لو كانت زوجته وابنته معه ، لكن مدام فيدور لم تستطع بسبب ضعفها أن تبرح ريجا .. وبعد عشرين شهرا من رحيل زوجها ماتت بين ذراعي ابنتها ، وتركتها وحيدة بلا مورد أو معين .. ومن ثم طلبت الابنة ترخيصا باللحاق بأبيها ، وحين حصلت عليه أبرقت اليه بأنها قادمة . وسافرت وليس معها ما يكاد يكفيها للرحلة الطويلة ، وبرغم ذلك لم تتردد.. فقد فعلت ما استطاعت ، وتركت لله أن يفعل الباقي !

وكان الليل قد هبط ، والسفينة تمخر مياه النهر ، والهواء قد اكتسب علوبة خاصة .. ومن فم المدخنة كان شرر نيران السفينة التي تسير بوقود من خشب الصنوبر يتطاير بلا انقطاع ، وهدير المياه المتكسرة تحت قلابات « القوقاز » يختلط بعواء الذئاب على الضفة المظلمة اليمنى لنهر « الكاما » !..

وفي صبيحة اليوم التالي رست السفينة « قوقاز » في مرفأ « بيرم » ، آخر محطة على نهر الكاما . واقليم بيرم ـ الذي يعد المرفأ عاصمته ـ من أوسع أقاليم الامبراطورية الروسية ، وهو يمتد عبر جبال الأورال الى أرض سيبيريا . وفي بيرم يعمد المسافرون من أوروبا الى آسيا الى شراء عربات يستخدمونها في الصيف ، وزحافات يستخدمونها في الشتاء ، قبل أن يلقوا بأنفسهم لعدة أشهر في خضم البراري الرهيبة هناك !

وكان ميشيل ستروجوف قد أعد برنامج رحلته على أساس أن يعبر جبال الأورال بإحدى عربات البريد السريعة المنتظمة ، لكن اضطراب الأحوال جعل الانتقال بهذه العربات يكاد يكون متعذرا ، فاضطر الشاب الى محاولة استئجار عربة ينهب بها الأرض نهبا من محطة الى محطة مستحثا أصحاب الجياد في كل محطة على ابدال جياده بسرعة ، وذلك بفضل منحه السخية لهم . وكان من سوء حظه أن اضطرت الاجراءات المشددة التي اتخذت ضد الأجانب ذوي الأصل الآسيوي كثيرا من المسافرين الى مغادرة بيرم ، فازدحمت بهم وسائل المواصلات وندرت العربات والجياد ، فلم يجد بدا من الرضا بآخر عربة وجدها في البلدة . وبرغم فرحته بها تظاهر بمساومة صاحبها على الثمن في الحاح تمشيا مع منطق الشخصية المتواضعة التي يتقمصها ، شخصية التاجر البسيط « نيقولا كوربانوف » .. وكانت نادية تلازمه في طوافه وبحثه ، تستحثها نفسها اللهفة على الرحيل والوصول الى غايتها ، وان اختلفت الأسباب .. وحين عثر على ضالته قال للفتاة معتذرا :

ـ أختاه ، كنت أتمنى أن أجد مركبة أكثر توفيرا للراحة من هذه .. فقالت :

« أتقول هذا لي ، أيها الأخ .. أنا التي كنت سأذهب سيرا على قدمي لو الأمر ذلك ، كي ألحق بأبي ؟ »

فقال : « لست أشك في شجاعتك يا نادية ، ولكن من المتاعب الجسمية ما تعجز المرأة عن تحمله »

فقالت : « سأتحمل كل شيء ، مهما يكن . واذا سمعتني أشكو خلال الطريق ، فاتركني وواصل الرحلة وحدك ! »

وبعد نحو نصف ساعة كانت ثلاثة جياد أصيلة قد ألحقت بالعربة .. ولم يكن الشاب والفتاة يحملان أمتعة تذكر ، نظرا الى سرعة المهمة التي انتدب الشاب لها ، وضآلة موارد الفتاة . وكان هذا من حسن حظهما ، فقد كانت المركبة تعجز عن حمل الركاب وأمتعتهم الثقيلة في وقت واحد . وكانت معدة لراكبين ، عدا الحوذي الجالس في مقعده الضيق في المقدمة ، والذي يستبدل في كل محطة

وكان الحوذي الأول الذي نيطت به قيادة المركبة في أول مرحلة ، من أهل سيبيريا ـ كما يدل شعره الطويل المقصوص عند جبهته ، وقبعته ذات الحواف العالية ، وحزامه الأحمر .. الخ ـ وحين أخذ مكانه من المركبة ألقى نظرة فضول على الراكبين اللذين تدل قلة أمتعتهما على بساطة حالهما ، ومط شفتيه مغمغما دون أن يعبأ بأن يسمعاه : « غرابان من فئة ثلاثة كوبيك كل فرسخ ! »

فأجابه ستروجوف ـ وكان يفهم لغة أهل سيبيريا جيدا ـ بقوله : « بل نسران ، من فئة التسعة كوبيك .. فضلا عن أن (البقشيش) محفوظ يا صاح ! » .. وسمعت على الفور « فرقعة » طروبة من سوط الحوذي ، وكان الحوذية يطلقون كلمة « الغراب » على المسافر البخيل ، الذي لا يدفع أكثر من ثلاثة « كوبيك » أو أربعة على كل فرسخ من المسافة ، وينعتون ذلك الذي لا يتراجع أمام الأجر الضخم ، علاوة على المنح السخية غير المتفق عليها بكلمة النسر !.. ولما كان الجزاء دائما من جنس العمل ، فان « الغراب » لا يقطع المسافة عادة بمثل السرعة الفائقة التي يقطعها بها النسر السخي !

أخذت نادية وستروجوف مكانهما في المركبة ، ورفع « الكبود » فوق رأسيهما ، كي يقيهما من حرارة الشمس المحرقة .. وقرب الظهر انطلقت بهما العربة تجرها الجياد الثلاثة وسط عاصفة من الغبار !

والراكب الذي لم يألف هذه الوسيلة من وسائل المواصلات لابد أن يلفت انتباهه مسلك الحوذي في معاملة جياده أثناء الطريق .. والعبارات الطريفة التي يستحثها بها على الاسراع ، فهو لا يفتأ يناديها مداعبا : « هيا طيري يا حماماتي .. اسرعي يا عصافيري .. كن جسورا ، يا ابن العم الذي الى اليسار .. انطلق يا أبي الصغير الذي الى اليمين ! » .. ولكن لا تكاد تتباطأ لحظة واحدة حتى ينهال صاحبنا عليها بالقذع الفاحش من الاهانات التي كأنما تفهمها الحيوانات التعسة بدورها ، فتعود الى ركضها السريع من جديد !

وهكذا مضت المركبة في انطلاقها لا تلوي على شيء ، بسرعة تتراوح بين

اثنى عشر فرسخا واربعة عشر فرسخا في الساعة .. وكان ستروجوف قد ألف السفر ومتاعبه بهذه المركبات ، أما مرافقتـــه فقد كان ذلك كله جديدا عليها ، فتعرضت للارتجاج والاصطدام بجوانب المركبة أكثر من مرة ، لكنها لم تتذمر أو تنطق بالشكوى ، وانما لزمت الصمت المطبق وهى مرتاعة مـن سرعة المركبة ، وفي ذهنها خاطر واحد هو : متى نصل ؟ .. واذ ضـاقت بالصمت ، التفتت الى مرافقها آخر الأمر وسألته

ـ لقد أحصيت ثلاثمائة فرسخ بين بيرم وايكاترينبرج ، فهل ترى أخطأت ؟

ـ كلا ، لم تخطئى يا نادية ، وحين نبلغ ايكاترينبرج نصير تحت سفح جبال الأورال ، فى الجانب الآخر منها

ـ وكم تستغرق رحلتنا فى الجبال ؟

ـ حوالى ثمان واربعين ساعة متواصلة لأننى لن أستطيع التـوقف لحظة واحدة فى الطريق ، بل يجب أن أسرع الى اركوتسك بلا أدنى ابطاء

ـ لن أعوقك أيها الأخ ساعة واحدة ، وسنمضى فى رحلتنا ليل نهار

ـ عسى ألا يسد غزو التتار فى وجهنا الطريق يا نادية ، كى نستطيـع ان نصل الى غايتنا قبل مضى عشرين يوما !

ـ أو قمت بهذه الرحلة من قبل ؟

ـ عدة مرات ! .. ولو كنا فى الشتاء لوصلنا بأسرع وأسهل وأمن طريقة، ولو ان البرد فى الشتاء يهرأ العظام . لقد شهدت انخفاض درجة الحرارة فى السهول السيبيرية احيانا الى أكثر من اربعين درجة تحت الصفر ، واحسست بقلبى يكاد يتجمد تحت ثيابى الجلدية السميكة ، وباطرافى تكاد تشل داخل الحذاء الصوفى المثلث الطبقات .. ثلاث مرات عبرت الطريق الى ، اومسك ، فى الشتاء

ـ وماذا كنت تفعل فى اومسك ؟

ـ كنت أذهب لأرى أمى التى تنتظرنى ..

ـ وأنا الآن ذاهبة لرؤية أبى فى اركوتسك ، وسوف أنقل اليه آخـر كلمات أمى .. ألست محقة فى الذهاب اليه برغم كل العقبات ؟

ـ انك فتاة شجاعة يا نادية .. وما كان يمكن أن يتخلى الله عنك !

ومضت العربة براكبيها من محطة الى محطة ، وتغير حوذيها وجيادها مـرة بعد أخرى ، وكان كل حوذى منهم يرحب بقيادة عربة الأخوين السخيين ، ويعاملهما معاملة خاصة .. وفى احدى المحطات علم ستروجوف من ناظرها ان عربة أخرى تسبقه فى الطريق عينه بنحو ساعتين . فسأله : « وكم راكبا فيها ؟ » . فقال : « فيها اثنان »

فسأله : « هل يسيران مسرعين ؟ » . قال : « بسرعة البرق ! »

فطلب اليه أن يبدل الرجال جياد العـربة بسرعة ! . ووعد الناظر باجابة هذا الطلب

ومضى الراكبان ينهبان الأرض أثناء الليل ، وكان الطقس جميلا .. لكن بوادر التكدر ما لبثت أن بدت فى الجو ، مؤذنة بعاصفةعاتية آتية من الجبال. ومرت الليلة دون أى حادث ، واستطاعت نادية أن تنام بضع ساعات ، برغم الجو المترب الخانق .. أما ستروجوف فلم يغمض له جفن ، بل ظل يستحث الحوذى كلما بدأ يغالبه النعاس ، ولم يضيع ساعة واحدة فى مراحل الطريق او محطات البريد عند تغيير الحوذى والجياد

وفى الساعة الثامنة من الصباح التالى ـ ٢٠ يوليو ـ بدت أولى تبـاشير جبال الأورال من ناحية الشرق ، لكنها كانت ما تزال بعيدة فى الواقع بحيث يتعذر بلوغها قبل نهاية النهار . وهكذا تحتم أن يتم عبور تلك السلسلة من الجبال الشاهقة التى تفصل روسيا الأوربية عن سيبيريا فى ظلمة الليل .. وخلال ذلك النهار ظل الجو خانقا والهواء عاصفا محملا بالغبار .. ولعله كان الأفضل ألا يتورط الشاب فى محاولة عبور الجبـــال بالغبار .. ولعله كان بلغ آخر محطة لابدال الجياد قبيل الأورال وأشار له الحوذى الجديد الى بوادر البرق والرعد التى تختمر فى قلب الفضاء الأسود العـريض الذى أمامه . سأله فى هدوء : « أما زالت تسبقنا عربة أخرى ؟ »

فقال : « نعم ، بنحو ساعة »

قال : « اذن فالى الأمام ، ولك منحة مضاعفة اذا بلغنا (ايكاترنبورج) فى الصباح ! »



عاصفة فى جبال الأورال

تمتد جبال الاورال نحو ثلاثة آلاف فرسخ ـ اى ثلاثة آلاف ومائتى كيلو متر ـ بين أوربا وآسيا .. وقد كان ميشيل ستروجوف حكيما اذ اختار لعبورها طريق (بيرم ـ ايكاترنبورج) . وتقع الاخيرة على السفح الشرقى للجبل ، فقد كان هذا الطريق أسهل الطرق وأمنها ، وهو طريق تجارة آسيا الوسطى جميعها . وقد كان الليل كافيا لعبور الجبال فى حالة اتقاء حدوث حادث ما .. لكن البوادر الاولى للبرق والرعد كانت لسوء الحظ نذيرا بثورة جوية هوجاء !

وقد حرص الشاب على أن يوفر لمرافقته أقصى ما فى استطاعته من سبل الراحة ، وثبت غطاء العربة بحبل غليظ كى يحول دون انتزاع العاصفة اياه اثناء السير ، وملأ فراغ العجلات بالقش كى يخفف من شدة الارتجاجات الناشئة عن السرعة فى قلب الليل البهيم ، وليزيد من صلابة العجلات

واخذت نادية مكانها فى بطن العربة ، وجلس ميشيل على مقربة منها ، وقد امتد امامهما ستار من الجلد اعد خصيصا لحمايتهما من المطر اذا هطل والعواصف اذا اشتدت . والى يسار الحوذى علق مصباحان كبيران ليضيئا الطريق . وهكذا اتخذ الركب كل الاحتياطات التى اقتضاها الجو المنذر بالشر ، فقال الشاب لمرافقته : «نادية ، نحن على استعداد »

فقالت : « اذن فلنرحل »

واعطى الامر للحوذى ، فاندفعت المركبة تتسلق المناطق الاولى من سفح الجبل . وكانت الساعة الثامنة ، والشمس توشك ان تغيب ، والجو قاتم ، وهناك ابخرة كثيفة تحجب قبة السماء ، لكن الرياح لم تكن قد هبت بعد ، وان تكن المسافة التى تفصل بينها وبين الارض كانت تقصر بالتدريج ، وكأن قوة علوية تدفع موجة الريح من السماء نحو الارض ، فى الوقت الذى تتسلق فيه المركبة السفح من الارض الى السماء .. ولم يمض وقت طويل حتى اختلطت الارض بابخرة الهواء المتكاثفة ، واشتد الضباب بحيث عجزت المركبة عن ان تشق طريقها ، وتعذر عليها ان تسير آمنة من السقوط فى هاوية سحيقة !

وسلسلة جبال الاورال متوسطة الارتفاع ، لا يزيد علو اعلى قممها على خمسة آلاف قدم ، وتتخللها مناجم عدة للحديد والنحاس والاحجار الكريمة ، وقرى كثيرة متناثرة على الطريق المهدة لعبور عربات البريد . لكن الطريق المهدة فى الطقس المعتدل وضياء النهار سرعان ما تنطوى على اشد الخطر واشق

المراحل حين تصطرع عناصر الطبيعة بشدة وعنف فيضيع الانسان فى غمرة صراعها !

وكان ميشيل ستروجوف يعرف مدى قوة العاصفة ورهبتها فى الجبل ، ولم تكن الامطار قد هطلت بعد ، فازاح الستار الجلدى وجعل يراقب الطريق امامه على ضوء مصباحى المركبة .. اما نادية فعقدت ذراعيها على صدرها ، وراحت بدورها ترقب الطريق صامتة ، دون ان تنحنى مثله او تخرج نصف جسمها من العربة ، كأنما يستشير السماء والارض فى وقت معا ... وكان هدوء الجو من ذلك النوع الذى يسبق العاصفة ، فبدت الطبيعة وكأنما اوشكت ان تختنق وتكف عن التنفس ، وساد السكون فلم يكن يعكره غير صرير العجلات وهى تنهب الطريق ، وانفاس الجياد اللاهثة ، ووقع حوافرها الحديدية على الحصى فى الطريق وفيما عدا ذلك كانت الطريق مهجورة تماما ، فلم تصادف المركبة اثناء سيرها راجلا ولا فارسا ولا عربة أخرى تتسلق الاورال فى تلك الليلة الظلماء . بل لم تصادف نار فحام فى الغابات ، ولا مخيما لعمال المناجم العديدة هناك ، او كوخا فى احمة على الطريق !

وفى خلال ذلك كله كان ميشيل يسائل نفسه حائرا عمن يكون ذلك المسافر فى المركبة التى سبقته ، وما الدوافع العاجلة التى اغرته بمجافاة الحذر والمخاطرة بعبور الجبل فى مثل هذه الليلة ؟ . وفيما هو يديرفى رأسه شتى الاحتمالات والتفسيرات ، دون ان يكف عن مراقبة الطريق ، بدا البرق يشق كبد السماء قبيل منتصف الليل ، ولم تخف حدته بعد ذلك قط ، وعلى ضوئه كانت تبدو وتختفى ظلال اشجار الصنوبر الضخمة التى تتجمع فى بقع مختلفة من الطريق ، والاخاديد السحيقة التى تغفر فاها كلما مرت المركبة على قنطرة خشبية ممتدة بين قمتين . وبين حين وآخر كانت تعلو صيحات الحوذى وهو يستحث جياده اللاهثة بعبارات اللوم أو الاطراء . ثم سأله ستروجوف فجأة : « متى نبلغ قمة الجبل ؟ »

فقال : « فى الساعة الاولى صباحا .. اذا قدر لنا أن نبلغها ! »

فسأله : « اهى رحلتك الاولى فى الجبل اثناء عاصفة ؟ »

فقال : « لا ياسيدى ، وعسى الا تكون الاخيرة ! »

قال : « أخائف انت ؟ » . قال : « لست خائفا ، ولكنى اكرر انك اخطأت يا سيدى بهذه المجازفة ! »

فقال ستروجوف : « لو اننى احجمت لكنت اشد خطأ ! »

فسكت الحوذى هنيهة ، ثم صاح بجياده قائلا : « اذن انطلقى يا حمائمى ! »

وما كاد يتم عبارته حتى سمع دوى رهيب ، وتعاقب وميض البرق وهزيم الرعد ، ولمح ستروجوف اشجارا من الصنوبر تميل نحو الهاوية .. وبدأت الريح تزار فى طبقات الجو العليا ، وتهاوت على جذوعها بعض الاشجار الاخرى . على بعد مائتى متر فقط من المركبة . فنكصت الجياد على اعقابها مذعورة ، وراح الحوذى يصيح بها وفرقعة سوطه تختلط بدوى الرعد ، بينما امسك ستروجوف بيد نادية وسألها : « أنائمة انت يا اختاه ؟ » . فاكتفت بان نظرت اليه دلالة على

أنها متيقظة ، وبقيت ساكتة . فقال لها : « حسنا ، استعدى اذن لمواجهة العاصفة يا أختاه »

فتمتمت قائلة : « انى متأهبة ! »

ولم يكد يسدل الستائر الجلدية ليحجبها بها من المطر المرتقب حتى هبت الزوبعة بكل عنفوانها ، فقفز الحوذى من مكانه الى ظهر احد الجياد ، واخذ يجاهد ليسيطر على زمامها دفعا للخطر الذى يهدد الركب ، وحين أوقفها كانت المركبة قد بلغت منعطفا من الطريق ، فرأى الاحتفاظ بها هناك حتى لا تجرفها الريح العاصفة الى الهاوية القائمة الى يسار الطريق ، ولكن الجياد لم تكف بعد وقوف العربة عن ثورتها الجامحة . فقد أعمتها ومضات البرق الخاطفة،وأصمت سمعها انفجارات الرعد الشبيهة بانفجارات القنابل ، فراحت تصهل وتزمجر محاولة تحطيم اعنتها والتخلص من قيودها . وادرك ستروجوف أن الحوذى لا يستطيع السيطرة على جياده ،فقفز من مكانه لمعاونته ، وافلحا بعد لأى فى كبح جماحها

على أن العاصفة نفسها لم تهدأ حدتها ، بل ازدادت ، وبدأ سيل من الأحجار وجذوع الاشجار يتدحرج من القمم والمرتفعات المشرفة على ذلك المكان ، فصاح ستروجوف قائلا : « ما أظن أننا نستطيع البقاء هنا ! »

فقال الحوذى يائسا : « بل لن نستطيع البقاء على قيد الحياة ! . ان هذه العاصفة ستلقى بنا الى قاع الهاوية من أقصر طريق ! »

فصاح به قائلا : « تول امر الجواد الأيمن ايها الجبان .. وسأتولى أنا امر الأيسر ! » .

لكن هجمة جديدة من هجمات العاصفة أجبرت الرجلين على الانبطاح على الارض حتى لا تجرفهما الريح ، بينما تراجعت العربة برغمهما حتى كادت تخرج عن الطريق لولا أن اصطدمت بجذع شجرة أوقفها . وهنا هتف ستروجوف بصاحبته قائلا : « لا تخافى يا نادية ! » . فأجابت بصوت لا يبين فيه أثر للانفعال : « لست خائفة ! »

وهدأت حدة الزوبعة قليلا بعد حين فقال الحوذى لميشيل ستروجوف : « أتريد العودة من حيث أتينا ؟ »

فقال له : « كلا ، بل نواصل رحلتنا . لكن يجب ان نجاوز هذا المنعطف لكى نستطيع الاحتماء بالجبل »

فقال الحوذى : « لكن الجياد تأبى المسير ! »

قال : « اذن نتعاون على جذبها من الامام ! »

وبدا التردد فى وجه الحوذى ، وغمغم يقول : «ان الزوبعة ستعود الى الهبوب»

فصاح به ستروجوف قائلا فى لهجة حازمة : «كفى ثرثرة ونفذ ما أمرتك به ! »

فسكت الحوذى مذعنا وتناول الجواد الايمن ، بينما تناول ستروجوف زمام الجواد الايسر ، وبعد لأى استطاعا اعادة العربة الى الطريق الرئيسى والمضى بهما فيه ، ولكن بمشقة أشد ، وكانا لا يكادان يقطعان خطوات حتى يسقط احدهما او كلاهما ، أو يضطر الى التراجع ! . وأخيرا استطاعا بعد ساعتين فى ذلك العناء المتواصل أن يقطعا نصف فرسخ ، ويجاوزا منطقة مهب العاصفة !

على ان الخطر لم يكن مقصورا على العاصفة ، فقد كان هناك سيل الأحجار التى تهوى بقوة منحدرة من القمم العالية ، وشد ما فزع الحوذى اذ رأى حجرا ضخما منها قد اندفع نحو المركبة بسرعة كبيرة فخارت قواه وفغر فاه من شدة الرعب ، بينما أهوى ستروجوف بسوطه على الجياد فى قوة كى تمضى بالمركبة بعيدا من الخطر ، لكنها ظلت جامدة فى مكانها ! . وهنا تصور الشاب أية موتة شنيعة تتهدد ثلاثتهم اذا سقط الحجر على المركبة ، فأخذ يدفع المركبة بكتفيه فى قوة خارقة أمده بها ذلك المأزق الرهيب ، واستطاع ان يزحزحها الى الامام بضع خطوات ، فى اللحظة التى هوى فيها الحجر الضخم واستقر فى الموضع الذى كانت فيه . وشعر هو والفتاة والحوذى بالأرض تميد تحتهم ، وبالهواء يصفع وجوههم مختلطا بالحصى المتطاير عقب سقوط الحجر الثقيل . ولم تملك الفتاة نفسها فصاحت مرتاعة قائلة : « أخى ! » . وسرعان ما هتف بها ستروجوف فى صوت هادئ يقول : « اطمئنى ، ان الله معنا يا أختاه ! »

ثم استأنفت المركبة سيرها حتى بلغت مكانا يصلح للاحتماء فيه من عربدة العاصفة التى بلغت عنفوان غضبها ، وكان الرعد يزمجر ويدوى ، بينما الارض ترتج .. فتركت نادية مقعدها ولجأت الى كهف صغير من كهوف رجال المناجم ، فى انتظار استئناف الرحلة . وفى تلك اللحظة ـ وكانت الساعة الأولى صباحا ـ بدأت الأمطار تنهمر بشدة ، وكأنما فتحت كل ميازيب السماء لتجرف اليابسة كلها فى طوفان عام . وفى الوقت نفسه كانت صفحة السماء تلتمع بالبرق المتواصل كأنما شب فيها حريق لم تقو على اطفائه كل تلك المياه ! . وهذه هى الطامة الكبرى التى جعلت مواصلة الرحلة ضربا من المستحيل !

وحاول ستروجوف ان يعزى نفسه بان عنف العاصفة الى هذا الحد دليل على ان امدها لن يطول ، ولعلها تنتهى بعد ساعتين فيتمكن الركب من مواصلة السفر قبيل الفجر

ثم سمع نادية تقول : « اذا كنت تبغى مواصلة الرحلة فلا يؤخرنك عنها ان تخشى تعبا او خطرا ! »

فأجابها قائلا : «أنا أعرف مبلغ شجاعتك ، ولا شك فى ان الواجب الذى على ان أؤديه ، يقضى بألا ننتظر ! »

وغمغمت قائلة فى استغراب : « واجب ! »

وفى تلك اللحظة شق السماء ضوء خاطف عنيف ، ثم أعقبه دوى هائل ، وامتلأ الهواء برائحة خانقة .. بينما شبت نار الصاعقة فى حشد من أشجار الصنوبر الضخمة على مقربة من المركبة فاشتعلت كالهشيم وبعد أن خفتت أصداء الرعد فى بطون الجبال،التمس ميشيل ستروجوف يد نادية المتشنجة بيده وسمعها تهمس فى أذنه : «أسامع أنت ؟ انى أسمع صيحات بعيدة أيها الأخ»

استغاثة فى الظلام

كانت الصيحات التى سمعتها نادية صادرة من الجانب الاعلى من الطريق ، على مقربة من المركبة ، وكانت اشبه بصيحات الاستغاثة اليائسة ، فقالت نادية : « لعل امامنا بعض المسافرين يطلبون النجدة ! » ..

فقال لها ستروجوف : « اذن يجب أن نخف لنجدتهم »

فقال الحوذي : « اتعنى ان نعرض انفسنا والعربة والجياد لاعباء جديدة ؟ »

فحدجه ميشيل ستروجوف بنظرة صارمة وقال : « يجب أن نصنع لهم ما كنا ننتظر أن يصنعوه لنا لو انهم كانوا فى موقفنا وكنا فى موقفهم . وسأذهب اليهم وحدى ماشيا على اية حال ! »

ثم نهض ، فنهضت نادية وقالت : « سأصحبك يا اخى ! »

فقال لها : « لا داعى لذلك ، ويحسن ان تبقى هنا ، فلست اريد ان اتركه وحده » . قال هذا وهو يشير الى الحوذى

فقالت « فليكن ما تشاء ، ولن اغادر هذا الكهف حتى تعود »

فمد يده اليها مصافحا ، ثم مضى نحو منعطف المنحدر ، . وما لبث ان اختفى فى الظلام

وهنا قال الحوذي للفتاة : « ان اخاك مخطىء ولا شك ! »

فاجابت فى بساطة : « بل هو على صواب ! »

ومضى ستروجوف يتسلق المرتفع التى انبعثت الصيحات من خلفه فى خفة وجرأة ، مدفوعا الى ذلك بعامل الرغبة فى نجدة اولئك المسافرين ، ولكى يقف فى الوقت نفسه على ما حدا بهم الى المجازفة بالسفر رغم تلك العاصفة العاتية واخطار عبور الجبل فى الليل !

وكان واثقا من انهم ركاب العربة التى كانت تسبقه طيلة الطريق ، ومع ان المطر كان قد انقطع ، فان شدة العاصفة تضاعفت ، وبلغ من قوة الريح المضادة ان احدا ، لا يملك قوة ميشيل ستروجوف البدنية ، لم يكن يستطيع الخوض فيها . ولما اقترب من مصدر الصرخات لم يستطع ان يميز مكان المستغيثين ، اما لانهم كانوا خارج الطريق الرئيسى ، واما لان كثافة الظلمة حجبتهم عن ناظريه . لكنه ما لبث أن سمع أصواتهم بوضوح ، الأمر الذى اثار بالغ دهشته .. وكانوا يتبادلون هذه العبارات :

ـ « بيوتور » : عد ادراجك .. !

ـ سوف اجلدك فى المحطة القادمة

ـ الا تسمعنى يا حوذى الشيطان ؟

ـ انظر بربك كيف يسافرون فى هذا البلد !

ـ او يسمون هذه مركبة ؟

ـ يا لك من وغد .. اهكذا تفر وتتركنا فى عرض الطريق ؟

ـ او هكذا تعاملنى انا الانجليزى الاصيل ، سوف اشكوك فى القنصلية واجعلهم يشنقونك !

ولم يسع ستروجوف الا ان يبتسم لدى سماعه عبارة هذا المسافر الاخير ، ثم سمع زميله الراكب الاخر وهو يهدىء روعه ، وتضاعفت دهشته حين اعقب ذلك ضحكة بل قهقهة غير متوقعة ، وتبعها هذا الحوار :

ـ وبعد ؟ . هذا غريب جدا !

ـ او تجرؤ على الضحك ؟

ـ بالطبع ايها الزميل العزيز ، ومن كل قلبى .. والا فماذا استطيع خيرا من الضحك ؟ . بل انا ادعوك الى أن تضحك معى .. والا فبربك هل وقع لك أغرب من هذا ؟

وفى تلك اللحظة دوى الرعد بشدة رددت الجبال صداها مضاعفا ، ثم سمع ستروجوف ذلك المسافر الضاحك يقول :

ـ نعم ، هذا أغرب ما رأيت حقا .. انه امر لا يمكن ان يحدث فى فرنسا

فاجابه زميله قائلا : « ولا فى انجلترا .. ! »

وعلى ضوء برق مفاجىء لمح ستروجوف على بعد عشرين خطوة منه اثنين من المسافرين جالسين جنبا الى جنب فى قلب عربة انغرست عجلاتها فى أخدود من الأرض !.. واقترب الشاب شيئا فشيئا من المسافرين ، بينما استمر احدهما فى الضحك والثاني فى التذمر والسخط .. فعرف فيهما الصحفيين اللذين رافقاه على السفينة « قوقاز » من « نيجنى نوفجورود » الى « بيرم » وحين رآياه هتف به الفرنسى :

ـ سعدت صباحا يا سيدى ، لكم يسرنا ان نراك فى هذه الظروف . دعنى اقدم لك عدوى الحميم مستر « بلونت » !

وحياه الصحفى الانجليزى بدوره ، وكاد يقدم له زميله الفرنسى ، لكن ستروجوف قطع حديثه قائلا :

ـ لا داعى للتعريف ايها السادة ، فنحن متعارفون ما دمنا قد عبرنا الفولجا معا !

ـ حسنا ، هذا صحيح يا مسيو .. ؟

ـ نيقولا كورباتوف ، تاجر من اركوتسك . ولكن هل لكما ان تقصا على نبأ ذلك الحادث الذى اضحك احدكما بقدر ما اغضب الاخر ؟

فقال الصحفى الفرنسى ملهوفا : « ساحتكم اليك يا مسيو كورباتوف ، تصور ان حوذينا قد رحل واخذ معه جياد مركبته الجهنمية وتركنا هكذا ، بلا حوذى

ولا جياد . . ارايت اغرب من هذا ؟ »

فقال الانجليزي : « ليس ثمة غرابة البتة في الامر ؟

ـ بل انه لامر غريب ايها الزميل . . ولكنك لا تعرف كيف تأخذ الامور ببساطة

ـ وكيف نستطيع مواصلة رحلتنا برأيك ؟

ـ ليس ثمة ما هو ابسط من ذلك . . تأخذ انت مكان الحصان وآخذ انا مكان الحوذي ، واناديك قائلا : « هيا يا حمامتي ٠٠ هيا يا عصفوري المحبوب ! »

ـ مسيو جوليفيه ، ان مزاحك قد جاوز الحدود ، و ٠٠٠٠

ـ احتفظ بهدوئك ايها الزميل ، وثق بأنك حين تتعب سوف تستريح اذ استبدل بك جوادا آخر

ولم يملك ستروجوف نفسه من الابتسام ، لطرافة النقاش بين الصحفيين ، لكنه آثر ان يخرج بالموضوع عن طور المزاح فقال :

ـ ايها السادة ، هناك حل افضل من هذا ، لقد بلغنا الآن القمة العليا لسلسلة جبال الاورال ، ولم يبق امامنا غير ان نهبط السفح المقابل . ولما كانت عربتي على بعد خمسمائة خطوة من هنا ، ففي وسعي ان اعيركما احد جيادها كي يجر عربتكما ، وبذلك نستطيع ان نبلغ « اكاترنبورج » معا في الغد ، ان لم يعترضنا حادث ما . واذا كنت لا اعرض عليكما السفر معي في عربتي فلأنها لا تحوي غير مقعدين اشغلهما انا واختي

فأجابه الفرنسي على الفور : « هذا عرض كريم منك يا مسيو كرباتوف . »

واردف زميله الانجليزي قائلا : « ونحن نقبله شاكرين . واما ذلك الحوذي الوغد . . . ؟ »

فقال ستروجوف : « انها ليست اول مرة يقع فيها مثل هذا الحادث »

ـ ولكن لماذا لا يعود ؟ الم يدرك بعد انه تركنا وراءه ، بعد ان انفصل قسما العربة ؟ »

ـ لعله في اندفاعه السريع لم يشعر بذلك ! . . والآن تفضلا فاتبعاني ، كي نحضر عربتي !

ـ لقد انقذتنا من مأزق رهيب يا سيدي، ولعلنا نلتقي مرة اخرى في سيبيريا

فقال ستروجوف : « انني ذاهب الى اومسك »

قال : « اومسك فقط ! . . اننا ذاهبان الى ابعد من ذلك ، الى حيث نجد اخبارا نصطادها ، وربما رصاصا ايضا ! »

ـ آه ، في مناطق الغزو ؟ انني بطبعي رجل مسالم لا احب اماكن القتال

ـ لكم يؤسفنا ان نفترق هكذا سريعا ، ولكن من يدري ، ربما ترشدنا نجمتنا الهادية الى طريقك ذاته ، فنسافر معا مرة اخرى

ـ قد تعرجان اذن على اومسك ؟

ـ لسنا نعلم الآن سوى اننا ذاهبان رأسا الى (ايشيم)

ـ اذن يسرني ان نسافر معا حتى هناك

ورغم نفور ستروجوف من ان يصحبه احد في رحلته ، فانه لم يستطع ان يتخلص من المسافرين اللذين سوف يسلكان طريقه نفسه . ثم قال بلهجة تنم عن عدم اهتمام : « اتعلمان الى اين بلغ توغل التتار في غزوهم ؟ »

فأجابه جوليفيه على الفور : « اننا لا نعلم غير ما سمعناه في (بيرم) من ان جيش (فيوفار خان) قد غزا كل مقاطعة (سيميبالاتنسك) واندفع منذ ايام بقوة هائلة نحو مجرى (الارتيش) ٠٠ »

فقال جوليفيه : ويقولون ايضا ان الكولونيل ايفان اوجاريف تخطى الحدود متنكرا ، وانه لن يلبث ان يلحق بزعيم التتار في قلب البقاع المغزوة »

فقال : « وهل لديكما ما يدل على انه الآن في سيبيريا ؟ »

قال : « سمعت انه اتخذ طريق (قازان ـ ايكاترنبورج) »

وهنا انبرى له منافسه الانجليزي قائلا : « اتعلم هذا ايضا ؟ . . لكنك لا تعلم انه متنكر في زي بوهيمي ؟ ! »

وهنا صاح ستروجوف على غير ارادة منه قائلا : « بوهيمي ؟ ! » . ذلك انه تذكر على الفور ذلك البوهيمي الاحدب ومرافقته اللذين صادفهما مرتين ، وهبطا من السفينة في قازان ! . . ثم استطرد جوليفيه محدثا زميله في لهجة تنم عن الزهو : « ولقد ابرقت بفحوى هذا النبأ الى باريس ! »

فأجابه هذا قائلا : « اذن فانت لم تضع وقتك سدى في قازان ؟ »

ولم يتتبع ستروجوف الحوار الذي استمر بين الزميلين حول هذا الموضوع ، فقد شردت افكاره الى رهط الغجر ، والاحدب الشيخ ، والمرأة التي ترافقه ، والنظرة التي حدجته بها وهي تغادر السفينة . وحاول ان يستجمع في ذهنه جميع تفصيلات ذلك اللقاء ، وبغتة سمع انفجارا صادرا من مسافة قريبة ! . . فصاح ستروجوف : « آه ، الى الامام ايها السادة . . » . . واوسع الثلاثة خطاهم حتى وصلوا الى الكهف الذي تقف فيه المركبة ، وكانت اشجار الصنوبر التي احرقتها الصاعقة ما تزال تشتعل . . والطريق يبدو خاليا تماما ، وفجأة سمع زئير مخيف ، ودوى انفجار طلق ناري آخر . . فصاح ستروجوف : « دب ! . . » ٠٠ ثم هتف على الفور في جزع : « نادية ! » ٠ واستل سكينه من نطاقه وفي وثبة واحدة دار حول المنعطف الذي ترك الفتاة عنده ، وكان حريق اشجار الصنوبر يلقي على تلك المنطقة بصيصا من الظلال الحمراء ٠ وفي اللحظة التي بلغ فيها مكان العربة اندفعت نحوه كتلة ضخمة ، دب من الحجم الكبير ، طردته العاصفة من غابات الاورال فجاء ينشد مأوى في الكهف المريع الذي احتمت فيه نادية من غضب الطبيعة

وكان اثنان من الجياد قد فزعا من مرأى الدب الضخم فحطما قيودهما ولاذا بالفرار ٠ وفي غمرة انزعاج الحوذي اندفع يطاردهما تاركا الفتاة مع الدب !

ولم تفقد نادية صوابها ، وانما انتهزت فرصة انشغال الدب بمهاجمة الجواد الثالث ، ولم يكن قد رآها هي بعد ، وخرجت من مكمنها مسرعة الى العربة

فتناولت منها احد المسدسات التي خلفها فيها ستروجوف وصوبته بسرعة الى الوحش الكاسر .. ثم اطلقته !

واستقرت الرصاصة في كتف الدب ، لكنه لم يتراجع ، بل استدار الى الفتاة وهو يزار ويهمهم ، بينما حاولت هي تجنبه بالدوران حول المركبة . وفي اثناء ذلك كان الجواد الثالث يبذل اقصى جهده لتحطيم قيوده . وادركت نادية انه لو انطلق لتحتم عليهم البقاء في ذلك المكان وقتا لا يعرف مداه الا الله . وازاء هذا الخطر الداهم حزمت شجاعتها وتمالكت اعصابها وواجهت الدب عامدة . وفي اللحظة التي كان الوحش فيها يتاهب للانقضاض على راسها ، اطلقت عليه رصاصة اخرى . وكان ستروجوف قد اقترب ، وصار على مدى خطوات .. فارتمى بكل قوته بين نادية والدب ، وبحركة باطشة بارعة من يده التي تحمل السكين طعن الدب طعنة نجلاء ، فلقت جسمه الضخم من معدته الى رقبته !، ثم هرع ستروجوف الى نادية وقال لها : «ولعلك لم تجرحي يا اختاه ؟» . فقالت : «لم اجرح يا اخي ، فاطمئن»

وفي هذه اللحظة ظهر الصحفيان قادمين من وراء المنعطف ، وكانا قد لمحا مناورة ستروجوف البارعة مع الدب .. فلما ابديا دهشتهما من قوته وحيلته ، اجابهما بقوله : «اننا في سيبريا نكون مضطرين الى تجربة كل شيء !» . وكانت هيئته والسكين المخضبة بالدم في يده ، وقدمه فوق جثة ضحيته ، رائعة حقا . فلم يمالك جوليفيه نفسه من تامل هذا المنظر في اعجاب ، ثم اقترب من الفتاة محييا في احترام ، وقبعته في يده ، وكذلك صنع زميله بلونت ، فردت الفتاة تحيتهما بابتسامة قليلة . ثم ظهر الحوذي قادما يسوق الجوادين الهاربين ، فالقى نظرة على الوحش الهائل الصريع ، واخذ ستروجوف يشرح له موقف الصحفيين المسافرين ، ومشروعه الخاص باعارتهما احد جياده الثلاثة ، فابدى ترددا ، ولكن جوليفيه وعده بان يضاعف له اجره ، فقبل !

وصعدت نادية الى العربة ، وتبعها ستروجوف وزميلاه سيرا على اقدامهم حتى لحقوا بعربة الصحفيين عند اول تباشير الفجر ، وكانت الاخيرة غارقة حتى نصفها في الوحل .. فجلس فيها راكباها وشد اليها الجواد .. ثم استانف الركب سيره الى سفح جبال الاورال ، ولم يكن في هبوطه مشقة تذكر

وبعد نحو ست ساعات وصلت العربتان الى « اكاترنبورج » دون اي حادث ، وكان اول مخلوق شاهده الصحفيان على باب محطة البريد حوذي عربتهما الذي خلفهما في منتصف الطريق ، وكان يبدو عليه انه ينتظرهما . وبكل سفاقة مد اليهما يده طالبا « البقشيش » ، وعلى شفتيه ابتسامة جريئة . وهنا بلغ الغضب ببلونت اقصى حده ، فسدد اليه قبضته بلكمة قوية بارعة روعيت فيها ادق قواعد الملاكمة ، ولولا ان الآخر تداركها مسرعا لحطمت فكه !.. اما جوليفيه فقد انفجر ضاحكا من غضبة زميله « البريطانية » ومد يده ببضع قطع من العملة وضعها في جيب الحوذي ، امعانا في النكاية بزميله !



« وارتمى ستروجوف بكل قوته بين نادية والدب . وبحركة بارعة طعن الدب بالسكين »

إهانة . . يتقبلها بطل !

تعد « اكاترنبورج » ـ جغرافيــا ـ من مدن آسيا ، لانها تقع عند قاعدة السفح الشرقى لجبال الأورال ، لكنها برغم ذلك تابعة لحكومة (بيرم) احدى حكومات روسيا الأوربية ، وكان عدد سكانها قد تضاعف فى تلك الفترة ٠٠ نظرا الى مهاجرة الكثيرين اليها ، من الاقاليم المهددة بالغزو

وكان الصحفيان يزمعان التوجه الى « ايشيم » التى تبعد ستمائة وثلاثين فرسخا عن اكاترنبورج ، ومنها الى حيث تقودهما حاسة البحث عن الأخبار فى ميادين القتال ٠ أما ستروجوف فكان همه الابتعاد جهد الطاقة عن مواطن الازدحام ، لكنه كان مضطرا الى مرافقة الصحفيين الى ايشيم ، لأنها الطريق الوحيدة التى يمكنه أن يسلكها الى « اركوتسك » ٠٠ ومن ثم التفت الى الرجلين قائلا : « يسرنى أن أرافقكما فى مرحلة من الطريق ، لكننى أصارحكما بأننى أتعجل الوصول الى أومسك كى أزور أنا وأختى أمنا هناك ، ولا ندرى أنصل اليها قبل أن يحتل الغزاة المدينة أم لا ؟ لذلك نعتزم ألا نتوقف فى المحطات الا للضرورة لتغيير الجياد بأقصى سرعة ، ثم نستأنف السفر ليل نهار ! »

فقال بلونت : « ونحن كذلك نعتزم أن نفعل مثل هذا ! »

فقال : « اذن ، لا تضيعا وقتكما ٠٠ استأجرا أو اشتريا عربة تصلح لبقية الرحلة »

وبعد نصف ساعة كان الصحفيان قد حصلا على العربة المطلوبة لرحلتهما فركباها ، بينما ركب ستروجوف ونادية عربتهما ٠ وعنـــد الظهر غادرت العربتان بلدة اكاترنبورج

جلست نادية فى العربة التى تنهب بها أرض سيبيريا ، أرض المنفى التى قضى على أبيها بالحيـاة فيها بعيدا عن وطنه الأصلى ٠ وكانت خلال الطريق لا تكاد ترى شيئا من المناظر التى تترى أمام بصرها ، فقد كان ذهنها مشغولا بالتفكير فيما وراء الأفق ٠ على أنها فى بعض الاحيان كانت تزايلها صـورة أبيها لتطالعها بدلا منها صورة مرافقها الشاب ، وأطوار صلتهما منذ بدأت فى القطار ، ثم فى مركز البوليس ببلدة نيجنى نوفجورود ، وعلى ظهر السفينة التى عبرت بهما الفولجا ٠ وأخيرا خلال تلك الليلة الرهيبة فوق جبال الاورال، حيث عرض حياته للخطر كى ينقذ حياتها

وكانت فيما بينها وبين نفسها تشكر الله على أن قيض لها هـــذا الحارس اليقظ ، والصديق الكريم الكتوم ٠ وأحست بشعور من الأمان وهى بجانبه، تحت رعايته ٠ وراحت تقول لنفسها : « ان الأخ الشقيق ما كان ليكون أبر

بها منه .. وهي لم تعد تخشى عقبة ما تعترض المرحلة الباقية من طريقها ، بل انها لواثقة من بلوغها هدفها الذي كان بعيد المنال .. !

أما ميشيل ستروجوف فكان يتكلم قليلا ويفكر كثيرا . وقد حمد الله بدوره على أن أتاح له في رفقة نادية تضليلا لأعدائه فيما يتصل بحقيقة شخصيته وفرصة لعمل طيب يؤديه لها . واحس نحوها بمزيج من الاحترام والميل أو الاعجاب بجمالها وبطولتها . وادرك أنه بازاء قلب من القلوب النقية النادرة التي يمكن الاعتماد عليها

على أنه منذ وطيء أرض سيبيريا ، كان يشعر بان مرحلة الأخطار الحقيقية قد بدأت فيما يختص بمهمته ، واذا صح ما سمعه من الصحفيين وكان ايفان اوجاريف قد عبر الحدود ، فقد وجب عليه أن يتبع في حركاته منتهى الحذر ، لان الظروف قد تغيرت وامسى الجواسيس التتار منتشرين في انحاء سيبيريا كالنمل ، مما يعرض شخصيته للافتضاح ، ومهمته للفشل ، وحياته للضياع!

وفي الوقت نفسه ، كان راكبا العربة الاخرى على عادتهما .. جوليفيه يثرثر ، وبلونت يتكلم بحساب .. وكلاهما يفسر الأمور على طريقته ، ويدون ملاحظاته أثناء الطريق ، على قلتها ، في مفكرته الخاصة

وفي كل محطة كان ركاب العربتين يتقابلان ، ما عدا نادية التي لم تكن تغادر مقعدها الا حين تتناول وجبة طعام في احدى المحطات .. وكانت تجلس الى المائدة صامتة ، لا تكاد تشارك في حديث . ويبدو أنها قد راقت للصحفي الفرنسي جوليفيه ، وقد أعجبه منها بوجه خاص نشاطها الصامت الذي تبديه رغم متاعب رحلة تتم في ظروف عسيرة شاقة !

ولم تكن مناسبات التوقف الاضطراري فترة طويلة تلقى ترحيبا أو انشراحا من جانب ستروجوف ، فكان يستحث الركب على استئناف المسير ويتعجل استبدال الجياد في كل محطة ، بل كان يتعجل تنـــاول الطعام ، برغم ميل الصحفي الانجليزي الى التباطؤ في الأكل . وكانت المنـــاطق التي قطعتها العربتان شبه مهجورة ، كما كان الطقس جميلا ، والسماء صافية ، والحرارة محتملة ، فسار الركب بسرعة هائلة في هـــذه الظروف الملائمة . وكان خلو الطريق من المارة راجعا الى ظروف الغزو ، فلم يكن في الحقول غير نفر ضئيل من فلاحي سيبيريا ، شاحبي الوجوه.وهنا وهناك بضع قرى قد أخلاها اهلها، ايذانا باقتراب جيوش الغزاة وفروا بقطعان اغنـــامهم وأبقارهم وجيادهم الى سهول الشمال ، بينما عمدت بعض قبائل « الكرجيز » الى الانتقال بخيامها الى ما وراء « ارتيش » و « أوبي » فرارا من اغارة التتار

وكان من حسن الحظ ان ادارة البريد والتلغراف كانت منتظمة في المناطق التي لم يدركها الغزو ، فكان نظار المحطات يسهلون للمسافرين مهمة ابدال جيادهم ، وموظفو البرق ينقلون البرقيات التي تصل اليهم الى أصحابها بدقة وسرعة ، ولا يؤخرونها الا اذا اعترضت سبيلها برقيات حكومية .. وهكذا استطاع الصحفيان الاجنبيان أن يزودا صحيفتيهما بالانباء اولا فاول..وحتى هذه الساعة كانت رحلة ميشيل ستروجوف تسير بغير عراقيل ، وفي ظروف ملائمة ترجح أمله في أن يبلغ « اركوتسك » قبل جيوش « فيوفار خان »

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، بلغ الركب بلدة «تولوجيسك» الصـــغيرة ، بعد أن قطع مرحلة طولها مائتان وعشرون فرسخا دون حادث يستحق الذكر .. وهناك قضى أفراد الجماعة نصف ساعة في تناول الافطار ثم استأنفوا سفرهم بسرعة كفلتها لهم بضع دراهم من فئة الكوبك وعدوا الحوذيين بها

وفي اليوم نفسه ــ ٢٢ يوليو ــ وصلت المركبتان في الساعة الاولى بعد الظهر الى « تيوجين » ، وهي بلدة صغيرة أخرى يبلغ مقدار سكانها الأصليين عشرة آلاف نســمة ، ازدادوا بسبب الحرب الى الضعف !.. وهنـــاك راح الصحفيان يطوفان بانحاء البلدة سعيا وراء الاخبار ، لكن ما استقياه هناك من افواه المهـــاجرين لم يكن موثوقا به ، وكان بعـــض هؤلاء يؤكدون أن جيش فيوفار خان يقترب مسرعا من وادي ايشيم ، وان ايفان اوجاريف في طريقه للانضمام الى الخان ، ان لم يكن قد انضم اليه !.. ومن ثم فان العمليات الحربية تسير مندفعة نحو شرق سيبيريا بأقصى سرعة . اما الجيوش الروســـية فقد اقتضى الأمر استدعاءها من المقاطعات الاوربية على عجل ، وان ظلت بعيدة عن أن تساهم في صد الغزو ، في الوقت الذي اتجه فيه قوزاق حكومة توبولسك نحو تومسك ، على امل شطر جيوش التتار

وفي الساعة الثامنة مساء بلغت المركبتان بلدة « بالوتوروفسك » ، وبعد ابدال الجياد بسرعة استأنفتا سيرهما فعبرتا نهر « توبول » على ظهر « معدية » .. وقرب منتصف الليل وصلتا الى مركز « نوفوسايمسك » . وهناك طرح المسافرون وراء ظهورهم آخر حدود الأورال ، حيث بدأت في الواقع براري سيبيريا الحقيقية .. السهول التي لا حد لها ، والصحراء الشاســـعة التي تكسوها الاعشاب ، حيث تختلط الارض والسماء عند الافق ، وتمتد أعمدة التلغراف على مدى البصر ، على الجانبين ، فيعبث الهواء بأسلاكها كما يعبث العازف بأوتار القيثارة .. ولا يميز هذا الطريق نفسه من بقية السهل سوى الغبار الناعم الذي يثور تحت عجلات العربات !

وانطلق ميشيل ستروجوف وصـــحبه عبر السهول بأقصى سرعة ، وقد راحت الجياد تلتهم الطريق ، ولا تعوقها عقبة ما .. وفي اليـــوم التالي كان الركب قد قطع مائة وسبعين فرسخا ، ولم يبق بينه وبين «ايشيم» غير ثلاثين فرسخا . وهنا رأى ستروجوف أمامهم عربة من طراز عربات البريد لا تكاد تبين وسط الغبار ، فوضـــع نصب عينيه أن يدركها . وكان التراب الذي يكسوها يوحي بأنها قطعت مرحلة طويلة ، وسياط الحوذي على ظهور جيادها تدل على أن الجياد المسكينة متعبة ، منهكة . وكذلك أدرك ســـتروجوف أن العربة لم تمر بطريق « نوفوسايمسك » ورجح أنها جاءت من طريق مجهول . واعتزم هو ورفاقه أن يسبقوها كي يظفروا قبلها بالجياد الأصيلة في المحطة التالية !

وفي اللحظة التي جاوز فيهـا ستروجوف عربة البريد لمح وجها يطل من نافذتها ، وصوتا يهتف به في صوت آمر : « قف ! » . لكنه لم يقف ، بل سبقت عربته وعربة رفاقه تلك العربة الثالثة ، ولكن حوذيها راح يلهب ظهور

جيادها بالسياط ، فما لبثت قليلا حتى لحقت بالعربتين وحاذتهما ، وهكذا احتدم السباق بين العربات الثلاث .. واختفت أشباحها في زوبعة عاتية من غبار عجلاتها جميعا ، وعلت صيحات الركاب وسياط الحوذية تستحث الجياد !

لكن عربة ستروجوف احتفظت بأسبقيتها وظلت في المقدمة ، وبعد نصف ساعة لم يعد يبدو من عربة البريد في المؤخرة غير نقطة تائهة وسط الغبار . وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مســاء حين وصلت العربتان السابقتان الى المحطة التالية ، في مدخل مدينة ايشيم

وكانت أنبـاء الغزو قد وصلت قبل ذلك الى المدينة مهددة اياها باقتراب طلائع الجيوش التتارية الغازية ، بل كانت الحكومة قد انتقلت منذ يومين الى نوبولسك ، فلم يبق في ايشيم موظف ولا جندي !

لم يكد ستروجوف يصل الى محطة البريد حتى بادر بطلب ابدال الجيـاد ، وتضاعف سروره بسبقه العربة الاخرى حين علم أن الجيـــاد التي في المحطة لا تكفي لغير عربة واحدة !

اما الصحفيان فكانا قد وصلا الى غايتهما ، حيث اعتزما البقاء في ايشيم ، فلم تكن بهما حاجة الى جياد ، بل أنهما سلما عربتهما الى ناظر المحطة ، اذ لم تبق لهما حاجة اليها .. وبعد عشر دقائق كانت عربة ستروجوف قد أعدت، فقال لرفيقيه الصحفيين :

ـ ما دمتما تعتزمان البقاء في ايشيم ، فوداعا أيها الصاحبان ، اذ يهمني ان ابرح المحطة الآن قبل أن تصل العربة التي سبقناها .. تجنبا لكل نزاع

فكرر له الصحفيان شكرهما على ما قدم لهما من معونة كبيرة ، وأعربا عن املهما في أن يلقياه مرة أخرى في أومسك بعد أيام ، ثم تمنيا له رحلة موفقة . وفيما هما يصافحانه مودعين ، سمع في الخارج ضجيج عربة قادمة .. وبعد لحظة فتح باب الحانة على مصراعيه ودخل رجل يرتدي الزي العسكري ، في نحو الاربعين من العمر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، كثيف الشاربين ، يتدلى من منطقته سيف فارس ويمسك في يده سوطا قصيرا ، وابتدر ناظر المحطة قائلا في لهجة آمرة ، شأن من ألف أن يصدر الأوامر : « أريد ، طقما ، من الجياد »

فأجابه الناظر قائلا : « آسف يا سيدي ، لم يبق عندي جياد الآن ! »

فعاد الضابط يقول : « لكنني لابد لي من جياد الآن ! »

فكرر ناظر المحطة أسفه مؤكدا استحالة اجابة هذا الطلب . ولكن الضابط لم يقتنع ، وقال له : « اذن : لمن تلك الجيـــاد المسرجة في العربة الواقفة في الخارج ؟ »

فأشار الناظر الى ستروجوف وقال : « انها تخص هذا السيد المســافر يا سيدي »

فألقى الضابط على ستروجوف نظرة خاطفة ، وواصل كلامه قائلا : «فلتحل هذه الجياد ، لتسرج في عربتي فورا ! »

وهنا تقدم ستروجوف حتى وقف أمام الضــابط المتعجرف ، وقال له في هدوء : « هذه الجياد قد حجزت لي »

فقال : « هذا لا يهمني . انها لازمة لي ، وليس لدي وقت أضيعه ! »

فقال ستروجوف : « وأنا كذلك ليس لدي وقت أضيعه ! »

وكانت نادية واقفة بجانب ستروجوف ، محتفظة بهدوئها مثله ، لكن قلقا غامضا من تطورات الموقف كان يعتمل في أعماقها . بينما التفت الضابط الى الناظر قائلا في لهجة تهديد : «فلتحل الجياد من هذه العربة وتسرج في عربتي فورا .. ! »

ولم يدر الناظر الحائر من يطيع ، ونظر الى ميشيل ستروجوف بوصـــفه صاحب الحق في مقاومة ذلك العدوان الصارخ .. وتردد هذا هنيهة ، اذ كان لا يريد ابراز جواز المرور الخاص الذي يحمله ، وفي الوقت نفسه لم يرد أن يتنازل عن جياده فيؤخر سفره ساعات هو في امس الحاجة الى الانتفاع بها . كما أنه أدرك عقم الدخول في عراك مع ذلك الضابط

وتطلع الصحفيان اليه ، وعما على تمام الأهبة لمعاونته اذا استنجد بهما . لكنه اكتفى بأن قال لغريمه في لهجة حرص على الا تتجاوز في حدتها ما يمكن أن يصدر من تاجر عادي من اركوتسك : «ان جيادي سوف تظل في عربتي»

وعندئذ اقترب منه الضابط فوضع راحته على كتفه وصاح به : « اذن أنت لا تريد التنازل لي عن الجياد ؟ » . فأجاب دون أن يزايله الهدوء : « كلا ! »

فقال الضابط : « حسنا ! انها اذن ستكون من نصيب من يستطيع منا مغادرة هذا المكان حيا .. هيا دافع عن نفسك ! » . قال ذلك واستل سيفه من غمده في عنف ، ووقف على أهبة النزال ، فألقت نادية بنفسها في وجه ستروجوف ، وتقدم الصحفيان منه في ترقب وفضول . أما هو فعقد ذراعيه فوق صدره وقال للضابط في بساطة : « لن أنازلك ! »

فبهت الضابط وقال : « لن تنازلني ؟! » . قال : « نعم ، لن أنازلك ! »

وما كاد ستروجوف يتم عبارته حتى كان الضــابط قد اهوى بسوطه على كتفه بسرعة قائلا في تحد : « حتى بعد هذا ؟! »

فشحب وجه ســـتروجوف ، وارتفعت يداه كأنه يهم برد تلك الاهـانة الصارخة ، لكنه سرعان ما قمع انفعاله جاهدا وأطرق مفكرا !

ان المبارزة معناها احتمال أن تفسد مهمته كلها ، لا أن يتأخر فقط ، وخير له اذن أن يتأخر بضع ساعات .. ولكن كيف يبتلع هذه الاهانة ؟!

وعاد الضابط يصيح به في فظاظة وحدة : « الا تريد أن تنازلني بعد ايها الجبان ؟! »

فاكتفى ستروجوف بأن رفع رأســـه ونظر الى غريمه في هدوء ثم قال : « كلا ! »

وبادر الضابط بالخروج قائلا : « اذن صارت الجياد لي ! » . وتبعه الناظر وهو يهز كتفيه ويحدج ستروجوف بنظرة استنكار واضحة ، وكذلك صنع

الصحفيان ، تحييا ستروجوف تحية فاترة وانسحبا من الردهة يضربان كفا بكف دهشة من أمر هذا الشـــاب الذي شاهداه يصارع الدب بسكينه ، ثم ها هو ذا يجبن عن منازلة رجل أهانه بلا أدنى مبرر !

وبعد لحظة ، سمعت قرقعة عجلات وصـــدى سوط يؤذن برحيل مركبة الضـابط بأقصى سرعتها ، بينما خلت ردهة المحطة الا من نادية التي بقيت صامتة مطرقة ، وستروجوف الذي ما زال يرتجف انفعالا ، وقد عقد ذراعيه على صدره ، وعلت وجهه حمرة لا تمت بسبب الى الخجل أو العار !.

ولم تشك نادية في أن سببا وجيها لابد أن يكون هو الذي أجبر الفتى على أن يتلقى تلك الاهانة الصريحة على هذا النحو المزرى ، فاتجهت نحوه ومدت اليه يدها ـ كما فعل معها في قسم بوليس نيجني نوفجورود ـ وهي تغمغم قائلة : « يداك ايها الشقيق ! » . وفي حنان الأم ، مدت اصبعها ومسحت في رفق دمعة انحدرت من عين الشاب !



الواجب قبل كل شيء !

ورجحت نادية أن دافعا خفيا هو الذي سيطر على جميع تصرفات ستروجوف فجعله لا يملك حتى التصرف في شخصه ، بل جعله يغضي برغم بطولته عما لحق به من اهانة جارحة !. لكنها لم تطلب منه ايضاحا . وبقى هو صامتا طيلة تلك الأمسية . وحين صارحه الناظر باستحالة توفير جياد لعربته قبل صباح اليوم التالي ، قبل على مضض أن يعد الرجل له ولمرافقته غرفتين يقضيان فيهما ليلتهما !

ورحبت نادية في سرها بهذه الفرصة التي تتيح لها قسطا من الراحة التي حرمت منها طويلا . وبرغم حرصها على عـدم الابتعاد عن مرافقها وجـدت نفسها مضطرة الى المبيت في غرفة مســتقلة . ولما حان الوقت لذهابهما الى الفراش ، ودعته متمتمة بعبارات مقتضبة ، ثم مضت الى حجرتها !

أما هو فلم يجد النوم الى عينيه سبيلا طول ليلته . وكانت ذكرى السوط الذي مس كتفه تلسع نفسه كالنار المحرقة . وحينما فرغ من صلاة المساء أضاف مغمغما : « من أجل الوطن والقيصر .. ! »

وكان فكره كله منصرفا الى الوسيلة التي تمكنه من الوقوف على شخصية ذلك الضابط الذي تحداه ، ومن أين جاء ، والى أين ذهب . وأخيرا دعا اليه ناظر المحطة،فلما جاء هذا ووقف أمامه متعاليا متسائلا عما يريد منه ، سأله : « أمن هذا الاقليم أنت ؟ » . فأومأ الناظر برأسه موافقا ، وعاد هو يسأله : « أتعرف الرجل الذي اغتصب جيادي ؟ » . فقال « كلا .. ! »

قال : « الم تره من قبل ؟ » . فقال : « لا .. ! »

قال : « ومن تحسبه يكون ؟ » . فقال : « لا شك في أنه سيد اعتاد أن يأمر فيطاع ! »

وفي صبيحة اليوم التالي ، ٢٤ يوليو ، شـدت الى عربة ستروجوف ثلاثة جياد قوية وانطلقت به وبصاحبته مودعة « ايشيم » . وفي كل محطة تالية كان ستروجوف يتبين أن الضابط قد سبقه بمرحلة طويلة ، وفي الســاعة الرابعة مساء كان عليهما أن يعبرا نهر ايشيم ، وكان هذا أصعب كثيرا من عبور نهر توبول ، واستغرق ساعتين كاملتين

ومن أفواه الملاحين وقف ستروجوف على آخر أنباء الغزو ، فعلم أن بعض كشافة جيش « فيوفار خان » قد ظهروا على ضفتي النهر ، في المنطقة الواقعة في حدود حكومة توبولسك ، وأن أومسك باتت مهددة ، وأن الانباء تترى عن

التحام جيوش سيبيريا وجيوش التتار على حدود بلاد الكرجيز ، انتهى في غير صالح الأولى ، مما حمل سكان المناطق المجاورة على الهاجرة منها فرارا من الغزاة !

وتحدث الرواة عن فظائع ارتكبها الغزاة ، بين نهب وسلب وحرق وقتل وسرقات ، وهتك أعراض !

وكان أخشى ما يخشاه ستروجوف أن يعوقه انقطاع المواصلات عن الوصول الى اومسك قبل فوات الأوان ، فيقضى بذلك على أمله في أن يسبق طـلائع التتار التي تجتاح وادى « ارتيش » في الطريق الى اركوتسك

ولم تكد « المعدية » تصل بالعربة الى الضفة اليمنى للنهر حتى استـأنف ستروجوف رحلته بأقصى سرعة في براري سيبيريا ٠٠ وكان قد لزم الصمت منذ غادر محطة ايشيم ، مع حرصه على أن يوفر لنادية كل وسائل الراحة في تلك الرحلة المضنية ، وان كانت هي لم تشك أو تتذمر من شيء ، بل ودت لو زودت الجياد بأجنحة تعينها على سرعة الوصول ، بعد أن أيقنت بأن صاحبها اكثر منها تعجلا لبلوغ اركوتسك ٠ على أنها لم تملك نفسها من التفكير في أن امه التي تقيم بمدينة أومسك قد تتعرض لخـاطر جمة لو غزا التتار هـذه المدينة ، ولم تشك في أن هذا اهم اسباب القلق الذي يعانيه !

وسالته أخيرا « ألم تتلق أخبارا من امك منذ بداية الغزو ؟ »

فقال : « لا ٠٠ يا أختاه ٠ فقد تلقيت آخر خطاب منها منذ شهرين ، لكني لست قلقا عليها ، فانها قوية العزيمة صلبة العود ، برغم تقدمها في السن ٠٠ وهي تعرف كيف تواجه المتاعب »

فقالت له : « سـوف أذهب معك لأزورها أيها الشقيق ، وما دمت قد دعوتني اختك فسأكون لها نعم الابنـة ؟ ٠٠ لكن من يدرى ، لعلهـا غادرت أومسك ؟ »

فأجاب الشاب باسما : « هذا محتمل يا نادية ، واني آمل أن تكون قد لجأت الى توبولسك ٠ انها تمقت التتار ، وهي خبيرة ببراري سـيبيريا ولا تخاف شيئا ٠٠ فعسى أن تكون حزمت متاعها وهبطت على ضفة « ارتيش » ، فما من بقعة من بقاع سيبيريا لم تجبها مع أبي يوم كنت أنا طفلا ٠٠ نعم يا نادية ، أرجو أن تكون امي قد غادرت أومسك »

فسالته : « ومتى تنوى أن تراها ؟ » ٠ فقال : « في عودتي »

قالت : « أتعني انك لن تتخلف ساعة في الذهاب لتعانق أمك ؟! » ٠ قال : « لن أفعل ٠! »

فبدت الدهشة في وجهها وسألته : « لماذا أيها الشقيق ؟ أي شيء يعوقك عن هذا ؟! »

فتنهد وقال : « أتريدين أن تعرفي السبب يا نادية ؟ ٠٠ انه السبب الذي من أجله صبرت بل جبنت ازاء تلك الاهانة التي ٠٠٠ » ٠ وغلبه التأثر فسكت

فقالت له نادية : « هدىء من روعك يا أخي ٠٠ اني لأعلم انك تحب امك حبا جما صـادقا ، ولكن هناك عاطفة أخرى ، لعلها أقدس ، تسيطر عليك وتوجهك »

وصمتت عند هذا الحد ٠ احتراما لما فطنت الى وجوده من سر في أمر صاحبها

وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي – ٢٥ يوليو – وصلت المركبة الى محطة « تيوكالينسك » بعد أن قطعت مائة وعشرين فرسخا بعد « ايشيم » ٠٠ ولأول مرة بدا الحوذى يقيم العراقيل في سبيل مواصلة السفر ، فزعم أن عصابات التتار تهاجم المارة في الطريق وتعرض حياتهم وأموالهم للخطر ٠ ولم يستطيع ستروجوف اقناع الحوذى اللعين بالمسير الا بعد أن أغراه بالمال ٠ ولم يشأ في هذه المرة ايضا أن يستغل جواز مروره الرسمي !

وفي الساعة الثالثة مساء جاوزت العربة « كولاتسينكاو » ولم يبق بينها وبين أومسك غير عشرين فرسـخا ، يتوسطها نهر « الارتيش » ، الذي ترتفع مياهه في تلك الفترة من السنة ويشتد تياره الى درجة تجعل عبوره محفوفا بالخطر ٠ لكن الخطر أيا ما بلغت درجته ما كان ليعوق ميشـيل ستروجوف ونادية عن المضى قدما نحو هدفهما المرسوم بغير أدنى تردد !

واقترح الشاب أن يعبر النهر بالعربة وأحد الجياد ، ثم يعود لأخذ نادية والجوادين الآخرين ، تفاديا لخطر غرق المعدية بهم في النهر اذا هم أثقلوها بحملهم جميعا مرة واحدة ٠ لكن الفتاة أبت أن تؤخر الركب ساعة على الأقل ، وهكذا هبط الجميع الى « المعدية » بعد مجهود استغرق نحو نصف ساعة ، وفي البداية انزلقت « المعدية » على صفحة الماء في يسر نسبي ٠٠ ثم تعقدت الأمور ، وتعذر على اللاحين مقاومة التيار في اتجاه مضاد ، وفي سرعة مخيفة ٠ على أن القوم جميعا ما برحوا يستعينون بالصبر والصلاة والشجاعة حتى نجوا من الخطر ، وعادت المعدية تمضي بهم نحو الضفة اليمنى في سهولة ويسر ، حتى اذا لم يبق على الوصول اليها غير خمسة فراسخ أو ستة ، حانت من ستروجوف نظرة الى الخلف فاذا به يبصر بعض الزوارق الخفيفة وقد حملها التيار وانطلق بها في سرعة كبيرة على صفحة النهر ، فارتسم القلق والتساؤل على جبينه ، بينما سألته نادية : « ماذا هناك ؟ »

وقبل أن يجيبها ، هتف أحد البحارة في فزع قائلا : « التتار ٠٠ التتار ٠! »

والتفت الجميع فرأوا الزوارق منطلقة خلفهم ، وفيهـا جنود من التتـار المسلحين متأهبين للقتال ، وكان واضحا أن المعدية أعجز من أن تفلت مـن مطاردة الزوارق الخفيفة ، السريعة ، فعقد الفزع ألسنة البحـارة ، وشل تفكيرهم ، فتركوا المجاديف تسقط من أيديهم ، وعلا صراخهم وصياحهم وهم وقوف يتطلعون الى مطارديهم بأبصار زائغة وقلوب واجفة !

على أن ستروجوف بقى على هدوئه ورباطة جأشه ، وما لبث قليلا حتى صاح بأولئك البحارة في صوت حازم قوى النبرات قائلا : « أين شجاعتكم يا رفاق ؟ هيا الى مجاديفكم ٠ ان النجاة تنتظركم هناك عند الشاطىء القريب ، بل تنتظركم

هناك ايضـــا خمسون روبية منى » . قال هـــذا وهو يلوح لهم بكيس ملئ بالروبيات ، فسرعان ما عاد الملاحون الى مراكزهم واستأنفوا نشاطهم ، لكن اليأس ما لبث أن عاودهم حين ازداد المطاردون قربا منهم ، فتخاذلت المجاديف في أيديهم وادركوا عقم أية محاولة لتجنب الالتقاء بالاعداء ، او الاصطدام بهم .. والا فهل يعقل أن يدعهم هؤلاء يمرون بسلام ، بغير أن يتعرضـــوا لهم بسوء ؟.. هذا أمر بعيد الاحتمال ، ولابد من توقع كل شيء من التتار الغزاة الاوغاد !

وقال ستروجوف لمرافقته : « لا تخافي يا نادية ، ولكن اســتعدي لكل شيء ! » ، فقالت : « انى مستعدة ! » .

فقال : « ولكن ثقتك بي كاملة ، فلا يخالجك أى تردد اذا طلبت منك أن تلقى بنفسك الى النهر ! » .

فقالت : « انى لعلى ثقة كاملة بك منذ عرفتك أيها الشقيق ! » .

ولم يعد يفصل التتار عن « المعدية » اكثر من مائة قدم .. وكانوا فرقة من جنود بخارى يقومون برحلة اســـتطلاعية الى اومسك . وبقيت أمام الناقلة بضع أقدام كي تبلغ الشاطىء ، فضاعف الملاحون من جهـــدهم .. وانضم ميشيل ستروجوف اليهم فتناول مجدافا وراح يعمله بقوة خارقة للبشر . آه لو أنزل المركبة على الشاطىء وأطلق لجياده العنان ، اذن لربما استطاع الافلات من أولئك الأنذال .. ولكن يبدو أن المحاولة غدت عقيمة . وارتفع صيـــاح الجنود التتار : « ساريى ناكيتشر ! » وادرك ميشيل ستروجوف مغزى هذه الصيحة التي يطلقها قراصنة التتـــار في الحرب ، وكيف ينبغى أن يواجهها أعداؤهم بالانبطاح على وجوههم .. وفي مثل لمح البرق اندفعت نحوهم موجة من الرصاص ، أردت جوادين من جياد العربة قتيلين . وفي اللحظة التالية كان أحد زوارق التتار قد حاذى المعدية فهتف ستروجوف وهو يتأهب للالقاء بنفسه في النهر : « تعالى يا نادية ! » .

ولكن قبل أن تلحق الفتاة به كان هو قد تلقى هجمة عنيفة بالرمح ألقته في الماء فحمله التيار من فوره الى بعيد ، وبعد أن لوح بيده فوق الماء لحظة اختفى عن الأنظار !

أما نادية فأطلقت صرخة مروعة وهمت بالقاء نفسها في اليم وراءه ، لكن أيدى الاعداء امتـــدت اليها بأسرع مما قدرت ، وسرعان ما حملوها الى أحد زوارقهم !

وفي اللحظة التالية قتل الملاحون في المعدية طعنا بالرماح ، واستأنف التتار رحلتهم في مجرى نهر « ارتيش » .. !

الأم .. والأبن !

تعد « اومسك » عاصمة ســيبريا الغربيـــة ، او النصف الاول من روسيا الاسيوية ، لكنها مع هذا ليست أهم مدن الاقليم ولا اكثرها ازدحاما بالسكان ، فان تومسك تفوقها في هاتين الناحيتين

وتتألف اومسك من قســمين او بلدتين ، يقطن الاول حاكم الاقليم العـــام والموظفون الرسميون ، ويقطن الثانية تجار سيبريا ومن اليهم . ويبلغ عدد سكان اومسك حوالى اثنى عشر الف نسمة . وبرغم وسائل تحصينها فانها لم تستطع ان تصمد طويلا أمام هجوم الغزاة الأشداء من التتار . ولم يكد يبدأ هجومهم عليها حتى اضطرت حاميتها المؤلفة من الفى رجل الى الانسحاب من المدينة السفلى التى يقطنها التجار الى المدينة العليا التى يتحصن فيها موظفو الحكومة . وهناك حوصر الحاكم العام وضباطه وجنوده ، فجعلوا من اومسك العليا شبه قلعة لاذوا بحماها دون ان يخالجهم كبير امل فى أن تأتيهم نجدة قبل فوات الأوان !

وكان التتار الذين هبطوا مجرى نهر ارتيش يتلقون امدادا متواصلة تشد أزرهم وتضاعف من بأسهم ، وكان يشرف على توجيههم واستغلال مواهبهم محارب موهوب هو الكولونيل ايفان اوجاريف !

كان ايفان يمتاز على زعماء التتار الذين يحركهم بأنه عسكرى مثقف ، خبير بفنه ، يجـرى فى عروقه دم المغول ، موروثا عن امه التى كانت من اصـــل آسيوى .. فكان ولوعا بالخدع والمكائد ، ميالا الى مجابهة الفخـــاخ واستكناه الاسرار المستعصية .. وبحكم مكره وخبثه المتأصلين كان قديرا على التخفى والتنكر فى اى هيئة يشاء .. فضلا عن قسوته البالغة التى جعلت له مركز الصدارة لدى فيوفار خان ، واهلته لأن يصبح ساعده الأيمن فى حربه الوحشية الضروس

وحين بلغ ميشيل ستروجوف ضفة « ارتيش » كان ايفان اوجاريف قد غدا سيد « اومسك » المسيطر وراح يشدد الحصار على قسمها الاعلى ، ملهوفا على الفراغ من امرها كى يتجه صوب « تومسك » حيث يتجمع القسم الاكبر من جيوش التتار وكانت جيوش فيوفار خان قد استولت على تومسك منذ أيام وتأهبت للزحف نحو اركوتسك ، بعد ان دانت لها سيبريا الوسطى ، فكانت هذه المدينة هى الهدف الرئيسى الذى يرمى اليه ، وقد أعد لهذا خطة محكمة هى أن يتقرب من الغراندوق منتحلا لنفســه اسما مزيفا ويظفر بثقته الكاملة ،

حتى اذا حانت الساعة الملائمة سلم المدينة والغرانددوق نفسه الى التتار ، وبهذا لا تلبث سيبريا الاسيوية كلها ان تسقط في ايدي الغزاة !

وقد وصلت تفاصيل هذه المؤامرة الى مسامع القيصر كما تقدم ، فعهد الى ميشيل ستروجوف في مهمة احباطها ، على ان يخترق المناطق التي تم غزوها متخفيا حتى يصل الى الغرانددوق ويكشف له امرها كي يأخذ حذره ويخف لحماية نفسه وبلاده مما دبر ايفان اوجاريف !

وها قد نجح ستروجوف في الشطر الاول من مهمته .. ولكن هل يقدر له ان يقوم بالشطر الباقي منها ـ وهو الذي يتوقف عليه كل شيء ؟

ان الضربة التي اصابته من زورق التتار في عرض النهر لم تكن ضربة قاتلة ، وقد افلح في السباحة متخفيا جهد الطاقة حتى بلغ الضفة اليمنى ، وهناك سقط مغشيا عليه فوق الاعشاب . وحين عاد الى وعيه الفى نفسه في كوخ احد فلاحي « الوجيك » وكان هذا قد عثر به فحمله الى مثواه حيث عني بامره . وسائل الشاب نفسه وهو يتبين ما حوله : « ترى كم مضى علي هنا في ضيافة هذا السيد الشجاع ؟ » وتفرس في منقذه فاذا هو شيخ ذو لحية كثيفة ، ينبع العطف من نظراته ، وقبل أن يوجه اليه اي سؤال بادره الشيخ من تلقاء نفسه فقال : « لا تتكلم يا ابني ، لا تتكلم .. انك ما زلت ضعيفا ، ولسوف اشرح لك اين انت وكل ما حدث منذ حملتك الى هنا »

واخيرا ، قص عليه الشيخ الفلاح تفاصيل معركة النهر التي شهدها من البر ، وهجوم التتار .. وغرق المركبة ، ومذبحة الملاحين . لكن الشاب لم يكن يصغي اليه ، وانما تحسس بيده موضع رسالة الامبراطور التي كان يخفيها في ثيابه ، فلما وجدها في مكانها عاوده شيء من الاطمئنان .. ولكن بقيت اشياء اخرى كانت تقلقه . والتفت الى الشيخ قائلا : « كانت معي فتاة هي .. »

فقاطعه الشيخ وقد ادرك ما يعانيه الفتى من انزعاج قائلا : « انهم لم يقتلوها وانما اخذوها معهم في زورقهم الذي واصل رحلته في اتجاه مجرى النهر . ولعلها الآن اسيرة يضيفونها الى غيرها من الاسيرات اللواتي يقتادونهن الى تومسك ! »

لم يستطع الشاب ان يعلق بكلمة ، وانما وضع راحته على موضع قلبه كي يتحسس ضرباته العنيفة . ولكن عاطفة الواجب برغم هذا بقيت تسيطر على روحه كلها ، فسأل مضيفه الشيخ : « اين انا الآن ؟ »

قال : « على الضفة اليمنى من النهر ، على بعد خمسة فراسخ فقط من اومسك »

ـ ما نوع الاصابة التي تلقيتها والتي جعلتني اغيب عن صوابي هكذا ؟ . انها ليست طلقة نارية ؟

ـ كلا ، انها ضربة رمح على الرأس ، وقد اوشكت ان تندمل . وبعد بضعة ايام من الراحة تستطيع أن تواصل رحلتك . لقد سقطت في النهر على اثر اصابتك لكن التتار لم يستطيعوا ان يصيبوك في الماء . وقد ظل كيس نقودك في جيبك سليما !

مد ميشيل ستروجوف يده الى الشيخ ، وبمجهود عنيف استطاع ان يعتدل في جلسته .. ثم سأله مرة اخرى : « كم من الزمن امضيت عندك هنا ايها الصديق ؟ » . فقال : « ثلاثة ايام »

فعض على شفتيه حسرة وقلقا واسفا على ضياع هذه الايام الثلاثة التي قضاها غائبا عن الصواب . ثم التفت الشيخ وسأله : « أعندك جواد تبيعه لي ؟ »

فقال الشيخ : اتريد الرحيل ؟ » . قال : « نعم .. في هذه الساعة ! »

فهز الشيخ رأسه اسفا وقال : « ليس عندي جواد ولا عربة يا بني .. ان التتار لا يخلفون وراءهم شيئا ! »

فقال ستروجوف : « اذن .. اذهب ماشيا الى اومسك للبحث عن جواد ! »

فقال الشيخ : « انك متعب ، ويحسن ان تستريح وقتا اخر قبل أن تستأنف سفرك » . فقال : « لا استطيع الانتظار ساعة واحدة ! »

وهنا ادرك الشيخ عقم اية محاولة للدخول مع الشاب في مناقشة لارجاعه عن عزمه ، فقال له مستسلما :

ـ اذن اصحبك بنفسي .. فما يزال في اومسك عدد كبير من الروسيين وفي الامكان ان تندس بينهم بغير ان يلحظك احد »

ـ فلتكافئك السماء ايها الصديق على ما فعلته من اجلي ..

ـ ان الحمقى وحدهم هم الذين ينتظرون مكافأة على الارض

وخرج ميشيل ستروجوف من الكوخ ، وحين شرع في المشي اصابه دوار كاد يسقطه على الارض ، لولا ان خف الشيخ لنجدته .. لكن الهواء الطلق ما لبث ان انعشه ، وان احس باثر الصدمة التي تلقاها على رأسه ، والتي حماه من شدتها غطاء الرأس المصنوع من الفراء ، الذي كان يرتديه وقت الحادث .. على انه ما كان ليعبأ باصابة بسيطة أو يدعها تعوق نشاطه ، وهو الذي عرف بقوة مراسه ، ولا سيما انه كان يضع نصب عينيه ان يبلغ اركوتسك ، وان يمر باومسك دون أن يتوقف فيها ساعة !

وقال لنفسه وهو يشرع في المسير : « فليحفظ الله امي ونادية !.. وان يكن ليس من حقي ان أفكر فيهما الآن ! »

ولما وصل ومعه مرافقه الشيخ الى الحي التجاري في اومسك السفلى ، لم يجدا صعوبة في دخولها برغم انها كانت محتلة عسكريا .. وكانت ملأى بآثار التخريب والنهب والسلب التي احدثتها بها جيوش فيوفار خان ، وقد انتشر الجنود التتار بكثرة في شوارعها وميادينها ، ولكن بدا كان يدا حديدية قد اخضعتهم لنظام صارم لم يألفوه من قبل . وكانت اومسك بالنسبة لهم محطة مؤقتة يستريحون فيها بعض الوقت ثم يستأنفون حربهم الهمجية ، مفضلين سهول سيبريا الشرقية الغنية باراضيها الخصبة ومدنها العامرة بما يستحق السلب والنهب !

وكان القسم الاعلى من اومسك ما زال مستعصيا على التتار وعلى رأسهم

ايفان اوجاريف ، برغم الهجمات العنيفة التي شنوها عليه ، اذ صدها الروس بشجاعة وبراعة فائقتين . وهكذا ظل العلم الروسي اللون يخفق فوق ابراجها وقبابها العالية ، فحياه ميشيل ستروجوف ومرافقه الشيخ في كثير من الفخر والزهو !

وكان ستروجوف يعرف المدينة جيدا ، فاستطاع وصاحبه الشيخ ان يسيرا متجنبين الشوارع المطروقة ، برغم أن احدا في المدينة لم يكن ليستطيع معرفة شخصيته ، عدا امه العجوز . واحس بشعور من الالم لعجزه عن زيارتها وفاء بقسمه للقيصر وعهده الذى قطعه على نفسه بالا يحاول رؤيتها خشية ان يفتضح امره ! .. وهكذا لم يبق في طوقه غير ان يتمنى لها الخير من صميم قلبه داعيا ربه ان يرعاها . ولكن ترى : أهي ما زالت في اومسك ؟ ام انها فرت الى بقعة آمنة في برارى سيبريا التي تعرف خباياها جيدا ؟ !

وكان الفلاح الشيخ يعرف ناظرا لاحدى محطات البريد لايحجم عن تأجير الجياد والعربات او بيعها لمن يدفع له ثمنا مغريا ، فطلب منه ستروجوف أن يقوده اليه . وفيما هما يسلكان اليه شارعا ضيقا توقف ميشيل ستروجوف فجأة في مكانه ثم ارتد ملتصقا باقرب جدار اليه ، فبغت الشيخ وسأله في دهشة : « ماذا بك يا بنى ؟ »

فلم يجب واكتفى بأن وضع اصبعه على فمه مشيرا اليه أن يصمت ! .. وفي تلك اللحظة خرجت فصيلة من جنود التتار من الميدان الرئيسي وعرجت الى الشارع الذى سلكه الرجلان ، وكان على رأس الفصيلة ـ المكونة من نحو عشرين فارسا ـ ضابط يرتدى زيا بسيطا .. وبرغم ان الضابط لم يكف عن ان يدير عينيه فيما حوله وهو سائر في الطريق فان بصره لم يقع على الرجلين ، اللذين أفلحا في الاختباء !

واتجهت الفصيلة في مشية عسكرية نحو الشارع الضيق ، دون أن يأبه افرادها بالاهالى الذين اصطفوا فورا على الجانبين كي يفسحوا للغزاة الطريق ! وفي بضعة مواضع سمعت صيحات مكتومة من افراد انهالت عليهم ضربات الرماح من الجند . وحين اختفت الفصيلة عن الانظار سأل ستروجوف دليله ، وقد كسيت وجهه صفرة الاموات : « من ذلك الضابط ؟ »

فأجاب الشيخ في همس ينم عن الكراهية : « انه ايفان اوجاريف ! »

فصاح في غيظ لم يملك اخفاءه : « أهو ذاك ؟ ! »

ذلك أن ايفان اوجاريف لم يكن سوى الضابط المسافر الذى اهانه وتحداه في محطة « ايشيم » .. حين تنازعا بشأن الجياد !

وهنا فقط تبين ستروجوف في ملامح غريمه صورة البوهيمي الاحدب الذى تبادل معه حديثا قصيرا في (نيجنى نوفجورود) ، ثم سافر معه على ظهر سفينة واحدة عبر نهر الفولجا !

ولم يخطىء ميشيل ستروجوف ، فقد كان الرجال الثلاثة : شخصا واحدا ! ففي ثياب الغجر التنكرية استطاع ايفان اوجاريف ان يندس ضمن رهط « سنجار » ويعبر اقليم نيجنى نوفجورود ، حيث كان قد ذهب ليبحث بين

الاجانب الكثيرين الذين يجلبهم المعرض من آسيا الوسطى عن رجال موالين له يعينونه على اتمام خطته الجهنمية ، وكانت « سنجار » ورهطها من الغجر خاضعة لأوامره ، وقد اعانته الصادقة والجراة فاستطاع الوصول الى اومسك قبل غريمه بثلاثة ايام ، ولولا الحادثان اللذان اعاقا ستروجوف في الطريق لاستطاع ان يسبق غريمه الى اركوتسك !

ومهما يكن من شيء ، فقد رأى ستروجوف ان يفر من وجه ايفان اوجاريف باسرع ما يستطيع ، وبأى ثمن ! .. ومن ثم فقد عمد ودليله الى اختراق المدينة حتى بلغا محطة البريد ، وفي عزم الشاب ان يغادر أومسك من خلال احدى الثغرات متدثرا بالليل البهيم . ولم يكن ستروجوف بحاجة الى شراء عربة كاملة ، بعد ان انفصلت عنه نادية ، وكان ذلك في صالح مهمته نظرا الى استحالة العثور على عربة هناك في تلك الظروف . وهكذا قنع بجواد واحد كي يقطع على ظهره المسافة الباقية .. ووجد الجواد المنشود ، ولكن بعد ان دفع فيه ثمنا فاحشا .. وبعد دقائق ـ وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر ـ كان على تمام الاهبة للرحيل ، لا يعوزه غير انتظار هبوط الليل كي يستعين به على التسلل من احدى ثغرات المدينة !

ولما لم يكن ينبغي أن يظهر في شوارع اومسك في الفترة الباقية على حلول الظلام ، فقد آثر البقاء في محطة البريد حيث تناول شيئا من الطعام ، وكانت ردهة المحطة تموج حينذاك ـ شأن المحطات الروسية ـ بجماهير الاهالى القلقين الذين يبغون استطلاع الأنباء . وسرت بين الحاضرين شائعة مؤداها أنه ينتظر وصول فيلق من جيش موسكو الى تومسك في أقرب فرصة لاسترداد المدينة من أيدى التتار اتباع فيوفار خان ، فأرهف ميشيل ستروجوف سمعه لكل ما يدور من الأحاديث ، ولكنه حرص على عدم التدخل فيها . وفجأة سمع صرخة جعلت الدم يكاد يجمد في عروقه ، صرخة تغلغلت الى اعماق روحه ، صرخة تقول في لوعة : « ابني ! » واذا أمه العجوز « مارفا » واقفة أمامه وجها لوجه ! .. وابتسمت له وهي ترتجف ، ومدت اليه ذراعيها .. فنهض من مقعده وهم بأن يرتمي عليها !

لكن احساسه بالواجب ، وبالخطر الجدى الذى تتعرض له امه ويتعرض له هو نتيجة هذا اللقاء الذى يؤسف له ، أوقفه فجأة . وبلغ من سيطرته على اعصابه أن عضلة واحدة في وجهه لم تختلج . وكان الموجودون في ردهة المحطة نحو عشرين ، لعل منهم الجواسيس الذين يعملون لحساب الأعداء ، وأكثر أهل البلدة يعلمون ولا شك ان ابن مارفا ستروجوف يعمل في فرقة رسل القيصر .. وعلى ذلك لم يتحرك ميشيل ستروجوف قيد أنملة !

وعادت الأم تهتف به : « ميشيل ! »

فغمغم الشاب في جرأة : « من أنت ، يا سيدتي الشجاعة ؟ »

ـ من انا ؟ اتسألني يا طفلي الحبيب ؟ الم تعد تعرف امك ؟

ـ أنت مخطئة يا سيدتي .. لابد أن شبها ما قد أحدث لك لبسا !

فاقتربت المرأة منه أكثر ، وقالت له وعيناها في عينيه :

ـ السنت ابن بيير ومارفا ستروجوف ؟

وود ميشيل لو دفع حياته كلها كي يستطيع أن يضم أمه الحبيبة الى صدره .. لكنه لو استسلم لعاطفته لقضى على نفسه وعليها وعلى مهمته . فأغمض عينيه ليتجنب اللوعة الموجعة التي بدت في نظرات أمه ، وسحب يديه الى جانبه حتى لا يلمس اليدين المرتجفتين اللتين تتهافتان عليه . ثم قال وهو يتراجع خطوات :

ـ لست أدري في الحقيقة ماذا تريدين أن تقولي يا سيدتي الطيبة

ـ ميشيل !

ـ لست أدعى ميشيل ، ولم أكن يوما ابنك . انا نيقولا كوربانوف تاجر من اركوتسك

وغادر الردهة بغتة وصدى صيحات الأم يتردد في سمعه : « ابني ! .. ابني ! .. »

وغادر الابن المحطة قبل ان يرى أمه وهي تتهاوى على مقعد هناك وهي كالمغشي عليها .. ولكن في اللحظة التي هم فيها الناظر بأن يخف لاسعافها ومض في وعيها خاطر مباغت : ليس من المعقول أن ينكرها ابنها ويتنكر لها . وكذلك ليس معقولا أن تكون مخطئة في معرفته .. واذن فهو ابنها لا محالة ، ولا بد انه تعمد ألا يظهر ذلك قياما بواجبه .. نعم لا بد أن أسبابا رهيبة دفعته الى أن يتصرف على هذا النحو .. وأمام هذا الادراك المباغت نهضت من مكانها متحاملة على نفسها وفي ذهنها فكرة واحدة : « هل فقدته دون أن أتنبه ! .. »

وحين سألوها عن جلية الأمر تعمدت أن تجيب : « انني أوشك أن أجن . سوف ينتهي بي الأمر الى أن أراه في كل مكان . ان عيني قد خدعتاني . انه ليس ابني . ليس له صوته ، فلأكف عن التفكير في الأمر ! »

ولكن لم تنقض عشر دقائق حتى أقبل على محطة البريد ضابط من التتار يسألها : « هل أنت مارفا ستروجوف ؟ » . فلما أومأت برأسها موافقة ، أمرها بأن تتبعه ، وقادها بخطى ثابتة الى حيث مثلت في حضرة الكولونيل ايفان أوجاريف ، ليستمع منها الى تفصيل ما حدث ، وكان قد ساورته الشكوك على أثر علمه بالحادث فور وقوعه وطلب أن يستجوب المرأة بنفسه . وسألها بلهجة جافة : « اسمك ؟ » . قالت : « مارفا ستروجوف »

قال : « هل لك ابن ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « أهو يعمل في فرقة رسل القيصر ؟ » . قالت : « نعم »

فسألها : « أين هو الآن ؟ » . قالت : « في موسكو »

قال : « ألا تأتيك أنباء منه ؟» . قالت : «ألم أتلق أي نبأ منه منذ شهرين »

وهنا سألها : « من يكون اذن ذلك الشاب الذي دعوته ابنك منذ لحظات في محطة البريد ؟ »

فقالت على الفور : « انه سيبيري شاب حسبته هو ، وهذه هي المرة العاشرة

لوقوعي في مثل هذا الخطأ منذ امتلأت المدينة بالأجانب .. يخيل الي انني أراه في كل مكان ! »

فقال : « اذن لم يكن ابنك ميشيل ستروجوف هو ذلك الشاب ؟ » . قالت : « لا .. لم يكن هو مع الأسف يا سيدي ! »

قال : «أتعلمين أيتها الشمطاء أنني أستطيع تعذيبك لكي تعترفي بالحقيقة؟»

فقالت : « لقد ذكرت الحقيقة .. والتعذيب لن يجعلني أغير أقوالي »

فعاد يسألها : « اذن أنت مصرة على أن ذلك الشاب ليس ميشيل ستروجوف ؟ »

فقالت : « نعم يا سيدي ، وما كنت لأنكر الحقيقة لو أنه كان ابني ! »

فحدجها أوجاريف بنظرة شريرة ، ودار في ذهنه خاطر أزعجه .. لئن كان الشاب هو ميشيل ستروجوف ، وقد أنكر أمه كما أنها أنكرته أيضا ، فلا بد أن أسبابا خطيرة هي التي دفعتهما الى ذلك التصرف ، واذن لا يبعد أن يكون نيقولا كوربانوف المزعوم هو ميشيل ستروجوف متنكرا باسم زائف كي يؤدي مهمة كلفه بها القيصر ! .. ومن ثم لم يتردد ايفان في اصدار الأوامر بتعقب الشاب . ثم أردف مشيرا الى العجوز الواقفة أمامه : « ولتؤخذ هذه العجوز الى تومسك ! »

وبينما كان الجنود يقتادونها بوحشية ، أضاف وهو يصر على أسنانه : « عندما تحين الساعة ، سوف أعرف كيف أجعلها تتكلم ، هذه الحيزبون الشمطاء ! »



فى مستنقعات لابرابا

أحسن ستروجوف صنعا بمغادرة محطة البريد على الفور ، اذ لم تنقض دقائق حتى أصدر ايفان أوجاريف أوامره الى جميع السلطات فى أومسك بالحيلولة دون خروج ميشيل من المدينة . لكنه فى ذلك الوقت كان قد نفذ من احدى ثغرات أومسك الى العراء وراح ينهب البرارى بجواده السريع !

كان ذلك فى الساعة الثامنة من مساء ٢٩ يوليو ، وكانت أومسك تقوم فى منتصف الطريق بين موسكو وأركوتسك ، ومن ثم كان فى استطاعته أن يصل الى هدفه خلال عشرة أيام اذا أراد أن يسبق قوات التتار . ولم يبق لديه شك فى أن لقاءه المشئوم بأمه قد فضح تنكره ، وان ايفان أوجاريف قد عرف أن رسولا من قبل القيصر قد غادر أومسك فى طريقه الى اركوتسك . ولما كانت الرسالة التى يحملها على جانب كبير من الأهمية، فقد أدرك ميشيل ستروجوف أن غريمه سيبذل كل ما فى وسعه كى يتخلص منه

لكن الذى لم يعرفه ، وما كان ليعرفه ، ان أمه مارفا ستروجوف قد أخذت رهينة فى يد أوجاريف ، وانها قد تدفع حياتها ثمنا لعجزها عن ضبط مشاعرها حين التقت بابنها وجها لوجه ! .. وكان من حسن حظ ستروجوف أنه لم يعلم بهذه الحقيقة ، والا ما كان فى استطاعته أن يصمد لمثل هذه المحنة الجديدة !

واستحث ميشيل جواده ، بأقصى ما وسعه من لهفة محمومة ، غير طامع الا فى شىء واحد ، هو الوصول الى أقرب محطة فى أسرع وقت ، كى يستبدل بجواده وسيلة أخرى أسرع منه !

وفى منتصف الليل كان قد قطع سبعين فرسخا ، وتوقف فى محطة « كوليكوفو » لكنه لم يجد هناك عربة ولا جوادا . فان فصيلة من التتار كانت قد عبرت المنطقة فنهبت وسرقت أو صادرت كل ما وجدته سواء فى القرى أو محطات البريد ، على انه استطاع أن يحصل بأقصى مشقة ، على بعض الطعام له ولجواده، وقد اضطر الى العناية به جهد طاقته نظرا الى الظروف التى أرغمته على أن يلقى عليه كل اعتماده فى بلوغ غايته .. وفى أثناء ذلك ، ورغبة فى اطالة المسافة التى تفصل بينه وبين من قد يرسلهم غريمه للحاق به ، لم يجد بدا من اختزال فترة راحته واستئناف سفره بعد ساعة واحدة من وصوله الى تلك المحطة

وحتى تلك اللحظة كانت الأحوال الجوية قد يسرت رحلة رسول القيصر ، فدرجة الحرارة محتملة ، والقمر يضىء الليل من خلال السحب .. وهكذا

مضى ميشيل ستروجوف بسرعة الواثق من الطريق دون أدنى تردد أو شك أو تريث . وبرغم الأفكار الموجعة التى كانت تلح عليه ، احتفظ بقوة العزيمة والروح المعنوية،واندفع نحو هدفه كما لو كانذلك الهدف مرئيا عند الأفق ، وحين كان يتوقف لحظة عند منعطف من الطريق ، فذلك ليمكن جواده من أن يسترد أنفاسه .. فكان يترجل عنه كي يريحه برهة وينبطح أرضا ليتسمع بأذنه ما قد تردده الأرض من صدى لركض الجياد التى قد تكون فى مطاردته .. حتى اذا لم يسمع ما يحقق مخاوفه انتعش تفاؤله وانطلق من جديد يحدوه الأمل العريض !

وفى الساعة التاسعة من صبيحة ٣٠ يوليو جاوز ستروجوف محطة « توروبوف » والتى تقع فى اقليم مستنقعات « لابرابا » الذى يمتد مسافة ثلاثمائة فرسخ تتضاعف خلالها العوائق الطبيعية . لكنه كان يثق سلفا من أنه سوف يتغلب على تلك العوائق أيضا !

انطلق ستروجوف بجواده وسط البرارى المكسوة بأعشاب يبلغ ارتفاعها بعض البقاع حوالى ستة أقدام ، وكانت ترعى هذه الأعشاب قطعان لا أعداد لها من أغنام سيبيريا . والرطوبة والحرارة تتعاونان على انبات تلك الأحراش ذات الارتفاع الجبار . وفيما هو يركض بينها كانت أسراب الطيور تفر من أمامه مذعورة الى عنان السماء ، وفيما عدا تلك العلامة المميزة لم يكن الناظر من طريق المستنقعات الخارجى يستطيع أن يراه أو يلمح له أثرا ! وكانت تتخلل المنطقة بضع مساحات مربعة يمكن أن يطلق عليها تجاوزا اسم « بحيرات » .. وكان من العسير على المسافر فى بعض المناطق أن يتجنب المياه الآسنة ومستنقعات الصلصال المتحركة وسطها ، حيث كانت بعض المسافرات من الجنس اللطيف يعانين وهن يعبرنها فى عرباتهن نوعا رهيبا من دوار البحر !

أما ميشيل ستروجوف فقد كان يركض جواده دون توقف سواء أكانت الأرض صلبة أم رخوة تميد تحت حوافر الجواد ، وكان يقفز فوق الثلمات الفاغرة أفواهها فى بقع شتى من الطريق ، ويشق أمواج البعوض والحشرات التى تملأ الهواء فوق المستنقعات الراكدة ، منطلقا كالشهاب الطائر ، وأسعفه جواده الجموح الذى كأنما أدركته غضبة جنونية من فرط التعب والارهاق فاندفع يطوى الطريق طيا فى سرعة خارقة لعل حماسة السرعة تنسيه تعبه الطويل ! وبلغ من جموحه انه كاد يعرض حياة راكبه للخطر لو لم يكن متمكنا من ظهره ، بارعا فى امتلاك صهوته ، لا سيما فى لحظات وثباته الفجائية أو قفزاته العالية !

وما كان ليدور بخلد أحد أن منطقة مستنقعات لابرابا هذه ، بجوها اللافح وحشراتها وهوامها ، تصلح مأوى لأية فئة من الناس . ولكن الواقع أنها لم تكن خالية من السكان ، وكانت تبدو خلالها على مرمى البصر هنا وهناك بضع قرى متناثرة مأهولة برجال ونساء وأطفال وشيوخ قد ارتدوا جلود الحيوان وراحوا يرعون قطعانا هزيلة من الأغنام والماشية .. ولكن يحمونها من لدغ

الهوام كانوا يشعلون حولها مواقد من الخشب يغذونها بالوقود ليل نهار ويمتد دخانها سحبا تغطى رقعة شاسعة من الأرض المحيطة بالقرية !

وعندما أحس ميشيل ستروجوف أن جواده الذى أنهكه التعب يوشك أن ينهار فجاة ، توقف فى قرية من تلك القرى وجعل يدلك سيقان الجواد بالشحم الساخن كما هى عادة أهل سيبريا ، فلما فرغ من ذلك أعد وليمة شهية من الكلأ للجواد ، وبعد أن اطمأن الى انتعاشه ذكر نفسه فتناول قطعا من الخبز واللحم وشرب بضعة أقداح من « الكفاس » ، كى يستطيع أن يستأنف رحلته الى اركوتسك بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر ..

وهكذا ، فى الساعة الرابعة من مساء يوم ٣٠ يوليو ، بلغ « ايلامسك » بعد أن قطع تسعين فرسخا منذ « توروموف » .. وهناك صار لزاما عليه أن يمنح جواده راحة ليلة كاملة ، بعد أن تعذر عليه أن يجد جوادا غيره يكمل به رحلته

وكانت ايلامسك بلدة صغيرة لم يصل اليها التتار الغـــزاة بعد ، ولكنها بدت أشبه بالمهجورة ، لأن غزوها كان سهلا من الشمال ، وكان من الصعب انجادها من الجنوب ، ولذلك صدرت الأوامر باخلاء محطتهـــا ودور الحكومة والبوليس فيها ، فنزح عنها موظفوها ، فى الوقت الذى هاجر فيه أهلهـــا فارين الى بلدة كامسك الواقعة فى قلب منطقة مستنقعات « لابرابا »

واضطر ميشيل ستروجوف الى الاذعان لحكم الظروف التى قضت بأن يبيت ليلة فى ايلامسك ، وذلك ليريح نفسه وجواده ! وفى صباح اليوم التالى غادر البلدة فى اللحظة التى لاحت فيها طلائع التتار على بعد عشرة فراسخ . والقى بنفسه مرة أخرى فى غمرة المستنقعات الآسنة ، لكن الطريق الذى امتد أمامه كان أيسر من الطريق الذى خلفه وراء ظهره ، وان يكن أكثر تعرجا !

وفى ظهر اليوم التالى ـ أول اغسطس ـ بلغ الشاب محلة « سباسكاو » بعد أن قطع مائة وعشرين فرسخا . وفى الساعة الثانية وصل الى « بوكروفكاو » فاستراح فيها بعد أن عجز جواده المسكين عن حمله فرسخا واحدا آخر !..
ثم اضطر الى أن يقضى فى المحلة الساعات الباقية من اليوم ثم الليلة كلهـا . وفى الصباح استأنف رحلته فوق أرض نصف مبللة ، فبلغ كامســـك فى الساعة الرابعة مساء ، بعد أن قطع خمسة وسبعين فرسخا أخرى !

وكانت معالم البلاد قد تغيرت ، فان كامسك الشبيهة بجـــزيرة صالحة للسكنى تقع فى مركز المستنقعات غير الصالحة ، لكنها بفضل ريها من فرع ارتيش الذى يطلق عليه هناك نهر « توم » قد تحولت الى سهل من الخضرة عامر بالخيرات !.. ولم تكن حمى الهجرة التى أشعلها غزو التتار قد أدركت سكان هذه البلدة الصغيرة فأخرجتهم بدورهم منها . ولعل هذا لأنهم حسبوا بلدتهم آمنة بحكم توسطها منطقة المستنقعات ، أو لأنهم حسبوا الوقت ما زال متسعا أمامهم للفرار حين يقترب منهم الخطر !

ولم يستطع ميشيل ستروجوف أن يزود هناك بأى نبأ هام ، فقد كان على يقين من أن الحاكم لن يحجم عن القبض عليه لو عرف حقيقة أمره . ومن ثم

حرص على عدم الظهور فى البلدة ، بل لقـــد ود لو يمكنه أن يصير من غير المرئيات !.. ولا سيما بعد الدرس القاسى الذى تعلمه فى أومســـك . ومن هنا اعتزم الا يبرح الحانة التى يقيم بها قط !

وكان فى وسعه أن يعثر فى كامسك على عربة مريحة يستبدل بها جواده المتعب ، لكنه خشى أن يلفت شراؤه العربة أنظار ذوى الشأن اليه ، فرأى أن يبقى مختبئا فى الحانة التى اختارها لقضاء ليلته

وبعد أن اطمأن الى العناية بجواده من حيث المأكل والمشرب أوى الى فراشه وسرعان ما استغرق فى النعاس ، بعد أن هده التعب . لكن نومه كان متقطعا ، مليئا بالذكريات وأســـباب القلق والانزعاج . وقد تراءت له صورة أمه العجوز ، كما تراءى له وجه « نادية » التى خلفها وراءه بلا حام ولا نصير . ثم تعاقبت على ذهنه ذكريات المهمة التى أقسم ليقومن بها ، والتى زاده اقتناعا بأهميتها الخطيرة كل ما رآه منذ غادر موسكو . وحين وقع بصره على الخطاب المختوم بخاتم القيصر ، وهو بلا شك يتضمن علاجا لكثير من الشرور ، ونجدة عاطرة منه لشتى الأقاليم التى مزقتها الحرب .. أحس برغبة ملحة فى أن يهب من فراشه ينهب البرارى نهبا ويقطع المسافة التى تفصله عن اركوتسك

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى استأنف ستروجوف رحلته ، وفى عزمه أن يقطع الثمانين فرسخا التى تفصل بين كامسك وقرية « اوبنسك » .. وبعد أن قطع عشرين فرسخا بلغ مستنقع (بارابا) الذى كانت تربته ما تزال غارقة تحت مياه عمقها نحو القدم ، فكان عسيرا التعرف على الطريق .. لكن ستروجوف استطاع بفضل حذره الفائق أن يجاوز تلك المنطقة دون حادث ما . وحين وصل الى أوبنسك ترك جواده يستريح فترة الليل ، كى يستطيع فى اليوم التالى أن يجهز على المائة فرسخ التى تفصله عن ايكولسكاو

ورحل مع الفجر ، ولكن من سوء الحظ كانت أرض المستنقع تزداد سوءا كلما تقدم خلالهـــا ، نتيجة الأمطار الغزيرة التى غمرتهـــا فى الأسابيع السابقة . وعندما وصل الى بحيرة « تشـــانيع » قاسى الأمرين فى عبورها مسافة عشرين فرسخا ، وحمد الله لانه لم يستأجر عربة فى محطة كامسك ، فقد مر جواده خلال عوائق لم تكن أية عربة لتستطيع عبورها !

وفى نحو الساعة التاسعة من ذلك المساء وصل ستروجوف الى ايكولسكاو حيث قضى ليلته . وفى تلك البلدة الضائعـة وسط المستنقعات كان الناس مفتقرين الى أنباء الحرب الحقيقية التى تجوا من ويلاتها

لكن العقبات الطبيعة كانت تؤذن بالتضاؤل فى المرحلة التالية من الطريق ، بحيث قدر ستروجوف أن ينتهى من أرض المستنقعات فى نهاية اليوم

وأخيرا ، قرب الساعة الثالثة والنصف مساء ، بعد أن جاوز ستروجوف محطة « كاجارتسك » ، ودع آخر حدود اقليم مستنقعات « لابرابا » ، وعادت أرض سيبريا الصلبة الجافة تردد وقع حوافر جواده السريع !

لقد غادر موسكو يوم ١٥ يوليو .. وها هو ذا فى اليوم العاشر من أغسطس .. وبقى أمامه كى يصل الى أركوتسك ألف وخمسمائة فرسخ !

محاولة أخيرة

كان ميشيل ستروجوف محقا فى خشيته أن يلقى خطرا فى السهول الممتدة وراء مستنقعات (لابارابا) . فقد كانت آثار حوافر الجياد على ارض الطريق تدل على ان التتار مروا بها ، وهم الذين يصح فيهم ما قيل فى الترك من أنهم حيث يمرون لا ينبت عشب فى المستقبل !.. وهكذا كان على ميشيل ستروجوف أن يأخذ جانب الحيطة والحذر الشديدين وهو يعبر تلك المنطقة ، وكان الدخان المتكاثف فى الافق ينبىء بأن القرى والبلاد التى احرقها التتار ما تزال مشتعلة . ولم يجد الشاب شخصا واحدا يقص عليه حقيقة ما حدث ، فقد كانت المنطقة مهجورة قفراء !

وبعد أن قطع فرسخين فى ذلك الطريق المهجور ، رمى ببصره يمينا وشمالا بحثا عن بيت واحد بقى فيه أهله ، واخيرا عثر على كوخ مختف بين الاشجار ، والنار ما تزال مشتعلة فيه .. فلما اقترب منه رأى على بعد خطوات من حطام البيت شيخا يحيط به صبية ينتحبون ، وامرأة ـ هى ابنة الشيخ وأم الصبية ولا شك ـ جالسة تحدق فى بقايا بيتها المحترق ، وهى ترضع من ثديها طفلا صغيرا بين ذراعيها .. وكل شىء حول الأسرة التعسة حطام وخراب !

واتجه ستروجوف الى الشيخ ، وسأله : « أتستطيع ان تجيبنى الى ما أسأل ؟ » . فقال له الشيخ : « تكلم »

قال : « هل مر التتار من هنا ؟ » . قال : « نعم »

قال : « الم تعلم شيئا عن مصير مدينة كوليفان ؟ »

فقال : « ما دامت كوليفان لم تحترق بعد ، فالتتار لم يدخلوها ! »

فشكره ستروجوف ، ثم ودعه ومضى بعد ان واساه ببعض عبارات العزاء ، ووضع خمسة وعشرين روبية على ركبتى زوجته المسكينة !

واستأنف ستروجوف رحلته مستحثا جواده ، وهو شديد الحرص على ان يتجنب المرور على تومسك ، وان يمضى قدما الى كوليفان حيث لم يصل التتار بعد ، ثم يعبر نهر اوبى ويخرج عن طريق اركوتسك كى يدور حول تومسك

وبعد ان أستقر رأيه على تنفيذ هذه الخطة لم يعد لديه وقت يضيعه او مجال للتردد ، فلكز جواده وانطلق نحو الطريق المؤدى الى الضفة اليسرى لنهر اوبى ، وهى على بعد حوالى اربعين فرسخا ، واخذ يتساءل : ترى هل هناك

« معدية » تعبر به النهر ام ان التتار قد اتلفوا كل شىء ، وعندئذ يتعين عليه ان يعبر النهر سابحا ؟

اما جواده فكان لا بد من استبدال جواد آخر به فى محطة كوليفان ، والا نفق منه اثناء سيره . وكانت كوليفان فى نظره بداية مرحلة جديدة من الطريق تتغير بعدها ظروف السفر

وحل المساء ، بعد يوم قائظ ، وفى منتصف الليل رانت على السهول ظلمة ثقيلة ، وسكنت الريح منذ غربت الشمس ، وساد الجو سكون شامل ، لم يكن يسمع خلاله غير وقع حوافر الجواد الرتيبة على الطريق المهجور ، وصدى الهمات التشجيع التى يخاطبه بها . وفى غمرة تلك الظلمة كان لا بد من يقظة تامة والا خرج المسافر من طريقه وضل فى السهول . وقد تقدم ميشيل ستروجوف نحو غايته بأقصى سرعة فى استطاعته ، ولكن فى حذر معقول ، معتمدا على ذلك بصره الحاد الذى يثقب الظلمة ، وغريزة جواده التى يعرف بها الطريق . وفى بقعة معتمة توقف ميشيل برهة وترجل عن جواده كى يستوثق من الاتجاه الصحيح ، وفى تلك اللحظة خيل اليه انه يسمع همهمة مختلطة صادرة من ناحية الغرب ، وكأنها دبيب بعيد على الارض الجافة !

وبعد قليل ، لم يبق لديه شك فى انه يسمع دبيب خطى منتظمة تضرب الارض وراءه بنحو فرسخ او فرسخين ! فأرهف سمعه بعد ان وضع أذنه على أديم الطريق ، وهمس محدثا نفسه : « انها فرقة من الفرسان قادمة من طريق أومسك .. وهى تسير مسرعة ، لأن الضجيج يزداد .. ولكن ترى هل هى من الروس ام التتار ؟ » .. ثم عاد يرهف سمعه وقد تحقق ان القادمين فرسان يركضون جيادهم ، ولن تمضى عشر دقائق حتى يدركوه فى موضعه اذ ان جواده لن يستطيع ان يسبقهم !

وقال ستروجوف لنفسه : « لو انهم كانوا روسيين لكان من السهل أن انضم اليهم ، اما لو كانوا من التتار فينبغى أن اتجنبهم ، لكن كيف اختبىء فى هذا السهل المكشوف ؟ »

ونهض وراح يتفرس فيما حوله ، فوقع بصره الثاقب على كتلة من الظل لا يتبين حقيقتها فى الظلام ، على بعد خطوات منه الى الامام ، الى يسار الطريق .. فقال لنفسه : « ها هنا اجمة .. فلأتخذ منها ملجأ أختبىء فيه . صحيح انهم قد يفتشون المكان ويضبطوننى ولكن ليس امامى مجال للاختيار ! »

وجر ستروجوف جواده الى الاجمة التى لاحت لعينه النفاذة فى الظلام ، فلما بلغها وجدها صغيرة فيها أشجار ومستنقعات .. فدخلها واخذ يجوس خلالها حتى وصل على بعد اربعين خطوة الى مجرى ماء يتعذر عبوره . فلم يجد بدا من الاختباء فى مدخل الاجمة ، مؤملا ان تحول كثافة الظلام دون أن يراه القادمون ، ما لم يفتشوا المكان بدقة !

وهكذا شد جواده الى شجرة مطلة على الغدير ، ثم عاد فاختبأ هو خلف تلة من الاعشاب والحشائش العالية ، ولم يكد يفعل حتى لمح ضوءا لامعا

يضطرب من بعيد ، ثم اقترب الضوء وازداد انتشارا فاذا هو صادر عن مشاعل تشق كبد الظلام !

وعند ذلك اجفل منفعلا كي يختبيء في اكثف موضع من الاجمة . وحينما اقتربت الجياد من الاجمة بدأت تطامن من خطاها وتتباطأ ، كأنما اعتزم الفرسان تفتيش الاجمة على ضوء مشاعلهم !. واضطر ستروجوف الى التراجع متجها نحو الغدير كي يغوص في باطنه اذا اقتضى الامر ذلك مبالغة في الاختفاء !

وبلغت فصيلة الفرسان الاجمة ، فتوقفت عن المسير .. وترجل فرسانها . وكانوا حوالي خمسين فارسا ، من بينهم عشرة يحملون المشاعل التي تضيء الطريق على نطاق واسع على ان ستروجوف ادرك من حركاتهم انهم لا يفكرون في تفتيش الاجمة ، وانما توقفوا كي يريحوا جيادهم ويتناولوا بعض الطعام ، فداخله غير قليل من الاغتباط والاطمئنان !

وبدأت الجياد ترعى الاعشاب الكثيفة التي تكسو الارض ، بينما انتشر الفرسان على مسافة طويلة من الطريق وراحوا يحتسون المؤن التي يحملونها ، واحتفظ ستروجوف بهدوء اعصابه ، وراح يتسلل بين الاعشاب العالية بحثا عن مكان يستطيع منه ان يرى ويسمع ما يدور !

كانت الفصيلة آتية من اومسك ، وهي تتألف من فرسان ينتمون الى اعرق سلالات التتار ، ويشبهون المغول في شكلهم ، وهم اقوياء البنية طوال القامة اكثر من المتوسط ، ذوو قسمات صارمة متوحشة ، ويضعون على رؤوسهم اغطية من جلد الاغنام الاسود ، وفي اقدامهم احذية صفراء عالية الكعب مدببة السن ، من طراز العصور الوسطى .. وعلى اجسامهم فراء مبطنة بالقطن ، وحول خصورهم احزمة من الجلد الاحمر . وكانوا مسلحين للدفاع والهجوم بخنجر وسيف وبندقية ، وعلى اكتافهم معاطف من الجوخ صارخ اللون !

اما جيادهم التي راحت تمرح في ارجاء المكان فكانت اصغر حجما من الخيول التركية لكنها تفوقها في القوة والجلد ، ولا تعرف غير الركض السريع . وكان يرأس الفصيلة قائد له مساعد يصغره في الرتبة ، وقد جلس الاثنان يدخنان « البنج » وهو نوع من الحشيش المنتشر في ارجاء آسيا ـ ويتحدثان معا بلغة التتار ، وكان ستروجوف يفهمها جيدا .. ولم تمض لحظات حتى ضاعف الشاب من ارهاف سمعه لحديث الرجلين ، فقد كانا يعنيانه بحديثهما وقال كبيرهما لمساعده :

ـ لا يمكن ان يكون الرسول قد سبقنا بمسافة طويلة .. كما انه لا يمكن ان يكون قد سلك طريقا آخر !

فقال المساعد : « لا احد يدري اهو قد غادر « اومسك » ام لا ؟ . ولعله مختبيء في احد بيوت المدينة ! »

فقال القائد : « هذا ما نتمناه حقا .. ولو صح هذا لما كان الكولونيل اوجاريف ان يخشى وصول الوثائق التي يحملها الرسول الى غايتها ! »

ـ يقولون انه من اهل سيبريا ، اي انه يعرف البلاد جيدا ، فاذا كان الامر

كذلك فيحتمل ان يكون قد خرج من طريق اركوتسك الى طريق آخر ، على ان يعود اليه في مرحلة تالية

ـ على اية حال فاننا نكون اسبق منه ، فقد غادرنا اومسك بعد اختفائه بساعة واحدة ، وسلكنا اقصر الطرق وباقصى سرعة .. واذن فهناك احتمالان : اما انه لم يغادر اومسك قط .. واما اننا سوف نصل الى تومسك قبله فنقطع عليه الطريق . وفي الحالين لن يبلغ اركوتسك !

وهنا قفز قلب ميشيل ستروجوف بين ضلوعه ، وارهف سمعه بينما قال القائد لمساعده : « نعم ، انها امرأة صلبة حقا ، وقد اصرت كل الاصرار على ان ذلك التاجر المزعوم ليس ابنها ، ولكن الكولونيل اوجاريف لا يسمح لأحد بان يخدعه . وسيعرف كيف يرغم الحيزبون الشمطاء على الكلام في الوقت المناسب »

وهكذا استمر الرجلان في حديثهما الحافل بالطعنات القاتلة لقلب ميشيل ستروجوف .. لقد عرفوا انه رسول القيصر ، وارسلوا فصيلة من الفرسان للحاق به وقطع الطريق عليه .. والافجع من ذلك ان امه وقعت رهينة في ايدي التتار ، وان ايفان اوجاريف القاسي يزمع ان يقسرها على الكلام حين يشاء .. وانها خير من يعلم ان السيبيرية الباسلة لن تتكلم ، واذن فهي لا بد ستدفع حياتها ثمنا لنجاته !

ولم يكن ستروجوف يتصور انه يستطيع ان يمقت ايفان اوجاريف اكثر مما كان يمقته .. لكن موجة من الكراهية العنيفة تنبت الآن في قلبه اضعافا مضاعفة !.. فان الاثم الذي خان بلاده يهدد الآن بتعذيب امه !

وخلال الحديث الذي استمر بين الضابطين ادرك ستروجوف ان قتالا عنيفا قد نشب في ضواحي « كوليفان » بين القوات الروسية القادمة من الشمال وقوات التتار .. وان جيشا روسيا صغيرا مؤلفا من نحو الفي جندي يزحف الآن صوب اومسك .. وانه لو اشتبك مع جيوش (فيوفار خان) الجرارة فلن يكون مصيره غير الابادة التامة !.. ثم ان طريق اركوتسك قد بات كله في قبضة الغزاة .. واخيرا علم ان راسه هو قد وضع في كفة ميزان ، يقابلها على الكفة الاخرى مبلغ ضخم من المال ، وان الاوامر قد صدرت بالقبض عليه حيا او ميتا . ومن ثم فان الضرورة الملحة تقتضيه ان يسبق فصيلة مطارديه الى طريق اركوتسك ، وان يعبر نهر « اوبي » قبلهم .. ولهذا ينبغي ان يفر قبل ان تنتهي فترة راحة الفرسان في العراء !.. وحين انتهى ميشيل ستروجوف الى هذا العزم ، شرع في تنفيذه فورا !

ولم يكن مقدرا ان تطول راحة الجنود اكثر من ساعة واحدة .. برغم ان جيادهم لم تستبدل منذ غادروا « اومسك » وبرغم التعب الذي حاق بهم من فرط انهاك اجسامهم طيلة الايام الماضية

وكانت الساعة حوالي الاولى صباحا .. اي انه ينبغي ان يستغل فترة الظلام الباقية قبل مطلع الفجر كي يتسلل من الاجمة التي يختبيء فيها ويواصل رحلته . لكن خطة كهذه تبدو مستحيلة ، ومن ثم تريث الشاب برهة يفكر في

جميع الاحتمالات ، قبل ان يتورط في تصرف متسرع .. ان عبور الغدير الصغير امر متعذر ، وذلك نظرا لعمقه واتساع مجراه ، فضلا عن ان الارض التي تليه لينة يصعب معها الركون الى فرار عاجل .. ولو ان الاعداء شعروا به لاطلقوا النفير ولحقوا به فورا كي يعيدوه اسيرا مكبلا بالاغلال !

والآن فليس امامه غير طريق واحد ، هو الطريق الرئيسي . عليه ان يتسلل الى حيث ربط جواده ، ويعبر به ربع فرسخ حتى يبلغ نهاية الاجمة ، دون ان يحدث صوتا يلفت اليه الاسماع او الانظار .. ثم ينطلق به في سكون محتميا بالظلام حتى يبلغ ضفة نهر اوبي ، وهناك يغلب ان تنهار قوى جواده المسكين، ولكن لا باس ، فهو يستطيع ان يعبر النهر سابحا او في « معدية » . ثم يبحث لنفسه عن وسيلة عاجلة لاستئناف رحلته

وكان في طبع ستروجوف ان الخطر يذكي نشاطه وشجاعته ، هذا لاهمية النتائج التي تتوقف على نجاحه في مهمته .. فهناك حياته ، ورسالته وشرف بلاده ، وحياة امه .. والآن فليس له ان يتردد لحظة اخرى !

وكانت الحركة قد بدأت تدب في معسكر الفصيلة ، واخذ بضعة من الفرسان يروحون ويغدون على حدود الطريق امام الاجمة .. بينما تبع الباقون ليستكملوا راحتهم وقد تجمعت جيادهم شيئا فشيئا في الجزء الاوسط من الاجمة ففكر ستروجوف في الاستيلاء على احد تلك الجياد ، لكنه حدث نفسه بانها لا بد منهكة مثل جواده ، وخير له اذن ان يعتمد على جواده الذي لم يخذله والذي ادى له خدمات جليلة . وهكذا زحف على الاعشاب حتى وصل الى جواده الذي كان راقدا على الارض ، فربت جسمه وحثه في رفق حتى جعله ينهض دون جلبة . وفي تلك اللحظة ساعدته الظروف اذ استهلكت المشاعل وقودها فانطفأت ، وسادت ظلمة كاملة ، فجذبه الشاب في هدوء ، وادرك الجواد ما يراد منه فتبع سيده بغير ان يحدث ادنى صوت !، ووضع ميشيل ستروجوف يده على غدارته ، متاهبا لتحطيم راس اول فارس من التتار يقترب منه .. لكنه لحسن الحظ استطاع الوصول الى الطريق العام بغير ان ينتبه اليه احد !

وكانت خطته الا يمتطي صهوة الجواد الا بعد ان يقطع مسافة بعيدة ويجاوز منعطفا يقع على بعد مائتي خطوة من الاجمة

ولكن حدث في اللحظة التي كاد فيها يعبر سياج الاجمة ان جمح احد جياد الفصيلة متجها نحو الطريق العام ، فجرى صاحبه خلفه ليستعيده ، واذ ذاك لمح شبحا يبدو على ضياء الخطوط الاولى من الفجر ، فصاح منذرا رفاقه .. ولم يكد هؤلاء يسمعون الصيحة حتى وثبوا وثبة رجل واحد وهرعوا الى الطريق .. فلم يجد الشاب بدا من ان يمتطي جواده وينطلق به باقصى سرعة .. وفي اللحظة التالية احس برصاصة تخترق فراء معطفه ، لكنه لم يدر راسه ولم يجب على الطلقة ، وانما انطلق في اتجاه نهر اوبي .. وكان لا بد ان يتبعه اعداؤه فلم تمض دقيقتان حتى سمع جلبة الجياد المنطلقة في اثره ، واخذت تقترب منه شيئا فشيئا ..

وكان ضوء النهار قد بدأ ينتشر فيزيد الاشياء وضوحا ، فادار ميشيل ستروجوف راسه الى الوراء .. واذا هو يرى فارسا يجد في اثره ويقترب منه بسرعة كبيرة .. وعرف فيه مساعد قائد الفصيلة .. فسدد نحوه فوهة مسدسه ، ودون ان يتوقف اطلق عليه منه بيد ثابتة طلقة اصابت صدره فسقط يتدحرج على الارض !

لكن الفرسان الآخرين لم يتراجعوا ، بل كروا على الهارب دون ان يعبأوا بمقتل مساعد قائدهم ، وراحوا يستحثون جيادهم بمهاميزهم واقدامهم ليختزلوا المسافة التي تفصلهم عن طريدهم . لكن هذا استطاع ان يظل نصف ساعة بعيدا عن مرمى اسلحتهم ، وان احس بجواده يضعف تدريجا حتى لقد خشي ان يصطدم بعائق فيسقط الجواد ولا ينهض بعد ذلك !

وكان النهار قد اشرق تماما ، وان لم ترتفع الشمس بعد .. وهناك على بعد فرسخين على الاكثر بدا يظهر عند الافق خط شاحب تحف به بضع اشجار متناثرة .. انه نهر « اوبي » الذي يجري من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي . وظل فرسان التتار يطلقون رصاصهم على ستروجوف وهم يطاردونه بغير ان يصيبوه .. بينما ظل هو يطلق عليهم رصاص مسدسه فيصيب منهم في كل مرة فارسا يتهاوى على الارض جثة هامدة ، وسط صيحات الغضب والغيظ من رفاقه !

لكن تلك المطاردة لم تكن لتنتهي في صالح ستروجوف ، فقد انهارت قوى جواده اخيرا وكاد يتوقف عن الركض .. وفي الوقت الذي كانت فيه فرقة المطاردين لا تبعد عنه سوى خمسين خطوة الى الخلف .. وكان النهر في تلك الساحة مهجورا ليس فيه سفينة او ناقلة تصلح لعبوره .. فصاح ستروجوف يستحث جواده : « تشجع .. هيا .. محاولة اخيرة ! » .. وهوى بالجواد في النهر الذي كان عرضه في تلك المنطقة نصف فرسخ ، وكان التيار فيه قويا عنيفا بحيث يصعب عبوره ، فلم يكن من سبيل لبلوغ الضفة الاخرى سباحة بغير بذل مجهود يقرب من المعجزة !

اما فرسان التتار فقد وقفوا على ضفة النهر مترددين في الاقدام على المجازفة .. وفي تلك اللحظة تناول قائدهم بندقيته وصوبها الى الهارب ، الذي كان وقتئذ في عرض النهر ، فاصابت الطلقة الجواد دون صاحبه ، ولم يلبث ان غاص في قلب الماء تاركا صاحبه يستانف السباحة تحت الماء احتماء من رصاص مطارديه !



آبات .. وأغان !

استطاع ميشيل ستروجوف أن يواصل السباحة تحت الماء حتى بلغ الضفة اليمنى لنهر أوبى ، وهناك اختفى بين الاعشاب التى تكسوها حتى يسترد أنفاسه اللاهثة من فرط الاجهاد قبل أن يستأنف رحلته ماشيا ، دون جواده الأمين الذى استقر فى قاع النهر ؟

لقد وضع قدميه فى أرض دمرها الغزو ، ونهبتها طلائع الأمير فيوفارخان، وما زال بينه وبين بلوغ غايته هول كبير ..!

وهتف الشاب محدثا نفسه فى حماسة برغم عوامل التثبيط المحيطة به من كل جانب : « سأصل وحق السماء .. وليحفظ الله روسيا المقدسة ! »

وبعد أن استراح قليلا ، نهض متسللا حتى بلغ شجرة ليمون ضخمة فاستظل بظلها العريض .. وهناك ، فوق الارض الصلبة ، وجد الفرصة للتفكير فى الخطة التى يتبعها . وكان أول ما يسعى اليه أن يتجنب مدينة تومسك التى يحتلها التتار ، وأن يصل الى محطة او قرية يستطيع أن يحصل فيها على جواد يواصل به رحلته من غير الطريق المطروق ، الى ما بعد كراسنويارسك على أقل تقدير ، وبعدئذ يمكنه أن يسلك طريق اركوتسك العام دون أن يخشى شيئا . أما الآن فعليه قبل كل شىء أن يتجه شرقا

وبعد مسيرة فرسخين فى محاذاة مجرى نهر أوبى ، برزت أمامه بلدة صغيرة تقع على مرتفع من الارض ، بها بضع كنائس ذات قباب على الطراز البيزنطى ملونة باللونين الذهبى والاخضر .. تلك هى كوليفان ، المصيف الذى يحتمى فيه موظفو وأهال كامسك وغيرها من المدن القريبة من المستنقعات من قيظ بلادهم فى الصيف .. وكان ميشيل ستروجوف قد عرف من الاحاديث التى سمعها عفوا فى الأجمة أن البلدة لم تقع فى أيدى الغزاة ، الذين صرفوا همهم الى الاستيلاء على اومسك من اليسار ، وتومسك من اليمين ، مهملين البلدان التى تتوسطهما

وكانت الخطة التى رسمها بسيطة منطقية ، فهو بعد أن يصل الى كوليفان قبل الفرسان الذين يطاردونه سالكين اليها الضفة اليسرى للنهر ، يستطيع أن يجد الجواد والثياب وكل ما يحتاج اليه ثم يخترق السهول الجنوبية متجها الى طريق اركوتسك

وكانت الساعة حوالى الثالثة صباحا . وقد بدت ضواحى كوليفان هادئة هاجعة كالمهجورة ، فان سكان تلك الاقاليم ادركوا أنها لن تستطيع مقاومة الغزو فنزحوا عنها الى الاقاليم الشمالية ، فاتجه ستروجوف يخطى حثيثة

صوب المدينة ، لكنه ما كاد يقطع خطوات حتى سمع دوى انفجارات بعيدة آتية من هناك ، فتوقف برهة يتسمع الاصداء التى لم تكن أذنه لتخطىء فهمها وهمس لنفسه : « انها مدافع وطلقات بنادق .. ترى هل اشتبكت الحامية الروسية مع جيش التتار ؟.. آه ، ليت السماء تمكننى من أن أصل الى كوليفان قبلهم ! »

ولم يخطىء الشاب ، اذ لم تنقض دقائق حتى ازدادت الانفجارات واقتربت شيئا فشيئا .. وفى المؤخرة ، الى يسار البلدة ، تكاثفت الأبخرة فوق الارض ، نتيجة طلقات المدفعية

وعلى الضفة اليسرى للنهر توقف فرسان المطاردة فى انتظار معرفة نتيجة المعركة الدائرة .. وهكذا لم يبق امام ميشيل ستروجوف ما يخشاه فى هذا الصدد ، فاستحث خطاه صوب المدينة ... بينما كانت الانفجارات تتوالى وتتضاعف وتقترب ، والأدخنة تتصاعد فى الجو بفعل الريح ، وكان واضحا أن المقتتلين يتجهون مسرعين صوب الجنوب ، وان كوليفان سوف تهاجم فى القريب العاجل . ولكن ، ترى هل يدافع الروس عنها ضد الغزاة ؟.. فكر فى هذا طويلا بغير أن يصل الى نتيجة يطمئن اليها !

وحين لم يبق على بلوغ كوليفان غير نصف فرسخ ، سمع ستروجوف طلقات نارية متتابعة تتردد بين منازل البلدة ، وتقوض برج احدى الكنائس وسط سحب من الغبار واللهب

هل انتقل القتال اذن الى داخل كوليفان ؟ ومن ثم اشتبك الخصمان فى صراع داخل المدينة ؟.. وهل من المناسب فى هذه الحالة أن يبحث عن ملجأ يأوى اليه ؟ أم أنه بذلك يعرض نفسه لخطر اعتقاله ؟. وهل ينجح فى الفرار من كوليفان كما فر من اومسك ؟ كل هذا كان يتردد فى ذهنه وهو يغذ السير الى المدينة ، مما جعله يتوقف قليلا ، محدثا نفسه بأن يتجه جنوبا نحو قرية « دياشنسك » أو سواها .. حيث يكون فى وسعه أن يحصل على الجواد المنشود ؟

ولكنه ما لبث أن ترك ضفة النهر اليمنى واتجه رأسا الى كوليفان . وكانت الانفجارات قد ازدادت عنفا ، ثم شبت النيران بعد برهة فى الناحية اليسرى من البلدة ، فابتلع اللهيب حيا كاملا من أحيائها ، وهو ما زال منطلقا يعدو عبر السهول ، محاولا الاختباء فى ظل الاشجار القليلة المتناثرة .. وفجأة ظهرت الى يمينه ثلة من الفرسان التتار ، وهنا لم يستطع مواصلة الفرار فى ذلك الاتجاه .. وكان الفرسان يتقدمون بسرعة نحو المدينة ، وبدا من العسير أن ينجو منهم . لكنه لمح عند زاوية أجمة كثيفة من الاشجار منزلا منعزلا بوسعه أن يبلغه قبل أن يراه أحد ، وسرعان ما خف اليه ، فقطع المسافة التى تفصله عنه وهى حوالى نصف فرسخ . وما كاد يبلغه حتى تبين انه مكتب للتلغراف ، يمتد منه سلكان الى الغرب والشرق ، وسلك ثالث الى كوليفان ، فوقف يسائل نفسه : ترى هل صاحب المكتب فى الظروف الراهنة هذه ؟ وهل يستطيع أن يلجأ اليه ، ويقضى ليلته فيه حتى يستأنف فى الصباح اختراق السهول التى تهددها طلائع التتار ؟!

ولم يطل به التفكير ، فاندفع صـــوب باب المبنى ودفعه بعنف ، فاذا فى داخله شخص واحد ، هو موظف هادئ قابع خلف مكتبه ، ويبدو غير عابئ بكل الأحداث التى تجرى فى الخارج

وسأله ستروجوف فى صوت حطمه الاجهاد : « ماذا تعرف عن الحالة ؟ »

فأجاب وهو يبتسم : « لا شئ ·· ! »

فقال : « ان الروس والتتار ملتحمون فى معركة » · فأجاب الرجل هادئا : « يقولون ذلك ! »

فسأله : « الا تعرف اى الفريقين انتصر على الآخر ؟ » · قال : « لست ادرى ! »

قال : « اليس الخط مقطوعا ؟ » · فقـــال : « انه مقطـوع بين كوليفان وكراسنويارسك ، لكنه موصول بين كوليفان والحدود الروسية »

قال : « وهو للمخابرات الحكومية وحدها طبعا ؟ » · فقال : « للمخابرات الحكومية فى الوقت المناسب ، وللجمهور حين يدفع الأجر ·· عشرة كوبيك عن كل كلمة ·· متى تريد استخدامه يا سيدى ؟ »

وأوشك ستروجوف أن يجيب هـــذا الموظف الغريب بأن ليس عنده أية برقية يريد ارسالها ، ولا يطلب غير قطعة من الخبز والماء ، ولكن الباب فتح فجأة بعنف ، فسكت وقد حسب أن التتار هجموا على المكتب وتأهب للقفز من النافذة · ولكنه تبين أن رجلين فقط هما اللذان دخلا ، وليس على وجهيهما سمات الجنود التتار ، بل كان أحدهما يمسك فى يده برقية مكتوبة بالقلم الرصاص ، تقدم بها متخطيا رفيقه نحو نافذة الموظف الجالس بلا حراك · وقد عرف ستروجوف فيهما شخصين ما كان يحسب أنه سوف يلتقى بهما بعد افتراقهم ·· انهما الصحفيان : السيد جوليفيه وهارى بلونت ·· وقد عادا سيرتهما الأولى قبل المهادنة : غريمين متنافسين على التقاط الاخبار !

كانا قد غادرا « ايشيم » بعد رحيله منها بساعات ، لكنهما بلغا كوليفان قبله ، برغم وحدة الطريق ، بسبب الايام الثلاثة التى فقدها على ضفة نهر ارتيش ·· والآن ، بعد أن اشتركا فى المعركة الدائرة عند مشارف المدينة بين جيش الروس والتتار ·· وبعد أن هجرا كوليفان فى الساعة التى تحولت فيها المعارك الى صراع فى الشوارع العامة ·· هرعا الى مكتب التلغراف كى يرسلا برقية الى صحفهما !

وكان ميشيل خلال ذلك واقفا فى ركن تخيم عليه الظلال ، يرى منه كل شئ ويستطيع أن يسمع كل شئ ، دون أن يراه أحد · وكان يتوق الى معرفة أحوال المنطقة وهل ينبغى أن يمضى الى كوليفان أم يتراجع عنها · واستطاع الصحفى الانجليزى أن يسبق زميله الى النافذة التى يجلس الموظف خلفها ، ومد اليه يده ببرقية أحصى هـــذا كلماتها ثم قال : « عشرة روبيات عن كل كلمة » ·· فكوم الصحفى امامه هرما من الروبيات ·· واذ ذاك بدأ الموظف يطير البرقية التالية وهو يتلوها بصوت مسموع : « جريدة الديلى تلغراف — لندن · من كوليفان ، التابعة لحكومة اومسك بسيبريا — يوم ٦ اغسطس —

اشتباك القوات الروسية والتتار ·· الطوابير الروسية تهدد بخسائر فادحة ، التتار يدخلون كوليفان اليوم · النار تشتعل فى كنيستين ·· الروس يفرون من المدينة ! » · وكان الصحفى الماكر يحشو البرقية بين كل عبارة وأخرى بفقرات وآيات من التوراة حتى يستطيع بمنظاره المكبر أنباء جديدة عن المعركة ، كيلا يترك النـــافذة لزميله الفرنسى اذا انقطع هو عن الاملاء ، وكيما تنفرد جريدته دون صحف فرنسا بأنباء الموقف !

لكن تأملاته بمنظاره المكبر طالت فى النهاية ، حتى فرغ الموظف من ارسال آخر كلمة من العبارة الاخيرة التى كتبها له ، فصار من حق الصحفى الآخر أن يملى رســالته ·· وتلا الموظف نصها كالآتى بعد الديباجة : « الروس يفرون من المدينة بعد هزيمتهم ·· الفرسان التتار يطاردونهم مطاردة عنيفة ·· » ثم شرع الصحفى يحشو البرقية بأبيات من أغان باريسية شائعة ، انتقاما من زميله الماكر !

وفى أثناء ذلك تفاقم الموقف حـول كوليفان · واقتربت المعركة وازدادت حدة الانفجارات وعنفها ·· ثم زعزعت مبنى التلغراف هزة شــديدة ، فقد اخترقت جـداره قنبلة أثارت عاصفة من الغبار والشظايا · واذ ذاك توقف جوليفيه عن املاء برقيته ، وتناول القنبلة بيديه قبل أن تنفجر ثم طوح بها من النافذة ·· كل ذلك فى أقل من دقيقة · ولكن لم تنقض خمس ثوان حتى انفجرت القنبلة فى الخارج ·· فاستأنف جوليفيه املاء رســالته لجريدته : « اخترقت قنبلة من عيار ٦ بوصات جدار مكتب التلغراف الذى أراسلكم منه ، ونحن فى انتظار قنابل أخرى من الطراز نفسه ! »

ولم يبق شك لدى ســتروجوف فى أن الروس قد طردوا من كوليفان · واذن فقد باتت فرصته الأخيرة أن يقطع السهل الجنوبى ·· وفى اللحظة التى كان هو يفكر خلالها فى هذه الخطة دوى انفجار هائل بقرب مكتب التلغراف ، وانقضت طلقات نارية الى داخله من النـــافذة فكسرت زجاجها ·· وأصيب الصحفى الانجليزى فى كتفه فسقط على الارض ، واذ ذاك ســارع زميله الى انتهاز الفرصة لاملاء خبر جديد نصه : « سقط هارى بلونت مراسل الديلى تلغراف الى جانبى ، على أثر انفجار شديد بالمكتب ! »

وهنـــا التفت موظف المكتب الى جوليفيه وقال له فى هدوء : « لقد قطع السلك يا سيدى ! » · ثم غادر نافذته ، وتناول قبعته فنفض عنها الغبار وهو يبتسم ، وخرج من باب جانبى لم يلاحظه ستروجوف من قبل !

وفى اللحظة التالية هاجم التتار مكتب التلغراف ، فهرع جوليفيه والبرقية المعيبة فى يده نحو زميله هارى بلونت ، الممدد على الارض مغشيا عليـــه ، وحمله فوق كتفه محاولا النجاة به فى بسالة وشهامة ، ولكن ·· كان الأوان قد فات ، ووقع الاثنان أســيرين ، وفى الوقت نفسه فوجئ ســتروجوف بالهجوم غير المتوقع ، فى اللحظة التى كان يحاول فيها القفز من النــافذة ، فأدركه المهاجمون ، ووقع هو الآخر أسيرا فى أيدى التتار !

في معسكر التتار

على مسيرة يوم كامل من مدينة كوليفان ، وعلى بضـــعة فراسخ من محلة « دياشنسك » ٠٠ يمتد سهل فسيح تشرف عليه أشجار الصنوبر والأرز ، ويرتاده عادة كل صيف رعاة سيبريا حيث يجدون المرعى الكافي لقطعانهم الجرارة

على أن احدا من هؤلاء الرعاة لم يفكر في ارتياد السهل ، لا لأنه أقفر من المراعي ، بل لأنه كان مزدحما الى درجة كبيرة بخيام معسكر التتار بزعامة فيوفار خان أمير بخاري

وهناك في السابع من أغسطس جلب التتار أسرى معركة كوليفان وبقايا الألفي جندي الذين كان يتألف منهم الفيلق الروسي الذي أبيد هناك ٠ ولم يكن ثمة أي أمل عاجل في النجاة بعد أن تطورت الأحداث ضـــد مصلحة الروس ، وفقدت حكومة القيصر سيطرتها على ما وراء جبـال الأورال ، ولو الى حين ٠ فتغلغل التتار في قلب سيبيريا ، وانتشروا في البلاد التي شاعت فيها الفتنة ، اما في اتجاه الولايات الغربية أو الشرقية

وكانت (اركوتسك) قد أصبحت مقطوعة الصلة بأوربا ، وما لم تدركها جيوش ولاية (اياكوتسك) وتحتلها في الوقت المناسب فلا مفر من أن تقع هذه العاصمة لروسيا الأســيوية في أيدي التتار ٠٠ وقبل أن يصبح في الوسع استردادها يكون الغراندوق شقيق القيصر قد أسلم الى يد خصمه ايفان أوجاريف لينتقم منه !

فماذا يصنع ستروجوف ؟ هل يذعن تحت ثقل التجارب الرهيبة التي مرت به ؟ هل يعتبر نفسه قد هزم نتيجة لتلك السلسلة من المصــادفات السيئة التي حاقت به منذ حادث ايشيم ؟ هل يدركه اليأس فيسلم بأنه خسر قضيته وفشل في مهمته واستحال عليه أن يتم رسالته ؟ !

لا شك في انه كان ممن لا يهدأون أو يهجعــون الا يوم يموتون ٠٠ لكنه حي ، لم يصب حتى بجرح ، ورسالة القيصر في طيات ثيابه سليمة من كل سوء ، وتنكره لم يفتضح وشخصيته ما زالت مجهولة ٠٠ ففيم اذن اليأس ؟ ٠٠

انه سيعتبر واحدا من هؤلاء الأسرى الذين يسوقهم التتار كقطيع من الماشية الى تومسك ٠٠ وباقترابه من تومسك يقترب في الوقت ذاته من اركوتسك ٠٠ ولسوف يسبق دائما غريمه ايفان أوجاريف ، وحين وصل في تفكيره الى هذا الحد همس لنفسه مرة أخرى قائلا : « نعم ٠٠ سأصل ! »

وهكذا كان كل تفكير ستروجوف منذ أسر منحصرا في البحث عن وسيلة يعدو بها حرا ! ٠٠ ولم يكن يدري ما السبيل الى الفرار من جنـــود الخان ، ولكنه ترك ذلك للفـــرصة الملائمة وآثر التصرف وفق ما يمليه عليـــه وحي الساعة !

والحق ان معسكر التتار كان يؤلف منظرا فخما رائعا يبهر الناظرين ٠٠ فهناك مئات من الخيام المصنوعة من الجلد أو الجوخ او الحرير ، تلمع في ضوء الشمس ، وفوق قممها المدببة تتأرجح الأعلام الملونة ٠٠ وكانت أفخر تلك الخيام تخص « الأسياد » والمنتمين الى طبقة « الهودجا » ، وهم الشخصيات الأولى في دولة الخان ، وثمة جناح خاص يتوجه ذيل حصان ، وتتأرجح على سارئته عصى حمراء وبيضاء مصفوفة في وضع فني ، ترمز الى الرتبة العليا لزعماء التتار ٠٠ وفي أقصى المخيـــم تقوم آلاف من الخيام التركيـــة التي يسمونها « كاراوي » والتي نقلت على ظهور الابل ٠٠

وكان المعسكر يضم ما لا يقل عن مائة وخمسين الف جندي ، بين مشـاة وفرسان ٠٠ بينهم تلك الفئة الرئيسية من التركستان التي يمتاز أفرادها ببشرتهم البيضاء وقامتهم الفارعة وسواد عيونهم وشـــعرهم ، وهم يكونون غالبية جيش التتار ٠٠ ثم بينهم فئة « الاوزبيك » التي يعرف أفرادها بصغر أجسامهم ولحاهم الصهباء ، وكان منهم الفصيلة التي انطلقت في أثر ميشيل ستروجوف من أومســك الى نهر أوبي ٠٠ وبينهم فئة الكرجيز ذوي الوجوه المفرطحة والزرد المحلى بالأسلحة المنوعة ، من رمح وسهم وخنجر وبندقية وفأس خاصة قصيرة لا تحدث غير اصابات قاتلة ، وتدعى « تشـــاكان » ٠٠ وبينهم المغول ذوو القامات المتوسطة والشعر الأسود المضفور المتدلي على ظهورهم ، فضلا عن وجوههم المستديرة وبشرتهم السمراء وعيونهم الحـادة الغائرة ولحاهم الخفيفة وثيابهم الزرقاء المحلاة بالقطيفة السوداء ، وأحزمتهم الجلدية ذات المشبك الفضي ٠ وأخيرا بينهم فئة الأفغان ذوي البشرة الصدئة، والعرب ذوو الطابع السامي الفطري،والاتراك ذوو العيون التي كأنما تنغصها الأهداب ٠٠ يجمعهم كلهم علم الخان ، علم السب والنهب والحرق والتخريب!

والى جانب هذا العدد ، كان هناك أيضا الجنود العبيد ، وأكثـــرهم من الفرس ، الذين يقودهم ضباط من جنسيتهم ، وكانوا معـــروفي القدر بين جيوش الخان ٠٠ ثم اليهود الذين يعملون لخدمة الجيش ، ويرتدون ثيـــابا يشدونها بأحزمة من الوسط ، ويصففون شعرهم بطريقة مزخرفة تغنيهم عن غطاء الرأس المحرم عليهم ٠٠ الخ

وعلى قدر تعدد الأجناس التي يتألف منها جيش التتار ، اختلفت أجنـاس الجياد التي يمتطونها فكان منها الجياد التركية والخاخاندية والكرجيـــزية ، وكانت هناك عدا ألوف الجياد والبغال والحمير قطعان الماشية والابل لطعـــام تلك الجيوش الجرارة ٠٠ ومن جميع هذه الصور الحية لمجموعات البشر والحيوان والخيام وأشجار الصنوبر والأرز التي تألفت منها باقات تتناثر بين ظلالها رقع من الشمس وأقواس قزح ، كانت تتجمع للرسام المبدع لوحة رائعة يستنفد رسمها كل فنه وألوانه !

وحين وصل الى المعسكر ركب الأسرى الذين تمخضت عنهم معركة كوليفان، وسيقوا الى خيام فيوفار خان وكبار رجال دولته ، قرعت الطبول ونفخ فى النفير ، واختلط بهذا الضجيج الهائل دوى طلقات المدافع . وكانت محتويات خيام الخان الخاصة المقامة فى المعسكر ذات صبغة حربية بحت، أما بيته «المدنى» وبه حريمه ، فكان قد نقل الى توسك عاصمته المؤقتة حتى يستبدل بها عاصمة سيبيريا الشرقية

على أن الخيمة الخاصة للخان كانت من الحرير الخالص ، مقامة على قوائم لها مقابض من ذهب ، تعلوها « شرابات » كثيفة يعبث بها الهواء . وكانت تحتل مركز مساحة كبيرة ، يحيط بها سور من أشجار الصنوبر الباسقة . وأمام الخيمة ، فوق منضدة جميلة بيضاء مطعمة بالاحجار الكريمة ، وضع مصحف كبير كتب على أوراق الذهب الرقيقة المزركشة .. وكان علم التتار يرفرف فوق الخيمة وقد رسمت عليه أسلحة الخان !

وحول تلك الساحة تقوم نصف دائرة من خيام كبار موظفى بخارى ، وفى مقدمتهم : حامل أختام الخان ، وقائد الدفعية ، وكبير المستشارين ، وشيخ الاسلام أو كبير العلماء ، ورئيس الحطائر الذى يتبع الخان على ظهر جواده الى داخل قصره ، عدا نائب الأمير ، الذى يحل محله أثناء غيابه ، لينظر فى الشكاوى ويفصل فيها . وعدا كبير الفلكيين الذى يستشير النجوم فى المناسبات الهمة ويفضى بما تشير به الى الخان

ولم يكن الخان قد غادر خيمته حين سيق الأسرى الى المعسكر ، ولا شك فى أن هذا كان حظا حسنا لأولئك التعساء ، فان اشارة أو كلمة منه كانت تكفى لذبحهم جميعا ! وكان الخان يؤثر احتجابه عن رعاياه ، استزادة لمظاهر الهابة والجلال اللذين يحيطان باسمه فى نفوسهم . أما الأسرى فكان مصيرهم أن يحشدوا فى معتقل ضيق ، حيث تساء معاملتهم ويقتر عليهم فى الغذاء ويعرضون لشتى تقلبات الطقس .. ارضاء لرغبات الخان

وكان أكثرهم صبرا واستسلاما وانقيادا .. ميشيل ستروجوف !.. فقد ترك المشرفين يقودونه حيث يشاءون ، موقنا بأنهم انما يقودونه الى الغاية التى يسعى هو اليها ، ويوفرون له الأمان الذى لم يكن ليجده لو سافر وحده من كوليفان الى توسك . ومن ثم راح يقول لنفسه : « حين أصل الى توسك أكون قد سبقت فيورخان باثنتى عشرة ساعة ، كما أكون قد سبقت ايفان أوجاريف باثنتى عشرة ساعة أخرى ، ومن ثم يكون فى وسعى اذا هربت أن أسبقهم الى اركوتسك ! »

وكان أشد ما يخشاه أن يكون ايفان أوجاريف فى معسكر التتار ، فان هذا عدا احتمال الكشف عن حقيقة شخصيته ، كان يعنى انه سيصل مع غريمه الى غايتهما فى وقت واحد ، ومن ثم يتعذر عليه القيام بمهمته الخطيرة ، كما أن معناه أيضا التئام شمل جيوش ايفان أوجاريف مع جيوش فيورخان ، مما يهدد اركوتسك بزحف كتلة الجيشين الرهيبة نحوها بلا ابطاء !

وحين ذكر ميشيل ستروجوف غريمه اللدود ، ذكر أمه المعتقلة فى أومسك،

ثم ذكر نادية التى اختطفها التتار فى « ارتيش » وسبقته الى الأسر ولا ريب ! ولكن ماذا يستطيع أن يفعل من أجلهما ؟.. وهل يقدر له أن يراهما مرة أخرى ؟.. لقد فكر فى هذا كثيرا ، ولكنه لم يستطع أن يهتدى فى شأنه الى حل يطمئن اليه

وفى أثناء ذلك كان الصحفيان الأسيران قد نقلا بدورهما الى معسكر التتار ، وقد عانى « بلونت » متاعب جمة بسبب الجرح الذى أصيب به فى مكتب التلغراف ، وما كان ليبلغ المعسكر حيا لولا عناية زميله ومنافسه جوليفيه . وقد أرقده هذا فى المعسكر على فراش من الأوراق الجافة تحت ظل شجرة وشرع يغسل جرح كتفه ويبلله بالماء . فلما استراح بلونت من آله عاوده داؤه الصحفى ، فسأل زميله : « هل تحسب برقياتنا الأخيرة قد عبرت حدود روسيا ؟ »

فأجاب بقوله : « ولم لا ؟ .. ولكن دعنا من السياسة فلبس أسوأ منها للجروح ! »

قال : « اذن فلنتحدث عن المستقبل . ولتعلم أنه ليس فى نيتى البتة أن أظل أسيرا للتتار ! » . فقال جوليفيه : « ولا أنا ! »

قال : « فلنهرب فى أول فرصة ! » . فقال : « ولم الهرب ؟ نحن محايدان ولسنا محاربين . وسوف أطالب بحقنا فى الافراج ! »

فقال بلونت : « تطالب هذا الوحش فيوفار خان ؟ ! » . قال : « بل أطالب ساعده الأيمن ايفان أوجاريف »

قال : « انه نذل أيما نذل فى ذلك شك ! » . قال : « نعم . ولكن هذا النذل روسى، وهو لابد يعلم انه ينبغى الا يعتدى على حقوق رعايا الدول الأخرى، عدا أنه ليست له أية مصلحة فى بقائنا فى الأسر ! »

فقال بلونت : « لكن ايفان أوجاريف ليس هنا فى المعسكر ! »

قال : « نعم ، ولكنه سيأتى ولا ريب . فلا بد أن يلحق بالخان . ان سيبيريا مشطورة الآن الى شطرين . ولا شك أن جيش فيوفار خان لا ينتظر غير أوجاريف كى يستأنف زحفه على اركوتسك »

فسأله : « واذا أطلق سراحنا ، ماذا تفعل ؟ »

فقال : « نواصل مهمتنا ، فنتبع التتار حتى تسمح لنا الظروف بالانضمام الى المعسكر الروسى . اننا لم نكد نبدأ مهمتنا الحقيقية ، واذا كنت أنت قد جرحت فى خدمة صاحبة الجلالة الصحافة فانى لم أبذل لها شيئا بعد . والآن ينبغى لك أن تستريح قليلا ، فالى النوم ! »

وهكذا كان الذى يتمناه الصحفيان - وهو حضور ايفان أوجاريف - هو ذاته مبعث رعب ميشيل ستروجوف .. وقد أدرك هذا تعارض المصالح بينه وبينهما ، فحاول جاهدا الا يدع بصرهما يقع عليه !

وانقضت على هذا المنوال أربعة أيام ، لم يتغير الموقف خلالها أدنى تغير ولم يسمع الأسرى أية اشارة الى موعد رحيل الجيش . وكانت الرقابة عليهم

أثناء ذلك قاسية صارمة ، بحيث كان من المستحيل عليهم أن يتسللوا من نطاق الحراس الذين يتناوبون حراستهم ليل نهار . أما الطعام الذي أتيح لهم فكان لا يزيد على الحد الأدنى الضروري لبقائهم على قيد الحياة .. كان الحراس يقذفون اليهم ، مرتين كل أربع وعشرين ساعة ، قطعة من أمعاء الماعز ، مشوية على الفحم . أو قطعة من الجبن المسمى « كروت » المصنوع من لبن النعاج الحامض !

وكان الطقس سيئا جدا ، تنتابه عواصف شديدة محملة بالأتربة يعقبها هطول الأمطار ، في الوقت الذي لم يكن للأسرى التعساء اى مأوى يلجأون اليه فرارا من غضب الطبيعة ، فمات منهم عدد من النساء والأطفال والجرحى، تولى الأسرى أنفسهم دفنهم هناك !

وخلال تلك الأيام القاسية ، كان ميشيل ستروجوف والسيدة جوليفيه ـ كل على حدة ـ يؤديان أقصى ما يستطيعان تأديته من خدمات لبقية الأسرى، بفضل قوة بنيتهما وشدة مراسهما ، ويزودان الضعيف منهم واليائس والمكتئب بما يقوى من عزيمته ويسرى عنه ويحيي الأمل في نفسه !

ولكن هل تدوم هذه الحال ؟ هل قنع فيوفار خان بالنجاح السريع الذي أحرزه فاعتزم أن يقضى فترة استراحة طويلة قبل أن يستأنف زحفه على اركوتسك ؟

هذا ما كان يخشاه الأسرى جميعا !.. ولكن لم تحل صبيحة يوم ١٢ اغسطس حتى وقع الحادث المرتقب الذي طالما تمناه الصحفيان ، وأشفق منه ميشيل ستروجوف !.. فقد قرعت الطبول ونفخ في النفير ، وأطلقت المدافع، وهبت سحابة من الغبار الكثيف على أفق الطريق الى كوليفان

وأقبل على معسكر التتار آلاف من الجنود ، على رأسهم .. ايفان أوجاريف!



خطة جوليفيه

لم يكن الجيش الجرار الذي جلبه ايفان أوجاريف الى فيوفار خان سوى جزء من الجيش الذي استولى على أومسك ، أو القسم الأدنى منها على وجه أصح ، فان القسم الأعلى الذي اعتصم فيه الحاكم العام وحامية المدينة بقي مستعصيا على الغزاة . وقد آثر أوجاريف الا يعطل الاعمال الحربية التي تهدف الى غزو سيبيريا الشرقية ، باطالة الوقوف أمام الحصن المستعصي .. ومن ثم ترك في أومسك جيشا كافيا وخف لامداد غزاة كوليفان ، ثم جاء لينضم الى جيش التتار الرئيسي

توقف جنود أوجاريف عند مدخل المعسكر ، اطاعة لأوامره . وكان قد جلب معه بدوره قافلة من الأسرى الروسيين والسيبيريين الذين استسلموا لجيشه في أومسك وكوليفان .. وكان من سوء حظ هؤلاء انهم تركوا في العراء ، فلم يجدوا حتى مثل المأوى الضيق الذي حشر فيه زملاؤهم في معسكر الخان

ترى : أي مصير يدخره فيوفار خان لأولئك التعساء ؟ .. أيسوقهم أمامه كالماشية الى تومسك ؟ أم يدبر لهم مذبحة من تلك المذابح الدموية التي ألفها زعماء التتار ؟!.. كان الجواب سرا يحتفظ به الأمير ذو النزوات .. وكان جيش أوجاريف قد جلب معه ، حاشية ، من البوهيميين والنهابين والتجار الذين يكونون عادة مؤخرة كل جيش زاحف ، والذين لا يتركون وراءهم خيرا أو زرعا أو ضرعا ... وكان من بينهم رهط الغجر الذي رافق ميشيل ستروجوف على ظهر السفينة الى بيرم ، ومن أفراده « سنجار » تلك الجاسوسة المتوحشة التي لا تفارق سيدها ايفان أوجاريف أينما يذهب ، فتندس مع رهطها في كل مكان لتنقل لسيدها كل ما ترى وتسمع !.. وهكذا كان يقف على كل ما يجرى في المناطق التي يهمه أمرها ، بفضل هذه المالة عين والمالة اذن التي ينشرها حيثما أراد ، والتي يدفع لاصحابها مقابل هذه الجاسوسية النافعة أموالا ضخمة

وكانت سنجار قد وقعت يوما في مأزق رهيب ، خلصها منه أوجاريف ، ومنذ ذلك اليوم لم تنس جميل صنعه ووهبت نفسها له ، جسما وروحا .. وأدرك أوجاريف ـ وقد سار في طريق الخيانة لوطنه ـ أية خدمات تستطيع المرأة أن تؤديها له . كانت تنفذ اى أمر يصدره اليها بدقة مثالية ، مدفوعة بغريزة غامضة أقوى من العرفان بالجميل .. وهكذا صارت بمثابة أمة مملوكة للخائن الذي اتصلت به منذ بداية أيام نفيه في سيبيريا ، أمة مخلصة بلا وطن

ولا عائلة ، يلذ لها أن تكرس حيـاتها اليومية لخدمة الغزاة الذين يطلقهم سيدها أوجاريف على سيبيريا كالكلاب الجائعة • وكانت سنجار ـ شأن بنات جنسها ـ نشيطة صارمة ـ لا تعرف الصفح ولا الشفقة

ومنذ وصول سنجار الى أومسك ، لم تفارق سيدها ، وقد علمت بأمر اللقاء غير المقصود الذى تم فى محطة البريد هناك بين ميشيل ستروجوف وأمه مارفا •• وشاركت مولاها خوفه من وصول رسول القيصر الى غايته •• وتطلعت الى اليوم الذى يتاح لها فيه تعذيب مارفا ستروجوف بشتى ألوان التعذيب التى تحذقها ، كى تنتزع منها سر ولدها • لكن الساعة التى أدخرها أوجاريف لتعذيب الأم لم تكن قد حانت بعد ، وفى انتظارها جعلت سنجار عينها على مارفا ترقب كل حركاتها وسكناتها وكلماتها ليل نهار ، علها تظفر منها فى لحظة ضعف بكلمة تكشف أمر ابنها •ولكن الأم العجوز ظلت ساكنة صابرة رابطة الجأش !

وفى اللحظة التى قرعت فيها الطبول ايذانا بوصول جيش الخائن الروسى ، خف قائد مدفعية التتار ورئيس حظائر الخان يتبعهما رهط من الفرسان ، الى مقدمة المعسكر لاستقبال ايفان أوجاريف • وحين بلغوا مكانه أغدقوا عليه تحياتهم ودعوه الى مرافقتهم الى خيمة فيوفار خان • فرد هو تحياتهم فى فتور بزانته المعهودة •• وكان ما يزال يرتدى ، مع ما عرف عنه من جرأة وقحة ، سترة ضابط روسى !••

ولم يكد يستحث جواده ليعبر باب المعسكر حتى تسللت « سنجار » بين فرسان الحامية واقتربت منه حيث ظلت صامتة جامدة ، فسألها هامسا : « هل من جديد ؟ » • قالت : « لا ••هل اقتربت الساعة لاجبار العجوز على الكلام ؟ »

قال : « اصبرى يا سنجار حتى نصل الى تومسك »

فسألته : « ومتى نصل ؟ » • فقال : « خلال الايام الثلاثة القادمة ! »

وعندئذ برقت عينا سنجار السوداوان ببريق غير عادى ، وانسحبت بخطى هادئة • بينما ضغط أوجاريف مهماز جواده وسـار نحو خيمة الخان يتبعه أركان حربه من الضباط التتار

وكان فيوفار خان ينتظر قائده وسـاعده الأيمن ، وقد اصطف حوله مستشاروه وكبار مرؤوسيه ، فترجل أوجاريف عن جواده ودخل الخيمة ، حيث مثل فى حضرة الخان ، وكان هذا فى نحو الاربعين من عمره ، طويل القامة ، شاحب الوجه ، خبيث العينين ، نحيف الملامح ، ذا لحية سوداء تتدلى فوق صدره ، ويرتدى سترة عسكرية محلاة بزرد من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وخنجرا معقوفا ، وخوذة مرصعة بأحجار من الماس تبهر الأنظار • وكانت هيئته توحى بسلطانه المطلق على رعاياه !

وفى اللحظة التى دخل فيها أوجاريف الخيمة ظل كبار المرؤوسين جالسين على حشاياهم الموشاة بالذهب • أما فيوفار فقد نهض عن أريكة فاخرة تحتل ركن الخيمة التى فرشت أرضه بسجادة رائعة من منتجات بخارى • واقترب

الأمير من صنيعه ثم طبع على جبينه قبلة علامة رفع الكلفة والحذر بينهما •• وخاطبه قائلا :

ـ ليس عندى ما أسألك عنه ، فتكلم أنت يا ايفان •• كلنا آذان مصغية لك

فقال أوجاريف : « مولاى ، اليك ما عندى • ان الوقت ليس وقت عبارات جوفاء ، وأنت تعرف جيدا ما فعلته أنا على رأس جيشك • ان خطوط ايشيم وأرتيش قد أصبحت فى حوزتنا ، وفرسـان التركستان يستطيعون الآن أن يجعلوا جيـادهم تستحم فى مياه النهرين التى صارت تتارية ، وقبائل الكرجيز قد أشعلت الفتنة منذ بلغها صوت فيوفار خان • وطريق سيبيريا الرئيسى قد صار ملك يمينك من ايشيم الى تومسك •• وفى وسعك أن تدفع جيوشك كما تشـاء نحو الشرق حيث تشرق الشمس أو نحو الغرب حيث تغرب ! »

فقال الخان : « واذا سرت مع الشمس ؟ »

قال : « معنى هذا أن ننطلق نحو أوربا ، ونغزو عـلى وجه السرعة أقاليم سيبيريا من توبولسك الى جبال الأورال »

فقال : « واذا اتجهت الى الغرب ؟ »

قال : « اذن •• تخضع لسيطرة التتار اركوتسك وأغنى مـناطق آسيا الوسطى »

فسأله : « وجيوش سلطان بطرسبرج ؟ » • يعنى قيصر روسيا

فقال : « ليس ثمة ما تخشاه من جهتها ، لقد كان الغزو مفاجئا ، وقبل أن يستطيع الجيش الروسى أن يفعل شيئا نكون قد استولينا على اركوتسك أو توبولسك •• ان قوات القيصر قد سحقت سـحقا فى كوليفان ، كما أنها ستسحق حينما يقدر لها أن تلتقى بجيوشك فى كل مكان ! »

فسأله : « أية فكرة توحى لك هذا التفانى فى سبيل قضية التتار ؟ »

فقال : « فكرتى أن أسير فى مواجهة الشمس ، وأعطى أعشـاب البرارى الشرقية لجياد التركستان ، وأستولى على اركوتسك عاصمة أقاليم الشرق ، ومعها الرهينة التى تستحق التضحية باقليم كامل • يجب أن يقع الغراندوق شقيق القيصر فى يديك ! »

وكانت الغاية الاولى التى يسـعى اليها ايفان أوجاريف هى الانتقام من الغراندوق • ومن هنا كان يتحدث عنه ، وكأنه أحد قراصنة القرن الثامن عشر القساة • وكانت مخيلته تتعجل الوصول الى هذه الغاية فيتصور نفسه وقد قبض على غريمه وراح يضربه ويهينه بلا شـفقة • أما الاسـتيلاء على اركوتسك وجعل سيبيريا الشرقية بأسرها تحت سيطرة التتار فكانت هدفا ثانويا له !

وقال له فيوفار خان : « فليكن ما تريد يا ايفان • ونستطيع أن تنقل مركز

قيادتنا الى تومسك ، غدا . أو اليوم اذا شئت ! »

« فانحنى ايفان اوجاريف ، وانصرف لتنفيذ أمر الخان · وفي اللحظة التي مضى فيها ليمتطي جواده ، سمع ضجة صادرة من معتقل الأسرى ، صيحات مختلطة وبضــع طلقات نارية · ولم يدر اهي محاولة تمرد أم فرار ؟· فتقدم وحارسه بضع خطوات نحو مكان الضجيج ، واذ ذاك برز أمامهما أسيران لم يستطع الجنود منعهما من التقدم · فلوح حارس ايفان باشارة تقضي بالاجهاز على الأسيرين دون انتظار الوقوف على تفصيلات الأمر ، ولـكن ايفان أوقفه وقمع المتجبر الذي كان يتهيأ للانطلاق من يده ، فقد أدرك من هيئتهما أنهما اجنبيان ·· وأمر باحضارهما أمامه

ولم يكن هذان الأسيران سوى هاري بلونت وجوليفيه !

كانا قد بذلا منذ وصول اوجاريف الى المعسكر محاولات عدة للمثول بين يديه ، فقوبلت جميعها من جانب الحراس بالرفض · ومن هنا عمدا الى الصراع ومحاولة الفرار التي كان مصيرها أن تؤدي الى اعدامهما لولا تدخـل ايفان · وحين مثلا أمامه جعل يتأملهما بعينه الفاحصة ، فلم يتذكر أنه رآهما من قبل ·· برغم أنهما كانا حاضرين في محطة بريد « ايشيم » أثناء المشــادة التي نشبت بينه وبين ميشيل ستروجوف بصدد الجياد · ذلك لان الضابط المغرور لم يأبه للمسافرين الذين كانوا في ردهة المحطة أثناء تلك المشــادة · أما الصحفيان فقد عرفاه على الفور منذ مثلا في حضرته ، فهمس جوليفيه في أذن بلونت : « انظر ، يبدو أن الكولونيل أوجاريف والمسافر الفظ في محطة ايشيم ليسا غير شخص واحد ! » ·· ثم أضاف في أذن زميله : « اعرض قضيتنا يا بلونت تحقق لنا خيرا ، فان مرأى هذا الضابط الروسي وسط معســكر التتار يملأ نفسي اشمئزازا ، وبرغم أنه صاحب الفضل علي في بقاء رأسي فوق كتفي الى هــذه اللحظة فان عيني تنحرفان في احتقار كلما أردتهما أن تنظرا الى وجهه ! »

وحين فرغ الصحفي من عبارته أبدى غاية التعالي وعدم المبالاة · فهل أحس ايفان أوجاريف بما تنطوي عليه حركة الأسير الذي أمامه من اســتخفاف ومهانة ؟·· على أية حال فانه لم يظهر شعوره ، وانما سأل في لهجة روسية باردة : « من أنتما ؟ »

فأجابه بلونت قائلا : « صحفيان نمثل جريدة انجليزية وأخرى فرنسية »

قال : « وهل لديكما الاوراق التي تثبت شخصيتكما ؟ »

فقال : « هاك هي الخطــابات التي تزكينا في روســيا لدى القنصليات الانجليزية والفرنسية »

وتناول الكولونيل الخطابات ، وبعد أن طالعها بامعان سألهما : « أتطلبان الترخيص لكما بتتبع عملياتنا الحربية في سيبيريا ؟ »

فقال : « نطلب اطلاق سراحنا ، هذا كل ما في الأمر »

قال : « انكما مطلقا السراح منــذ الآن ، وسوف أتتبع ما تكتبـان في

صحفكما ! » · ثم امتطى جواده ومضى مثيرا خلفه زوبعة من الغبار !

وقال بلونت لزميله : « ما رأيك يا مســيو جوليفيه في الكولونيل ايفان اوجاريف القائد العام لجيوش التتار ؟ »

قال : « رأيي أن حارسه كان رشيقا في الحركة التي كاد بها أن يفصــل عنقينا عن كتفينا ! »

فسأله : « والآن ماذا نصنع بحريتنا ؟ »

قال : « نسيء استغلالها ، فنمضي توا الى تومسك لنرى ما عساه أن يحدث ! »

وبقدر ما كان وصول ايفان أوجاريف خيرا وبركة على جوليفيه وبلونت ، كان خطرا ونقمة على ميشيل ستروجوف · فلو أن الصدفة وضعت رســول القيصر في طريق ايفان لعرف فيه فورا ذلك المسافر الذي تشاجر معه في محطة ايشيم · لكن وصول أوجاريف أفاد ستروجوف من ناحية أخرى ، هي التعجيل بالرحيل من المنطقة ، فقد اصدر الأمر بنقل المعسكر الى تومسك فورا ·· وابتهج ستروجوف بهذه الخطوة التي ستتيح له الوصول الى تومسك في ركاب الأسرى دون التعرض لخاطر الوقوع في أيدي كشافة التتار المبثين في مداخل المدينــة الكبيرة ·· ثم عاد ففكر في الفرار في منتصف الطريق خشية أن يلمحه غريمه فيعرفه ·· لكنه لم يلبث أن عدل عن فكرته حين علم بأن فيوفار خان وايفان أوجاريف قررا الرحيـــل في جيش مكون من آلاف الفرسان ، على أن يتبعهما موكب الأسرى يحرسهم فيلق من جنود التتار · ولما كانت المســافة بين المعســكر والمدينة المرموقة أكثر من مائة وخمسين فرسخا ، فقد قدر ستروجوف لقطعها ثلاثة أيام ، ولاسيما أن حرمان الأسرى من الطعام الكافي قد أضعفهم وجعلهم أعجز من أن يحتملوا مشقة الســفر الطويل ·· وبدأ الطــابور سيره في الساعة الثــانية من بعد ظهر يوم ١٢ أغسطس ، وكان الجو قائظا والسماء صافية من الغيوم

أما جوليفيه وبلونت فقد ابتاعا جوادين وانطلقا بدورهما الى أومسك

وكان بين الأسرى الذين جلبهم ايفان أوجاريف معه امرأة عجــوز لفت صمتها الأنظار وجعلها شبه منعزلة عن بقية الذين أراد لهم القدر نفس المصير · كانت شبه تمثال من الألم الصامت ، لم تفتح فمها بكلمة شكوى أو تذمر · وكانت الأوامر تقضي بتشديد الحراسة عليها أكثر من سواها ، كما تولت الغجرية « سنجار » مراقبتها عن كثب دون أن تشعر · وخلال الطريق تبعت التعسة جميع الأسرى سيرا على الأقدام ، رغم تقدمها في السن ، مستسلمة لعذابها المرير !

ولكن شاءت الأقدار أن تضع بجانبها فتاة شجاعة كريمة النفس تفهم آلام المحزونين وتبذل لهم معاونتها ، فتاة لفتت الأنظار بجمالها وهدوئها ·· وبرغم أن الأسيرتين لم تتبادلا كلمة فان الفتاة كانت دائما قريبة من الأخرى بحيث تستطيع أن تعينها وقت الحاجة ·· وان كانت العجوز نظرت بشيء من الريبة الى هذا العطف الصامت غير المفهوم من فتاة لا تعرفها ! وشيئا فشيئا أنست مارفا ستروجوف الى نظرات الفتاة المستفهمة الصريحة وعاطفتها الخفية التي

توحدها المشاركة في الآلام عادة بين نفسين تعستين . ولم تكن هـذه الفتاة سوى نادية . وقد منحت العجوز ، دون أن تعرف شخصيتها ، عناية كبيرة ، مدفوعة الى ذلك بوحي طيبتهـا الغريزية . وقد أثار تقارب المرافقتين – اللتين كانتا بمثابة الجدة والحفيدة – وسط ذلك الجمع من التعساء نوعا من الشعور بالاحترام الصامت

وكانت نادية قد نقلت على أثر اختطافها بواسطة التتار من عرض النهر الى اومسك ، حيث حجزت في معتقل الأسرى التـابع للكولونيـل أوجاريف ، وشاركت مارفا ستروجوف وسواها مصيرهن التعس . ولو كانت الفتـاة ضعيفة العزيمة لحطمتها الصدمة المزدوجة التي اصابتها من عرقلة رحلتها الى ابيها ، واعتقادها موت مرافقها الشهم (ستروجوف) غريقا في قاع النهر ! . والواقع انها احست على أثر الصدمتين شعورا باليأس والحنق . . كانت صورة ميشيل ستروجوف وهو يتلقى ضربة الرمح ثم يغوص في قاع اليم ما تزال تلح على خيالها لا تبرحه ، بل انها ما برحت تسائل نفسها : « كيف يمكن ان يموت شاب نبيل مثله هكذا ، ولمن اذن ادخر الله معجزاته ؟ » . واحيانا كان الحنق يغلبها على ألمها ، وذكرى الاهانة التي تلقاها الشاب من الضابط المتعجرف في محطة ايشيم تعاودها ، فيغلي دمها في عروقها وتحدث نفسها : « من الذي سينتقم لذلك الميت الذي لن يستطيع الانتقام لنفسه ؟ » . وكانت تتوجه الى الله ضارعة : « يا الهي ، مكني أنا من الانتقام ! » . ثم لا تملك نفسها من التحسر : « آه لو كان ميشيل قد باح لها قبل موته بسره ، لربما استطاعت برغم ضعفها أن تتم المهمة التي اخذها على عاتقه هذا الأخ الذي ما كان ينبغي ان يعطيها الله اياه ما دام ينوي أن يعود فيأخذه ! . . » . . وباستغراقها في افكارها على هذا النحو لم يكن من المستغرب أن تلتزم نادية عدم المبالاة حتى بمتـاعب اسرها وآلامه !

وفي غمرة تلك الظروف جمعتها الأقدار بالمرأة العجوز مارفا ستروجوف ، دون أن يخطر ببالها لحظة أن هـذه الأسيرة الشمطاء هي أم مرافقها التـاجر النبيل « نيقولا كورباتوف » . . بل دون أن يجول بخاطر مارفا بدورها أن هذه الفتاة المجهولة كانت على صلة وثيقة بابنها ! . . وانما الذي لفت نظر نادية الى مارفا هو وجود لون من التوافق الخفي في الطريقة التي عانت بها كل منهما ظرفها الأليم . . هو ذلك الاستهتار الغريب الذي كانت تتلقى به العجوز متاعب حياتها اليومية في الأسر ، وذلك الاحتقار للآلام الذي كانت تستمده ولا ريب من ألم نفساني عميق شبيه بألمها هي . ولم تخطيء نادية في هـذا الظن . . ومن ثم نبت في قلبها عطف غريزي على مارفا من أجل ذلك الجانب الخفي المكتوم من آلامها ، ووجـدت نفسها مدفوعة نحوها عـلى الدوام بقوة لا تقاوم ، هي قوة الاعجاب بطريقة المرأة في تحمل تعاستها !

ولم تعرض نادية على مارفا مساعدتها ، وانما قدمتها اليها من تلقاء نفسها ، فلم تقبلها مارفا ولم ترفضها . . وفي المراحل العسيرة من الطريق كانت الفتاة تقدم للعجوز ذراعها كي تستند اليه . وفي ساعة توزيع الطعام لم تكن مارفا

تبدي حراكا ، فكانت نادية تقتسم معها غذاءها . . وبفضل مرافقتها الشابة استطاعت مارفا ستروجوف أن تتبع الجنود الذين يقودون ركب الأسرى دون أن تربط الى سرج دابة من الدواب كغيرها من الأسـيرات التعسات ، خلال الطريق

وقالت لها مارفا مرة : « فليكافئك الله يا ابنتي من أجـل كل ما تفعلين لشيخوختي ! » . وكانت هذه العبارة في وقت من الأوقات كل ما تبودل بين الأسيرتين من حديث

وخلال تلك الأيام – التي بدت لهما دهرا طويلا – كان من المعقول أن تتبادل المرأتان الحديث عن آلامهما المشتركة . . لكن مارفا ستروجوف ، بتأثير شعور من الحذر يمكن فهمه ، لم تتحدث الا لنفسها ، وفي اختصار شديد . . فلم تشر من قريب أو بعيد الى ابنها أو الى اللقاء المشئوم الذي تم بينه وبينها وجها لوجه في أومسك . وكذلك لزمت نادية مع مرافقتها حـدود الصمت أكثر الوقت . لكنها ذات يوم أحست باطمئنان الى النفس البسيطة النبيلة التي امامها ، ففاض قلبها . . وقصت على مارفا كل ما وقع لها منذ غادرت فلاديمير حتى وفاة نيقولا كورباتوف . ووجد حديثها عن مرافقها الشاب اهتماما وأذنا صاغية من السيبيرية العجوز ، فقالت لها : « نيقولا كورباتوف ! . . حدثيني ايضا عن هذا الشخص ، لست أعرف بين شباب هذه الأيام غير شخص واحد لا يستغرب منه هـذا التصرف . أواثقة أنت يا ابنتي ان اسمه كان نيقولا كورباتوف ؟ »

فقالت : « لماذا يكون قد خدعني في هذا الصدد وهو الذي لم يخدعني قط في شيء ؟ »

قالت : « تقولين انه كان باسلا شـديد البأس يا ابنتي ، طبقا لما رويت عنه ؟ » . قالت : « نعم »

قالت : « تقولين ان شيئا لم يكن يوقفه أو يعوقه أو يدهشـه ، وانه كان عذبا حتى في قوته ، حتى لقد وجدت فيه أختا لك ، عدا أنه أخ ، وانه سهر على راحتك مثل أم ! »

قالت : « نعم ، نعم . . أخ وأخت وأم . . كان لي كل شيء ! »

فسألتها : « وكان أسدا في ساعة الدفاع عنك ؟ » . فقالت : « نعم ، كان أسدا بل أكثر من أسد . . كان بطلا ! »

فسألتها : « لكنك تقولين انه تحمل اهانة قاسية في محطة البريد بايشيم ؟ »

فقالت : « نعم ، تحملها . . ولكن لا تسيئي الظن به يا أماه . كان في الأمر سر ولا شك »

فسألتها : « في لحظة تلك المذلة ، هل شـعرت نحو نيقولا كورباتوف بالاحتقار ؟ »

فقالت : « بل شعرت نحوه بالاعجاب ، دون أن أفهمه ، وباحترام فاق كل ما استحقه من قبل ! »

فعادت تسألها : « أكان طويل القامة ؟ » . فقالت : « نعم »

قالت : « هو وسيم الوجه ، أليس كذلك ؟ . تكلمي يا ابنتي »

فأجابت نادية وقد احمر وجهها : « بل كان جميلا جدا .. ! »

فهتفت الأم وهي تحتضن نادية في انفعال : « انه ابني .. أقول لك انه ابني ! »

فبغتت نادية ، وتمتمت مرددة : « ابنك ؟ .. ابنك ؟ »

وعادت مارفا تقول : « أولم يحدثك يوما عن امه ؟ »

فقالت : « أمه ؟ .. لقد حدثني عن امه كما حدثته عن أبي .. مرارا وتكرارا .. انه كان يعبد أمه ! »

فصاحت العجوز : « نادية ، نادية .. انك لا تدرين كم تسعدينني بحديثك عن ابني .. ولكن ، اما كان يعتزم أن يزور امه تلك التي يحبها والتي تقطن في أومسك ؟ »

فقالت : « كلا ، ما كان يعتزم ذلك ، لسبب لست اعلمه .. كل ما فهمته من مسلكه أنه كان يحرص على أن يجتاز البلاد سرا . كان ذلك بالنسبة له مسألة حياة أو موت ، بل مسألة واجب وشرف ! »

فقالت مارفا ! « نعم .. واجب حتمي من تلك الواجبات التي يضحي في سبيلها الانسان بكل شيء ، ويضن على نفسه بكل شيء ، حتى بفرحة طبع قبلة على وجنتي امه العجـــوز . قبلة ربما تكون الاخـــيرة ! .. الآن فهمت كل ما استعصى عليك وعلى فهمه من قبل . لكن الضوء الذي سلطته على ظلمات قلبي فبددتها يا نادية ، لا اسـتطيع ان اسلطه انا على قلبك .. والسر الذي كتمه عنك يا ابنتي ينبغي ان اكتمه انا بدوري . سامحيني يا نادية ! »

وهكذا وضح كل شيء للسيبيرية العجوز عن تصرفات ابنها ، حتى تصرفه غير المفهوم بازائها في محطة بريد أومسك . ولم يعد لديها شك في أن الشاب الذي رافق نادية في رحلتها لم يكن غير ابنها . وان مهمة سرية هامة لابد قد اجبرته على اخفاء شخصيته كرسول للقيصر اثناء اجتيازه الأراضي المحتلة . وحـــدثت العجوز نفسها قائلة : « آه ، يا ابني الحبيب الشجاع . كلا ، لن أخونك أو اشي بك ، وأي تعذيب لن ينتزع مني اعترافا بانك أنت الذي رأيته في أومسك »

وقد كان في استطاعة مارفا ستروجوف ان تكافيء نادية على اخلاصها لها بكلمة واحدة . فتقول لها : ان مرافقها الشهم نيقولا كورباتوف ـ أو بتعبير أصح ميشيل ســـتروجوف ـ لم يغرق في قاع نهر ارتيش ، فقد قابلته في أومسك وتحدثت اليه بعد ذلك الحادث بايام ! .. ولكنها صمتت ، وانطوت على نفسها ، مكتفية بأن قالت : « أرجو ألا تثقل عليك الأحزان يا ابنتي ، وان ترى اباك .. ومن يدري ، لعل الشاب الذي تعنينه لم يمت ، فان الله لا يمكن أن يسمح بهلاك شاب شهم نبيل مثله .. فتعلقي باذيال الأمل يا ابنتي مثل ! »

واحدة ... بواحدة !

كانت مارفا ستروجوف ونادية تجهلان ان ميشيل ستروجوف قد أسر في كوليفان ، وأنه احد أفراد القافلة نفسها التي تنتظمهما ، ويسير معهمـــا في الطريق الى تومسك ، فقد ضم الأسرى الذين جلبهم ايفـــان اوجاريف الى اولئك الذين كانوا في معسكر فيوفار خان، فصاروا آلافا مؤلفة يؤلفون طابورا طويلا يمتد بضعة فراسخ على الطريق . وكان بينهم كثيرون شدوا بعضـــهم الى بعض بسلاسل طويلة .. كما كان بينهم النساء ، والأطفال، الذين وضعوا فوق سروج الدواب .. وكان الركب اشبه بقطيـــع من البشر ، ويضطرهم الحراس الى أن يلتزموا في سيرهم نظاما معينا ، وبين الحين والآخر كان يسقط منهم واحد فلا ينهض مرة أخرى ! .. فقد كانت الرحلة رهيبة قاسية ، تحت أشعة الشمس وسياط الحراس الذين لا يكفون عن حثهـــم على الاسراع في المسير ، ووراء العاصفة الرملية التي تثيرها حوافر جياد الزعماء الذين يتقدمون الصفوف !

وهكذا بدت الرحلة بالنسبة للأسرى التعساء كأنها لن تنتهي . وزاد في صعوباتها تعذر وجود الماء في مرحلة كبيرة من الطريق المختصر الذي أمـــرت الحملة بأن تسلكه الى تومسك ، كي تبلغها في أسرع وقت ، خشـــية حدوث مفاجآت من جانب الروسيين . وخلال الطريق تساقط مئـــات من الأسرى فتركت جثثهم حيث هي حتى تأتي الذئاب في الشتاء فتلتهم بقاياها !

وحين رأى ميشيل ستروجوف داوريات التتار التي تملأ الطـــريق ازداد يقينا بتعذر هربه من صفوف الأسرى . فانه لو نجا من مطاردة الحراس لن ينجو من أيدي رجال الداوريات

وفي مغرب يوم ١٥ أغسطس بلغت القافلة محلة « زابديرو » الصغيرة ، على بعد ثلاثين فرسخا من تومسك .. ومن تلك البقعة يسير الطريق في محاذاة النهر ، وقد كان أول ما فعله الأسرى المجهدون ان حاول بعضهم الهبوط الى الماء ليستحموا ، لكن الحراس ردوهم الى صفوفهم خشية أن ينتهز جزيء منهم أو يائس تلك الفرصة فيعمد الى الفرار . واتخذت تدابير صارمة لحراستهم ، منها حشد طابور من الزوارق بعرض النهر !

وكان على الأسرى ان يعسكروا تلك الليلة على ضفة نهر « توم » بعـــد أن أجل الخان دخول تومسك الى الغد ، وتقرر اقامة احتفـــال عسكري ابتهاجا باقامة مركز القيادة العليا للتتار في هذه المدينة الهامة التي احتل فيوفار خان قلعتها ، وتسكع جنوده حول أسوارها انتظارا للحظة دخولهم اياها رسميا

في هيئة حشد واحد . وترك ايفان اوجاريف الخان في تومسك في اليوم التالي وعاد الى المعسكر في زابديرو ، ليغادرها في الغد مع مؤخرة جيش التتار . واعد له بيت مريح كي يقضي فيه ليلته

ومنذ نفخ في النفير ايذانا بتوقف الركب تنفس الأسرى الصعداء ، آملين ان ينالوا قسطا من الراحة بعد أن حطمهم السير ثلاثة أيام متوالية . وحين غربت الشمس خرجت مارفا ستروجوف تتكىء على ذراع نادية الى ضفة النهر لارواء ظمئها وانحنت العجوز على مجرى الماء العذب ، بينما اغترفت لها نادية جرعة في يدها ومدتها نحو شفتيها ، ثم شربت هي بدورها .. وعندئذ احست المرأتان بالانتعاش يعاودهما

وفيما كانت نادية تستدير لتقفل راجعة ، ندت منها صرخة بالرغم منها وتراجعت الى الخلف ، فقد كان « ميشيل ستروجوف » على قيد خطوات منها . واندفت هو على صرختها فرآها ، لكنه استطاع السيطرة على نفسه وقمع الكلمة التي كان يتوق الى أن يهتف بها . وفي اللحظة التالية استطاع التعرف الى امه أيضا ، فحجب عينيه بيديه وابتعد فورا .. وهمت نادية بالاندفاع وراءه بوحي من غريزتها ، لولا أن همست العجوز في اذنها قائلة : « مكانك يا ابنتي .. حذار ! »

فقالت نادية : « انه هو .. انه على قيد الحياة يا أماه .. انه هو ! »

فهمست قائلة : « نعم، انه ابني ، ميشيل ستروجوف .. وانت ترين أنني لا أخطو خطوة واحدة نحوه ، فاحذي حذوي يا ابنتي ! »

ولقد عاني ستروجوف ساعتئذ حمى انفعال عنيف من أقسى ما مر به في حياته ، وتناهبته الهواجس واخذ يسائل نفسه : هل قرب الله بين المرأتين في محنتهما المشتركة ؟.. هل تعلم نادية اذن من هو ؟ لقد لمح امه تعوقها عن اللحاق به ، واذن فقد ادركت أمه الموقف وصانت سره !.. وطيلة تلك الليلة فكر ميشيل عشرين مرة في أن يجتمع بامه تحت جنح الظلام ، كي يضمها الى صدره ويعانقها ، ويضغط يد نادية ، مرافقته الحسناء ، لكنه أدرك خطر المحاولة ، وآله أن يوطن نفسه على مواصلة رحلته بعد تومسك دون أن يعانق المخلوقتين اللتين تتركز فيهما كل حياته ، واللتين يعلم مبلغ ما تتعرضان له من أخطار !

ولم يدر بخلد الشاب أن هذا اللقاء الجديد الخاطف لم ينقض غير ملحوظ ، فقد التقطته عين « سنجار » جاسوسة ايفان أوجاريف التي لا تغفل عن شيء ، فقد كانت ترقب العجوز من بعيد ، فلمحت حركتها التي استوقفت بها نادية ، وأدركت من بريق عيني مارفا جلية الأمر ، وان لم تقع عينها على الشاب نفسه أثناء ذلك اللقاء العابر ، فقد حجبته عن عينيها بعض العوائق . ولكن كفاها أن تستنتج من تتبع حركات الأم ان ابنها ، رسول القيصر ، لا بد موجود في تلك الساعة في المعسكر ، ضمن الأسرى ولا ريب !

ولم تحاول سنجار أن تعثر على الشاب في الظلام ، بين ذلك العدد الهائل من الأسرى ، فاكتفت بأن تخطر سيدها ايفان أوجاريف .. ومن ثم غادرت

المعسكر فورا الى البيت الذي كان ايفان يقضي فيه ليلته ، على مسيرة نحو ربع ساعة ، وقالت له : « ان ابن مارفا ستروجوف في المعسكر، ضمن الاسرى ! »

فقال : « آه ، اذن سأستطيع .. »

قالت : « لن تستطيع شيئا ، فأنت لا تعرف شكله ! »

قال : « لكنك تعرفينه ولا ريب ، الم تريه ؟ »

قالت : « لم أتمكن من رؤيته ، وانما رأيت حركة تصدر من أمه دلتني على وجوده »

فقال لها : « لعلك تعلمين الأهمية التي أعلقها على اعتقال هذا الرسول، فلو وصل الخطاب الذي يحمله الى الغراندوق ، فسوف يأخذ حذره مني ، وتفشل خطتي كلها . واذن لا بد لي من الحصول على ذلك الخطاب بأي ثمن .. وها هو ذا حامله في قبضتي ! »

وكان يتكلم بانفعال شديد ، ينم عن شدة اهتمامه بهذا الأمر ، لكن البوهيمية لم تضطرب البتة أمام الحاحه .. ثم استطرد يقول : « لكن المعسكر يضم آلافا من الأسرى يا سنجار ، وأنت تقولين انك لا تعرفين ميشيل ستروجوف ! »

فقالت : « نعم ، انا لا أعرفه ، لكن أمه تعرفه .. ايفان ، يجب حمل المرأة على الكلام ! » . فقال : « غدا .. ستتكلم ! »

وأشرق وجه الغجرية بفرحة وحشية ، ومد أوجاريف يده اليها مودعا ، وحين عادت الى المعسكر لزمت مكانا قريبا من مارفا ونادية ، وقضت الليلة ترقبهما ، وقد لاحظت انهما لم تناما طيلة الليل ، برغم التعب الذي هدهما ، فقد ذاد قلقهما النعاس عن اجفانهما . ان ميشيل ستروجوف حي ، لكنه أسير مثلهما ، فهل يعرف ايفان أوجاريف ذلك ؟ .. واذا كان لم يعرفه بعد فهل لن يعرفه في القريب ؟

وكانت سنجار الى قرب المرأتين ، وقضت ساعات ترهف سمعها ، لكنها لم تسمع شيئا ، فقد لزمت كلتاهما الحذر التام فلم تنبسا بكلمة !

وفي صبيحة اليوم التالي ، نحو الساعة السادسة ، قرعت الطبول ونفخ في النفير ، وأقبل ايفان أوجاريف يبدو على وجهه الحنق المكتوم الذي يترقب فرصة للانفجار ، وحين رآه ميشيل ستروجوف وهو بين صفوف الأسرى أحس ان كارثة توشك ان تقع ، ولم يكد الكولونيل يصل الى قلب المعسكر حتى ترجل عن جواده والتف فرسان حرسه حوله في شبه دائرة ، وفي تلك اللحظة اقتربت منه سنجار وهمست له : « ليس لدي جديد يا ايفان ! » .. فلم يجب الا باصدار أمر مختصر الى واحد من ضباطه . وفي الحال انتشر الجنود بين الأسرى ينظمون صفوفهم على عجل ويستحثونهم بضربات السياط ووخزات الرماح .. ثم عقدوا حولهم نطاقا فولاذيا يستحيل معه على أحدهم أن يفكر في الفرار

وساد الصمت المطلق ، وبناء على اشارة من ايفان اوجاريف اتجهت سنجار نحو الجهة التي تقف فيها مارفا ستروجوف ، فلما رأتها هذه مقبلة نحوها همست لنادية من خلال أسنانها ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة الثقة بنفسها : « تظاهري بأنك لا تعرفينني يا ابنتي ، ومهما يحدث ، ومهما تبلغ قسوة المحنة لا تنبسي بكلمة أو حركة ·· حرصا على حياته هو لا حياتي ! »

وفي اللحظة التالية اقتربت منها سنجار ووضعت يدها على كتفها ، فقالت لها : « ماذا تريدين مني ؟ » · فقالت : « تعالي ·· ! » · ودفعتها بيدها نحو الساحة الواقعة امام ايفان اوجاريف ، فلما بلغت العجوز مكانه اعتدلت في وقفتها وعقدت ذراعيها فوق صدرها ، وانتظرت :

وسألها : « أأنت مارفا ستروجوف ؟ » · قالت : « نعم »

فقال : « الا تعدلين عن أقوالك التي اجبتني بها منذ أيام في اومسك ؟ »

قالت : « لقد قلت كل ما عندي ! » · فقال : « أتجهلين ان ابنك ميشيل ستروجوف ، رسول القيصر ، قد مر باومسك ؟ » · قالت : « نعم »

فقال : « والرجل الذي ظننته ابنك في محطة البريد ؟ الم يكن هو ؟ » · قالت : « لم يكن ابني ·· ! »

قال : « ومنذ تلك الساعة لم تريه وسط هؤلاء الاسرى ؟ » · قالت : « كلا »

وامام هذه الاجابة التي نمت عن اصرار تام على انكار كل شيء ، سرت بين الجماهير همهمة مسموعة ·· فلوح لها ايفان مهددا واستطرد يقول للعجوز : « اسمعي ·· ان ابنك هنا ، وسوف تدلين عليه فورا ! ·· سوف يتتابع امامك جميع هؤلاء الاسرى ، واذا لم ترشدي الى ميشيل ستروجوف فسوف تنالين جلدات بالسياط بعدد هؤلاء جميعا ! »

وكان ايفان اوجاريف يدرك جيدا ان المرأة لن تتكلم برغم اي تهديد او تعذيب · ومن ثم كان يعتمد لاكتشاف غريمه على ما قد يبدو عليه من انفعال حين يلتقي بأمه وجها لوجه ·· وقد كان في استطاعة ايفان أن يأمر بتفتيش الأسرى جميعا ، لضبط الرسالة ، لكنه كان يخشى أن يكون الفتى قد حفظ ما فيها وأعدمها ·· واذن فلا مفر من الحيلولة دون وصول الشاب نفسه الى اركوتسك ، لا الرسالة فقط !

وكانت نادية قد سمعت كل شيء ، وادركت لم اراد الشاب ان يعبر المناطق المحتلة متخفيا · وسرعان ما بدا طابور الأسرى يتتابع امام مارفا ستروجوف ، التي ظلت جامدة كتمثال ، دون أن يبدو الانفعال في نظراتها لأي أسير · وكان ابنها في الصفوف الأخيرة ، فلما مر أمام أمه أغمضت نادية عينيها كيلا ترى ما قد يحدث · واستطاع الفتى الاحتفاظ بثباته في الظاهر · فانتهى العرض بهزيمة أوجاريف على يد الأم وابنها ! ·· واذ ذاك همست له سنجار : « السوط ! » ·· فصاح منفعلا : « نعم ·· السوط لهذه الشمطاء حتى تموت أو تتكلم ! »

واقترب من المرأة جندي من التتار ، حاملا آلة العذاب الرهيبة المصنوعة

من خيوط الحرير المفتول ، والتي تكفي مائة وعشرون جلدة منها لقتل المحكوم عليه ·· وكانت مارفا تعرف ذلك ، لكنها كانت تعرف ايضا ان افظع عذاب لن يحملها على الكلام ، ولو استشهدت في سبيل الكتمان !

والقيت مارفا على ركبتيها على الأرض ، بمعاونة جنديين ، ومزق ثوبها من الخلف فظهر ظهرها عاريا ، وثبت خنجر امام صدرها بحيث اذا انهارت تحت وقع السياط نفذ الخنجر في قلبها ! ·· ووقف الجندي امامها ينتظر الأمر بالتنفيذ

وصاح به أوجاريف : « هيا ·· ! » · فشق صفير السوط الهواء ، ولكن قبل أن يهوى على ظهر المرأة اختطفته يد قوية من الجلاد ! ·· واذا ميشيل ستروجوف يجابه غريمه وجها لوجه .. لقد ضعف امام المنظر الرهيب ، ولئن كان قد احتمل سوط ايفان أوجاريف في محطة ايشيم فانه لم يقو على احتمال أن يهوى على ظهر امه الآن ! ··

وصاح أوجاريف ظافرا : « ميشيل ستروجوف ! » ·· ثم تقدم منه خطوة ، وعاد يصيح : « آه رجل ايشيم ؟ » ·· فأجابه الشاب : « هو بعينه ! » ·· ثم رفع السوط وهوى به على وجه ايفان أوجاريف فمزقه ، وهو يقول : « واحدة ·· بواحدة ! » ·· وصاح متفرج لم يميزه احد بين صفوف الأسرى : « أحسنت ! »

وفي اللحظة التالية انقض عشرون جنديا على ميشيل ستروجوف حتى كادوا يقتلونه ، فهتف بهم ايفان اوجاريف غاضبا : « هذا الرجل مدخر لعدالة الخان ·· فتشوه ! »

وحين فتشوه عثروا على رسالة القيصر بين طيات ثيابه ، ولم يكن قد وجد وقتا لاعدامها ، فسلمت فورا الى ايفان اوجاريف !

ولم يكن المتفرج الذي هتف بقوله : « احسنت » غير الصحفي الفرنسي جوليفيه ، الذي توقف وزميله بلونت في « زابديرو » لتتبع آخر الأنباء ، فأتيح لهما ان يحضرا المشهد السالف ·· واجابه بلونت هامسا : « لقدعرف البطل كيف ينتقم لحادث ايشيم ، لكنه قضى على نفسه بالموت .. وكان خيرا له كي يتم مهمته الا يظهر الى النهاية ! »

فقال : « كيف ؟ .. ايترك امه تموت بالسياط ؟ ! »

فقال : « وهل حقق الآن مصيرا افضل ، سواء لها او لنفسه او لأخته ؟ » · فقال جوليفيه : « انها قصة تستحق أن تنشر على أية حال ·· وليت ايفان اوجاريف يطلعنا على محتويات الرسالة ! »

وفي أثناء ذلك ، كان ايفان اوجاريف ، بعد أن مسح الدم عن وجهه ، قد فض أختام رسالة القيصر وقرأها بامعان مرة ومرات كأنما أراد أن ينفذ الى خباياها ·· ثم أمر بأن تشدد الحراسة على ميشيل ستروجوف في الطريق الى تومسك ·· وبعد دقائق كان يتقدم الجيش الى حيث ينتظره الخان في تلك المدينة !

الفتح الظافر

كان الخان يتأهب لاستقبال جيوشه الظافرة في تومسك بالاحتفـالات الباهرة التي تموج بالغناء والرقص والمجون والخلاعة ، وقد اختـار لتلك الاحتفالات ـ طبقا للذوق الآسيوي ـ مساحة كبيرة تقع فوق التل الذي يشرف من ارتفاع مئات الأقدام على مجرى نهر توم .. حيث يحفل الأفق بالمباني الأنيقة والكنائس ذات القباب الشاهقة والغابات الغارقة في الضباب الداكن والخضرة التي تتناثر وسطها أشجار الأرز والصنوبر .. وإلى يسار الساحة أقيم نموذج لقصر ذي هندسة غريبة يمثل صروح التتار وسلاطين بخارى ، كما أقيمت شرفات خصصت للخان وحاشيته وحريمه وحريم كبار رجال دولته

وكانت بين أولئك « السلطانات » اللواتي اشتراهن من أسـواق العبيد في بلاد القوقاز والعجم ، المحجبات والسافرات .. لكنهن جميعا كن يرتدين أفخر الثياب التي تدع أذرعهن عارية تظهر الأساور الكثيرة المثبتة إلى بعضها البعض بسلاسل من الأحجار الكريمة .. عدا سراويلهن الزاهيـة وأرديتهن الحريرية التي تحدث حفيفا ورفيفا محببين إلى قلوب الشرقيين ، وكان يلفت النظر فيهن عيونهن النجل وأسنانهن اللؤلؤية وبشرتهن الخمرية وأجفانهـن المكحلة وأهدابهن الطويلة

وكان ينتشر تحت تلك الشرفة المخصصـة للخان عدد كبير من الحراس المسلحين بشتى أنواع الأسلحة ، تأهبا لأي حادث ، وحول الساحة كلهـا يزدحم جمهور غفير يمثل جميع عناصر أهل آسـيا الوسطى ، من تركمان ومنشوريين ومغول وبخاريين وعجم وصينيين وتركستانيين ، ومع بعضهـم نساؤهم اللواتي تنوعت أزياؤهن وأشكالهن . ولم يتخلف عن حضور المهرجان غير أهل سيبيريا الذين فر بعضهم ولزم الآخرون بيوتهم خشـية السلب والنهب في نهاية الاحتفال !

وفي الساعة الرابعة دخل الخان ساحة المهرجان بين أصوات الطبـول والزمار والمدافع والنفير ، ممتطيا صهوة جواده الخاص الذي علقت على جبينه حلية من الماس البراق . وكان يرتدي زيه الحربي ، وإلى جواره كبار رجال حاشيته وحكومته وأركان حربه .. وفي تلك اللحظة ظهرت في الشرفة أولى ساه فيوفار ، سلطانة بخارى ، وكانت من أصـل فارسي ، وتمتاز بجمال صاعق . وخلافا للتقاليد ، واتباعا لنزوة طارئة من نزوات الخان ، ظهـرت امرأته الأولى أمام الملأ سافرة الوجه ، ينسدل شعرها على كتفيها الناصعتين اللتين لا يكاد يسترهما الشال الحريري المذهب الشفاف .. وتزدحم ثيابها



« وأخذ الخان وحاشيته مجلسهم تحت خيمة فاخرة أقيمت وسط الشرفة الأولى .. »

مختلف أنواع الحلى الثمينة من ذهب وفضة وفيروز وزمرد وكهرمان وياقوت وغيرها ، حتى لقد بدت الثياب وكأنها نسجت من الأحجار الكريمة ٠٠ أما جيدها ورقبتها ورسغاها وقدماها فقد تلألأت بآلاف من الماسات التى تزيد قيمتها على المليون روبية !

وترجل الخان وحاشيته عن جيادهم ، واتخذوا مجلسهم تحت خيمة فاخرة أقيمت وسط الشرفة الأولى ، وأمام الخيمة كالعادة، وضع المصحف على قاعدته الخاصة ، وقبيل الساعة الخامسة علت أصوات النفير والأبواق معلنة وصول الساعد الأيمن للخان ، أو مستشاره الأول : ايفان أوجاريف ، وكان يرتدى فى هذه المرة سترة التتار العسكرية ، وتقدم بجواده أمام خيمة الخان ، يحيط به فريق من جنود معسكر زابديرو، الذين احتشدوا فى أركان الساحة بحيث لم يبق مكان لغير المسرح الذى ستعرض عليه الملاهى المنـــوعة ٠ وكان بين المتفرجين الصحفيان جوليفيه وبلونت اللذان رغبا فى حضور احتفالات التتار بدخول تومسك قبل أن يستأنفا سفرهما الى أركوتسك بغية الانتقـــال الى صفوف الروس بعد أن رأوا الكفاية من همجية التتار وحرائقهم وجرائمهـــم ونهبهم وسلبهم الى حد عافتها معه نفساهما .. وهكذا جلسا يشـــبعان فضولهما ويستمدان موضوعات لتعليقاتهما من مشاهدة المهرجان بكل دقائقه، وأبهة الخان ، ونسائه وحريمه ، وجيشه ، وحراسه ، لكنهما لم يملكا نفسيهما من الاشمئزاز حين مثل ايفان أوجاريف أمام الخان تمهيدا لبدء الاحتفال

وكانت البداية أليمة بالنسبة لذوى المشاعر المرهفة ، فان الاحتفال بالنصر لم يكن ليكمل بغير اذلال المهزومين أمام الملأ .. ومن ثم هوت سياط الجنود على مئات من الأسرى بلا رحمة ، وهم يمرون أمام الخان قبل أن تحتويهـــم سجون المدينة !٠٠ ثم جاء دور ميشيل ستروجوف فى المرور ، وكان يتـولى حراسته حرس خاص طبقا لأوامر ايفـــان أوجاريف ٠ وتوجست أمه شرا ، فقد كانت تعلم أن أوجاريف ليس بالذى ينسى الاساءة ، وانه لابد سـينتقم للسوط الذى أهوى به غريمه على وجهه علانية انتقاما تتجلى فيه همجية التتار فى أبشع صورها ٠٠ وكان الذى يؤلم الأم بصفة خاصة أنها هى التى تسببت فى هذا الهول الذى يوشك أن يلحق بابنها ، فلو سـيطرت على عاطفتها حين لقيته فى محطة أومسك لواصل الشاب رحلته ووصل الى غايته فى أمان !

جاء دور ستروجوف فى المثول امام الخان ، فهتف به اوجاريف : « عفر جبهتك بالتراب ! »

فأجاب الشاب : « لن أفعل ! » . وللحال امتدت أيدى جنديين لقهره على الانحناء ، فكان نصيبهما الالقاء بهما على الأرض بدفعة قـــوية من ساعده المفتول !

وصاح ايفان أوجاريف غاضبا : « سيكون الموت نصيبك ! »

فأجاب ستروجوف مزهوا : « سأموت ، لكن الأثر الذى خلفه السوط على وجهك أيها الخائن لن يزول أبد الدهر ! »

وعند هذا شحب وجه ايفان شحوبا شديدا ، فسأله الخان مستفسرا : « من يكون هذا الأسير ؟ » .

فقال : « جاسوس روسي ! » .

وبنطقه هذه العبارة ادرك اوجاريف اي عقاب صارم رهيب اراد ان ينزل بالشاب .. وتقدم ميشيل خطوة نحو ايفـان ، فاوقفه الحراس .. واذ ذاك أومأ الخان باشارة انحنت له الجماهير على اثرها طائعة ، ثم حمل اليه المصحف الشريف ففتحه ووضع اصبعه على سطر منه كيفما اتفق . وكانت تلك عادة يلجأ اليها الشرقيون كثيرا لمعرفة الطالع وتقرير الخطط ، ويسمونها « الفال » . وعلى اثر ذلك تناول كبير العلماء المصحف وقرأ بصوت مسموع الآية التي وقعت عليها اصبع الخان

وحين فرغ من تلاوتها التفت الخان الى ستروجوف وقال له وهو يشير نحوه باصبعه مهددا : « جاسوس روسي؟ أجئت لترى ما يجري في معسكر التتار ؟! اذن .. انظر بكل طاقة عينيك .. » .

واجلس ميشيل ستروجوف مقيد اليدين تحت عرش الخان ، على سلم الشرفة .. ولا ريب ان ايفان اوجاريف ، الخبير بتقاليد التتار ، فهم ماينطوي عليه تهديد الخان ، فقد افترت شفتاه عن ابتسامة شماتة قاسية ، ثم جلس الى جوار مولاه .. وفي اللحظة التالية دوى النفير مؤذنا ببدء استعراضات اللهو والطرب ، ونظر ميشيل ستروجوف الى حيث أمر ان ينظر

خرجت الى الساحة أسراب من الراقصات والعازفات على « الدوتار » و« الماندولين » وغيرها من آلات موسيقى التتار ، ثم بدأ الرقص . وكانت الراقصات من أصل فارسي ، يرتدين أزياءهن الوطنية وحليهن الباهرة ، وقد رحن يعرضن مختلف الرقصات التي يحذقنها ، منفردات ومجتمعات ، وكانت وجوههن سافرة ، ولكن بين الفينة والفينة كن يتشحن بخمار شفاف يريدهن فتنة ، ويبدو مثل سحابة من الضباب تتابع على عيونهن البراقة .. لكن الذي ادهش « جوليفيه » منهن انهن كن أميل الى التراخي والبلادة منهن الى الحيوية الموفورة ، أقرب الى راقصات الهند الوقورات منهن الى راقصات مصر المثيرات للحواس !

ولم يكد ينتهي الاستعراض الأول حتى سمع صوت يصيح بستروجوف في صرامة وتشفٍ : « انظر بكل طاقة عينيك ، انظر ! » .. كان صاحب الصيحة رجل من التتار طويل القامة شديد البأس ، هو الجلاد المنفذ لأوامر الخان العليا ، وكان يجلس خلف ميشيل ستروجوف وفي يده خنجر مدبب ، والى جواره موقد تشتعل فيه قطع من الفحم بغير دخان ظاهر ، وان تصاعد منها بخار خفيف صادر عن مواد أخرى خلطت بالفحم ، هي خليط من اللبان والبخور الجاوي !

ثم أعقب فريق الراقصات الفارسيات فريق آخر من جنس مخالف عرفه ميشيل ستروجوف على الفور ، كما عرفه الصحفيان ، فقد التفت بلونت على الأثر نحو زميله قائلا : « أتذكر ، انهن غجريات نيجني نوفجورود ! » ..

فأجابه جوليفيه مؤمنا : « نعم ، وأحسب أن عيون هؤلاء الجاسوسات تجلب عليهن مالا أكثر من سيقانهن ! » .

وكانت في مقدمتهن سنجار ، وقد ارتدت زيا باهرا زادها جمالا واغراء . لكنها لم تكن ترقص ، وانما وقفت كتمثال وسط زميلاتها اللواتي رحن يرقصن رقصات شتى البلاد التي يجبنها : بوهيميا ومصر وايطاليا واسبانيا وغيرها .. وبين حين وآخر كانت سنجار تستحث بقية الرهط بصاجات تقرعها بيديها .. ثم تقدم فتى لا يزيد على الخامسة عشرة ، وفي يده آلة موسيقية راح يعزف عليها ويغني غناء شجيا ، بينما جعلت احدى زميلاته ترقص رقصة مثيرة . وفي النهاية نثر الخان وحاشيته على الفرقة قطعا كثيرة من الذهب ، من شتى فئات العملة التي نهبها التتار اثناء غزواتهم . وحين صمت الضجيج ارتفع صوت الجلاد يردد عبارته الرهيبة وهو يضع يده على كتف ستروجوف بقوة : « انظر بكل طاقة عينيك ، انظر ! » .

وكانت الشمس قد أخذت تنحدر نحو الأفق ، وتباشير الظلمة قد بدأت تزحف على السهول ، فتزيد كتلة أشجار الأرز والصنوبر قتاما على قتام .. ومياه نهر التوم تزداد سوادا على سواد .. والليل لا ينى يزحف على التل الذي يشرف على المدينة وتقام فوقه الاحتفالات

وفجأة أقبل على المكان مئات العبيد يحملون المشاعل المتوهجة ، بينما اشتدت حركة الراقصات الغجريات عنفا ووحشية ، وازدادت الآلات الوترية صخبا وضجيجا ، وجعل المفتونون يتصايحون صيحات حادة مخيفة .. ثم أقبلت فصيلة من التتار في زيهم الحربي فشاركت في الرقص والضجيج ، وأخذ افرادها يطلقون النار من مسدساتهم في الهواء . ثم انطفأت جميع المشاعل فجأة ، وتوقفت جميع الراقصات ، واختفت الراقصات ، وبدا كأن المهرجان قد انتهى ، وباشارة من الخان احضر ميشيل ستروجوف الى وسط المكان ، فالتفت جوليفيه الى زميله وقال : « أتعتزم أن تشهد نهاية المأساة ؟ » .

فقال : « كلا ، ان قرائي في غنى عن وصف هذه المشاهد ! » .

فقال : « يا للفتى المسكين ، انه كان يستحق أن يموت في الميدان ميتة أفضل من هذه ! » .

قال : « ألا نستطيع أن نفعل من أجله شيئا ؟ » ، فهز رأسه آسفا

وخرج الصحفيان من المكان وهما يتذاكران شهامة ميشيل ستروجوف بازائهما أثناء رحلتهم المشتركة . وبعد ساعة كانا ينهبان الطريق الى أركوتسك ، على أن يقفا على تفصيل « حملة الانتقام » هذه بعد أن ينضما الى صفوف الروس

وفي أثناء ذلك كان ميشيل ستروجوف قد أوقف أمام الخان ، وفي عينيه نظرة احتقار له ولايفان اوجاريف . كان يتوقع الموت على ايديهما ، لكنهما عبثا حاولا ان يتبينا في مسلكه امارة ضعف أو تخاذل !

وأومأ الخان ايماءة أخرى ، فدفعوا الشاب نحو عرشه خطوات ، واذ ذاك هتف به في لهجة تشفٍ : « لقد جئت تستطلع ، يا جاسوس الروس ، فتمتعت

نظرك لآخر مرة .. وبعد لحظة سوف تغمض عيناك عن النور الى الأبد ! »

اذن فقد حكم على ميشيل ستروجوف بما هو أمر من الموت ، بالعمى !

وبرغم ذلك فان الشاب وهو يسمع الحكم الرهيب عليه لم يضعف .. وانما ظل بلا حراك ، مفتوح العينين الى أقصاهما ، كأنما يريد أن يركز حياته كلها في نظرة أخيرة .. فان استجداء الرحمة من هؤلاء الوحوش كان في نظره عقيما ، ومزريا ، ومن ثم لم يفكر فيه لحظة .. وانما فكر في مهمته المقضي عليها بالفشل ، وفي أمه ، ونادية ، اللتين لن يراهما الى الأبد .. لكنه لم يظهر شيئا من الانفعالات التي تعتمل في نفسه ، وأحس برغبة قوية في أن ينفذ نوعا من الانتقام ، على قدر طاقته ، فالتفت الى ايفان أوجاريف وقال له بلهجة تهديد : « ايفان ، أيها الخائن ، ان آخر لعنة تصدر من عيني سوف تكون لك ! » . فهز ايفان أوجاريف كتفيه استهزاء . وفي تلك اللحظة اقتربت منه أمه ، تهتف بها : « أماه ، ابقي أمامي كي أودع نور الحياة وأنا أتملى وجهك الحبيب . فتنطفيء عيناي وأنا أنظر اليك ! »

فاقتربت منه أكثر ، لكن ايفان أوجاريف صاح بجنوده : « اطردوا هذه المرأة ! » ، فدفعها جنديان الى حيث وقفت على بعد خطوات من ولدها !

وظهر الجلاد .. وفي هذه المرة كان يحمل في يده خنجره المحمى على نار الفحم ، وفقا لتقليد التتار في سلب البصر بالسلاح الحاد المحمى !

ولم يحاول ميشيل ستروجوف أن يقاوم . لم يعد وجوده يتركز في غير أمه . التي يلتهمها بنظرته الأخيرة مودعا .. ان حياته كلها في هذا المشهد الأخير الحبيب . ونظرت اليه مارفا وهي تمد نحوه ذراعيها لوعة .. ومر السلاح المحمى على عيني الشاب .. وندت عن المرأة العجوز صرخة يأس ، وسقطت على الأرض فاقدة الوعي !

ان ميشيل ستروجوف قد صار .. أعمى !

وانسحب الخان مع حاشيته من المكان ، بعد أن تم تنفيذ مشيئته .. ولم يبق في الساحة غير ايفان أوجاريف وحملة المشاعل .. فاقترب ايفان ببطء من ضحيته ، وأحس ستروجوف باقترابه فنصب قامته .. ثم أخرج الخائن من جيبه رسالة الامبراطور ، وفتحها ، وفي سخرية لاذعة وضعها امام عيني الشاب المطفأتين ، قائلا : « اقرأ الآن يا ميشيل ستروجوف ، اقرأ ..واذهب فأعد في اركوتسك ما قرأته !.. ان رسول القيصر الحقيقي هو : ايفان أوجاريف ! »

ثم دس الآثم الرسالة في ثوبه ، وغادر المكان ، يتبعه حملة المشاعل .. بينما بقي ميشيل ستروجوف وحده ، على بعد خطوات من أمه الساكنة الحركة ، والتي لعلها ماتت !

ومن بعيد كانت تسمع صيحات السكارى والمغنين .. كانت تومسك الضيئة تتوهج كمدينة في عيد !

وارهف الشاب سمعه ، لكن المكان كان صامتا موحشا ، فجر نفسه متحاملا نحو المكان الذي سقطت فيه أمه .. فعثر عليها ، وانحنى يتحسسها بيديه ويقرب وجهه من وجهها ، ويتسمع دقات قلبها .. ثم بدا كأنه يكلمها بصوت خافت

ترى هل كانت العجوز حية تسمع ما يقوله ولدها ؟ انها لم تحرك ساكنا، فلثم الشاب جبهتها وشعرها الأبيض ، ثم نهض يتحسس طريقه نحو أقصى المكان

وفجأة ظهرت نادية .. فاتجهت نحوه مباشرة ، وبالخنجر الذي كانت تحمله قطعت القيود التي تقيد ذراعيه ، ثم همست له : « أيها الشقيق ! »

فهتف بها : « نادية ؟ .. نادية ؟ »

فقالت : « تعال أيها الشقيق ، منذ الساعة ستكون عيناي لك عينين ، وسأكون أنا التي تقودك الى اركوتسك ! »



صديق فى الطريق

بعد نصف ساعة كان ميشيل ستروجوف ونادية قد غادرا تومسك . ولم تكن نادية هى الوحيدة من الاسرى التى استطاعت الفرار فى تلك الليلة ، فان فرحة الاحتفال بالنصر قد اثرت الحراس بشىء من التكاسل والاهمال فى تشديد الحراسة على الاسرى ، بعد الرقابة الطويلة والسهر المتواصل .. وهكذا استطاعت الفتاة بعد ان سبقت مع الاسرى ان تفر من حراسها وتعود الى مسرح المأساة ، حيث شاهدت كل شىء .. وفيما كانت السكين المحماة تنتزع البصر من صديقها الشاب استطاعت ان تقمع مشاعرها ، فلم تبس بكلمة او حركة تلفت الأنظار اليها .. وانثال الى ذهنها الهام عاجل : « سوف اكون بالنسبة للاعمى بمثابة الكلب الذى يقوده ! » .. وبعد ان ذهب ايفان اوجاريف تدثرت بالظلام وانتظرت حتى انفضت الجماهير وترك ميشيل ستروجوف وحيدا مهملا ، اذ لم يعد ثمة خطر منه ؛ ثم برزت من مكمنها فى اللحظة التى كان فيها الشاب يقبل امه المغمى عليها ويتأهب للفرار !

وبعد دقائق كانا يهبطان التل ؛ يدها فى يده ؛ وبعد ان تبعا مجرى النهر حتى آخر حدود المدينة وضعا اقدامهما على طريق اركوتسك ، ولم يجدا صعوبة فى الاهتداء اليه ، فقد كان الطريق الوحيد الذى يتجه نحو الشرق .. وقادت نادية مرافقها باقصى سرعة وفى عزمهما ان يصلا الى كراسنويارسك التى تبعد عن تومسك خمسمائة فرسخ قبل ان يبلغها التتار ، والا تعرضا لخطر تحطيم المواصلات

كيف استطاعت نادية احتمال متاعب ليلتى ١٦ و ١٧ اغسطس ؟.. كيف وجدت القوة الجسدية اللازمة لقطع مثل تلك الرحلة الطويلة .. ؟.. كيف استطاعت قدماها ان تحملاها الى « سيمبلوفسكاو » التى بلغاها فى الصباح التالى بعد مسيرة اثنتى عشرة ساعة ، قطعا فيها خمسين فرسخا ؟!

وطيلة المسافة لم ينطق ستروجوف بكلمة ، وحين وصلا ، وجدا البلدة مهجورة الا من بضع بيوت احتفظت بساكنيها ، بينما فر الباقون بامتعتهم على عربات هربا من الغزاة . وجلست نادية ومرافقها على اول مقعد صادفاه ، وهناك طفقت الفتاة تتأمل الشاب لاول مرة بحرية كاملة وهى آمنة من ان يرى نظرتها التى تفيض بالتفانى والرقة الخالصة .. وكانت اهداب الاعمى تغطى نصف عينيه الجافتين اللتين اتلفت حرارة الصلب المحمى اعصاب الرؤية فيهما ، وان احتفظتا بنفس النظرة الاخاذة التى كانت لهما قبلا .. وفى تلك اللحظة مد ميشيل يده يتحسس مرافقته ، وقال لها : « اهذه انت يا نادية ؟ »

فقالت : « نعم ؛ انا بقربك ، ولن اتركك قط يا ميشيل ! »

وكانت هذه اول مرة تناديه فيها باسمه ، فارتجف وقد ادرك انها فهمت كل شىء عن شخصيته ؛ وقال لها : « نادية ، لا مفر من ان ننفصل ! »

فصاحت قائلة : « ولم ننفصل يا ميشيل ؟ »

قال : « لست اود ان اكون عقبة فى رحلتك .. ان اباك ينتظرك فى اركوتسك ويجب ان تلحقى به »

فقالت : « كم ابى ليلعننى يا ميشيل لو تخليت عنك بعد كل ما فعلته من اجلى ! »

فقال : « نادية ، نادية ، ينبغى الا تفكرى الا فى ابيك ! »

فقالت : « ميشيل ؛ انك بحاجة الى اكثر من ابى .. فهل تزمع العدول عن الذهاب اركوتسك ؟ » . قال : « لا »

قالت : « لكنك فقدت الرسالة التى كنت تحملها »

فقال : « العفو عن الرسالة التى سرقها ايفان اوجاريف ! سوف اكون فى غنى عنها . لقد عاملونى كجاسوس .. الآن سأتصرف كجاسوس ، سوف انقل الى اركوتسك كل ما رأيت وسمعت . واقسم امام الله ان الخائن سيجدنى امامه مرة اخرى وجها لوجه ، ولكن يجب ان اصل قبله ! »

فقالت : « وتتحدث عن انفصالنا ! » . فقال : « لقد سلبنى التعساء كل شىء ! »

قالت : « بقيت معى بضع روبيات ، وعيناى !.. استطيع ان ارى لك واقودك الى حيث تريد »

فقال : « وكيف نذهب ؟ » . قالت : « على اقدامنا »

قال : « وكيف نعيش ؟ » . قالت : « من التسول ! »

فقال : « الآن هيا بنا يا نادية ..! » . قالت : « هيا .. يا ميشيل ! »

وكانا قد استراحا ساعة ، فنهضا .. وبدأت نادية تمارس دور المتسولة فاستطاعت الحصول على ما يسد رمقيهما ويطفىء ظمأهما ؛ وبعد ان اكلا وشربا سلكا طريق اركوتسك ، وكانت الفتاة تقاوم التعب والاجهاد بنشاط دون اى تذمر . اما ميشيل فكان يتحامل على نفسه ويأمل متى بلغ كراسنويارسك ان يقنع حاكمها العام بشخصيته ويحصل منه على الوسائل التى توصله الى اركوتسك باقصى سرعة . وفى انتظار ذلك سار الاثنان مستغرقين فى افكارهما ، لا يتكلمان الا قليلا ؛ كأنما كانت ايديهما المتشابكة تغنيهما عن الكلام وتتكفل بنقل افكارهما .. ولكن بين حين وآخر كان ميشيل يقول : « تكلمى يا نادية ! » .. فتجيبه بصوت تحاول ان تخلو من اثر الاجهاد : « نعم يا ميشيل .. انا نفكر سويا ! »

ولكن بعد مرور ساعتين من تركهما كراسنويارسك توقف ميشيل بغتة وسأل الفتاة : « هل الطريق مهجور ؟ » . فقالت : « تماما »

قال: « ألا تسمعين صوتا من بعيد ؟ » . قالت: « نعم اسمع »

فقال: « ربما كان صوت التتار قادمين .. فلنختبىء .. انظرى جيدا »

وصعدت الفتاة مرتفعا على جانب الطريق ثم عادت تقول: « انهـا عربة يقودها شاب »

فسألها: « أهو يسير وحده ؟ » . قالت: « نعم »

فتردد ميشيل هنيهة وهو يسائل نفسه: أيختبىء خشية أن يكون القادم من الأعداء، أم يغامر بانتهاز الفرصة لعله يجد مكانا فى العربة، ان لم يكن لنفسه فلنادية على الأقل، بينما يسير هو متكئا على العربة وبمحاذاتها ؟

وقرر أن يجازف، وأقبلت العربة يقودها شاب بجواره كلب يؤنسه . وادركت نادية من هيئة الشاب أنه روسى، يوحى بالثقة . وكان يسير الهوينى وكأنه لا يدرك أن التتار قد يقطعون عليه الطريق لو ادركوه . وحين حاذى المسافرين اوقف العربة ونظر الى الفتاة مبتسما، وقال: « اين تزمعان الذهاب هكذا ؟ »

فأجابه ميشيل ستروجوف: « الى اركوتسك »

فقال الشاب: « ألا تعلم أن بينك وبينها فراسخ وفراسخ ؟ » . قال: « اعلم ذلك »

فقال الشاب: « وتذهب اليها ماشيا ؟ » . قال: « نعم »

فقال: « قد تقوى أنت، ولكن الآنسة .. » . فقال ستروجوف: « انها اختى »

قال: « فلتكن اختك، ولكن صدقنى انها لن تستطيع أن تبلغ اركوتسك قط ! »

فقال ستروجوف: « أيها الصديق .. لقد سلبنا التتار نقودنا، وليس معى ما ادفعه لك، ولكن اذا استطعت أن تأخذ اختى الى جانبك فانى على استعداد لأن اتبع عربتك على قدمى، ولو عدوا اذا اقتضى الأمر .. ولن اعوقك لحظة ! »

وهنا قالت نادية للشاب: « سيدى .. ان اخى اعمى ! »

فصاح الشاب فى دهشة: « اعمى ! ! »

قالت: « نعم .. لقد احرق التتار عينيه ! »

فازداد الشاب دهشة وقال: « احرق التتار عينيه !. يا المسكين !. انني ذاهب الى كراسنويارسك فاصحبانى الى هناك، تستطيع أن تجلس ثلاثتنا معا ونضع الكلب تحت أقدامنا »

فقال ستروجوف: « شكرا لك أيها الصديق. ما اسمك ؟ » قال: « نيقولا بيجانوف »

فقال: « لن انسى هذا الاسم »

وقال له الشاب: « هيا اصعد انت واختك، وستجدان بعض الطعام فى مؤخرة العربة »

ولم تكد تسير بهم العربة قليلا، حتى اماتت حركتها الرتيبة الفتاة على النعاس، بعد الاجهاد الطويل .. واذ ذاك قال نيقولا لستروجوف: « انهـا طريفة » . فقال ستروجوف: « نعم »

فسأله الشاب: « هل انتما آتيان من بعيد ؟ » . قال: « نعم .. من بعيد جدا ! »

فقال: « يا لكما من مسكينين !. لابد أن حرق عينيك قد آلمك ؟ » . فقال: « واى ألم ! »

فسأله: « ألم تبك ؟ » . فقال: « بلى »

فقال: « لو كنت مكانك لبكيت ايضا .. ينبغى التفكير فى أن الانسان لن يرى من يحب ! ولكنهم يرونك، ولعل فى هذا بعض العزاء ! »

فقال: « ربما .. ولكن قل لى أيها الصديق، ألم ترنى فى مكان ما من قبل ؟ »

فقال: « أنت ؟. كلا .. مطلقا ! »

فقال: « ان صوتك يبدو مألوفا لأذنى »

قال: « لعلك تقول هذا لتعرف من أين أنا قادم، أنا قادم من كوليفان »

فقال: « من كوليفان ؟. بالضبط، هناك قابلتك .. ألم تكن فى مكتب التلغراف ؟ »

قال: « هذا صحيح، كنت المكلف بارسال البرقيات »

قال: « أتذكر يوم تشاجر صحفيان فرنسى وانجليزى على اسبقية الوقوف امام نافذتك، وضمن الانجليزى برقيته آيات من التوراة ؟ »

قال: « هذا جائز، لكنى لا اذكره .. فانى لا اقرأ البرقيات التى ارسلها ما دام واجبى يقتضينى أن انساها فالأسهل أن اجهلها ! »

ومضت العربة بركابها الهوينى كدابها، كانت تسير ثلاث ساعات وتستريح ساعة — من أجل الجواد — طيلة النهار والليل .. وفى اثناء الاستراحة كان الركاب الثلاثة يتناولون الطعام مع الكلب المخلص سيركو . وكانت المؤن التى فى العربة تكفى لعشرين شخصا، وقد وضعهـا نيقولا تحت تصرف نادية وميشيل فى كرم بالغ

وبعد يوم من الراحة استردت نادية بعض قواها، ومضت الرحلة رغم بطئها فى سير منتظم وفى ظروف ملائمة .. واحيانا كان النعاس يغلب نيقولا فيغفى قليلا، واثناء ذلك كان ميشيل يتناول الزمام فيسرع فى السير، ثم تعود العربة الى سيرها البطىء حين يستيقظ صاحبها

وعلى هذا المنوال بلغ الركب نهر « ايشيمسك » ثم نهر ماريسك فمجرى ماء « تشولا » الذى يفصل سيبريا الشرقية عن سيبريا الغربية . وكان الطريق احيانا منبسطا يمر وسط الحقول المترامية، واحيانا يتخلل غابات واحراشا لا نهاية لها .. وكانت اكثر البلاد والقرى مهجورة من سكانها، حتى حدود نهر « ينيساى » الذى قدر القوم هناك أنه قد يعوق الغزاة

وفى يوم ٢٢ اغسطس بلغت العربة محلة « اتشينسك » على بعد ثلاثمائة وثمانين فرسخا من تومسك ، وبقى يفصلها عن كراسنويارسك مائة وعشرون فرسخا . وكان قد مضى على الركاب الثلاثة ستة ايام . ومرة جاء ذكر الغزو فى حديث بينهم فقال نيقولا : « يحتمل ان يتوقف التتار عن الزحف خلال فصل الشتاء »

فاجابه ميشيل ستروجوف : « اخشى الا يفعلوا »

فقال : « لعلك على حق ، فان معهم رجلا شريرا يلهب ظهورهم كلما فتروا ، هل سمعت باسم ايفان اوجاريف ؟ » . قال : « نعم »

قال : « اتعلم ان من افظع الاشياء ان يخون المرء وطنه ؟ » . قال : « هذا صحيح »

فقال : « اراك لا تشمئز حين احدثك عن ايفان اوجاريف ، فى حين ان قلب كل روسى ينبغى أن ينتفض غضبا عند سماع هذا الاسم »

فقال : « اؤكد لك ايها الصديق انى اكرهه اكثر مما تستطيع يوما ان تكرهه »

فقال : « هذا عسير التصديق ، فانى حين افكر فى الشر الذى الحقه ببلادنا اود لو .. اقتله ! »

فقال ستروجوف فى هدوء متكلف : « وانا ايضا .. ثق من ذلك ! »



فى نهر « ينيساى »

عند غروب اليوم الخامس والعشرين من شهر اغسطس ، بلغ الركب مشارف « كراسنويارسك » .. وكان من حسن الحظ ان لم يبد حتى تلك الساعة اى اثر لكشافة التتار او طلائعهم ، وان بدا ذلك غير مفهوم ، ودل على ان ثمة ظرفا خطيرا لابد قد عاق جيوش الخان عن الزحف العاجل نحو اركوتسك

وكان هذا ما حدث ، فان جيشا روسيا جديدا كان قد زحف على تومسك محاولا استردادها من ايدى التتار ، لكنه ضعف عن التغلب على قوات العدو المجمعة ، التى تفوقه ، ومن ثم اضطر الى التقهقر امامها . والى المعركة التى وقعت بينهما منذ ثلاثة ايام يرجع السر فى عدم ظهور طلائع التتار هناك فى كراسنويارسك . ولكن ميشيل ستروجوف وان جهل هذه التفصيلات ، لم يكن يجهل انه يسبق التتار بمسيرة بضعة ايام ، وان من الممكن ان يبلغ اركوتسك قبلهم برغم الثمانمائة وخمسين فرسخا الباقية بينه وبينها !

ودخلت العربة مدينة كراسنويارسك بعد الساعة السابعة مساء بقليل ، وكم كانت دهشة ركابها بالغة حين وجدوا المدينة الكبيرة مهجورة من قاطنيها تماما ، فما كان ثمة من يسير فى شوارعها العريضة النظيفة ، او يتنزه فى متنزهها الجميل الممتد وسط الغابة حتى النهر . وقد سكت جرس الكاتدرائية الضخم كأنما أصيب بالخرس وكذلك اجراس الكنائس الاخرى الصغيرة ، برغم ما عرفت به المدن الروسية من استمرار اجراس كنائسها فى الرنين دون انقطاع !

كانت آخر برقية وصلت الى حاكم المدينة من مكتب القيصر قبل قطع الاسلاك قد اوصت السلطات وجميع قاطنى المدينة باخلائها فورا ، وأن يهاجروا الى اركوتسك بممتلكاتهم الثمينة ، وكل ما قد يكون ذا فائدة للتتار ، وبذلك يتركون المدينة للغزاة قاعا صفصفا وصحراء قاحلة . ونفذ الشعب الامر باجماع رائع ، فلم يبق كائن حى واحد فى كراسنويارسك !

وراح الركاب الثلاثة يذرعون شوارع المدينة وقد عقدت الدهشة السنتهم ، وكانت أصواتهم وحدها كلما تردده أصداء المدينة المهجورة ، واحس ميشيل ستروجوف بغيظ مكتوم ازاء حظه السيء الذى عرقل اتصاله بحاكم المدينة والحصول بواسطته على وسيلة سريعة للوصول الى اركوتسك

واستقر رأى الجماعة على المبيت فى اى مكان هناك ، ثم استئناف السفر فى الصباح ، لتعذر عبور نهر « ينيساى » فى غير ضوء النهار .. ودفعوا باب اول بيت صادفهم فانفتح وكان خاليا بطبيعة الحال ، مثل بقية بيوت المدينة ، فقضوا فيه ليلتهم .. وفى فجر اليوم التالى استأنفت العربة سيرها نحو نهر

« بنيباى » ، وكان ميشيل ستروجوف بادى القلق يفكر في احتمال أن يكون الروس قد اتلفوا جميع الناقلات التى تعبر النهر كي يعرقلوا تقدم الغزاة ، وعندئذ يتعذر على الركب أن يعبر المجرى العريض الذى تستغرق الناقلة في عبوره في الظروف العادية ثلاث ساعات !

ووصلت العربة الى ضفة النهر اليسرى بينما كانت الشمس ترسل أشعتها الأولى ، فسأل ميشيل ستروجوف نادية : « أترين (معدية) على النهر ؟ »

فأجابته الفتاة : « ان النهار لم يكد يبزغ بعد ، والضباب كثيف لا يكاد يرى معه الماء ! »

وكان جريان المياه السريع في ذلك الفصل من السنة يحدث هديرا مسموعا أصغى اليه الثلاثة وهم ينتظرون انقشاع الضباب وشروق الشمس ، ثم بدأت الريح تهب فتساهم في طرد الضباب الذى يحول دون الرؤية ، وظهرت على الضفة الأخرى للنهر صفوف الأشجار .. فقال نيقولا لميشيل : « ليتك تستطيع أن ترى هذا المنظر الرائع لجمال الطبيعة أيها المسكين »

فسأله هذا : « ألا ترى سفينة أو زورقا .. ؟ أنظر جيدا أيها الصديق ، على هذه الضفة والضفة المقابلة .. لعلك تعثر على ناقلة ؟ »

وتقدم نيقولا ونادية نحو ضفة النهر ليمعنا النظر ، وكان عرض النهر في تلك المنطقة لايقل عن فرسخ ونصف فرسخ ، وتتوسطه بعض الجزر الصغيرة . وعلى الضفة الأخرى تبدو تلال عالية تتوج هاماتها الغابات .. ولكن ليس ثمة ناقلة من أى نوع بين الضفتين أو عند الجزر ، كأن المهاجرين قد دمروا كل شيء ليعرقلوا زحف التتار

وبغتة هتف ستروجوف : « انى أتذكر الآن أن في أقصى المدينة مرفأ صغيرا لعبور النهر ، ولا يبعد أن يكون الراحلون قد نسوا فيه أداة تصلح للانتقال ، هيا بنا أيها الرفاق .. »

وسار الثلاثة بخطى سريعة حتى بلغوا ذلك المرفأ الصغير بعد نحو عشرين دقيقة ، فلم يعثروا فيه على بغيتهم .. لكن ميشيل ستروجوف لم ييأس ، بل استحثهم على البحث في الأكواخ المطلة على المرفأ ، لعلهم يجدون فيها شيئا يصلح لعبور النهر ، وتفرق نيقولا ونادية كل يفتح بابا ويطل داخله ، بينما راح ميشيل يفتح الأبواب بدوره ويتحسس بيده ما قد يكون فيها .. واذ أوشك المبصران أن يكفا عن البحث يائسين تناهت اليهما صيحة من زميلهما الأعمى فخفوا اليه مسرعين ، واذا هو على عتبة باب كوخ من الأكواخ يهتف بهم : « اتبعانى الى داخل الكوخ » . ثم قال لهما وهو يتحسس بيده شيئا : « ماذا في هذه القرب ؟ » . فهتف الشاب : « انها مملوءة من (الكوميس) .. ها قد وجدنا مؤونتنا لبقية الرحلة ! »

لكن فرحة الشاب لم تتم بالعثور على هذا الشراب الوطنى القوى الذى يصنع من اللبن ، اذ صاح ستروجوف قائلا : « ضع قربة منها جانبا ، وافرغ القرب الباقية .. انها سوف تعيننا على عبور النهر .. فان العربة خفيفة وكذلك الجواد ، ونستطيع أن نسبح جميعا بمعاونة هذه القرب .. ! »

ولم يجد الشاب بدا من الموافقة ، ثم احتفظوا بقربة ملأى بذلك الشراب ، وافرغوا القرب الباقية ثم نفخوها وربطوها ، وثبتوا قربتين منها بين عجلات المركبة ، وقربتين الى جانبي الجواد ، أما الكلب فقد سبح دون معونة أحد .. ووقف الثلاثة فوق صندوق العربة ، فلم يبلغ الماء أكثر من كعوب أقدامهم . وحرص ميشيل ستروجوف وهو يتولى توجيه الجواد الا يسير ضد التيار ، ولو أدى الأمر بهم الى بلوغ الضفة الأخرى في نقطة بعيدة عن مواجهة المدينة

ولقى الركب صعوبة كبيرة في التقدم ، ثم زاد الطين بلة وقوعهم في دوامة عنيفة ، أخذت العربة تدور فيها حول نفسها بسرعة شديدة ، وكاد الجواد يختنق تحت الماء . وأحس الثلاثة بالخطر المحدق وبالقوة التى تجذبهم نحو القاع .. وفجأة خلع ميشيل ستروجوف ما يعوقه من الثياب والقى بنفسه الى الماء ، ثم جذب عنان الجواد بذراعه القوية فأخرجه من مركز الدوامة ، وما لبثت العربة أن خرجت من دائرة الخطر واندفعت مع التيار .. فهتف نيقولا فرحا : « مرحى .. مرحى ! »

وبعد ساعتين من بدء الرحلة كانت العربة قد بلغت احدى الجزر الوسطى ، بعد أن سبحت ستة فراسخ ، فصعد الجواد بالركب الى سطحها ، حيث استراحوا ساعة كاملة ، ثم استأنفوا سيرهم على البر حتى نهاية الجزيرة ، وهناك انحدروا مرة أخرى الى النهر

ولم تكن المرحلة الثانية في صعوبة الأولى ، نظرا الى خلوها من الدوامات ، وان كان التيار فيها أسرع ، فجرف الركب معه مسافة خمسة فراسخ أخرى حتى بلغوا الضفة الشرقية للنهر .. وحين وضعوا أقدامهم على البر هتف نيقولا منتشيا : « ما كانت المغامرة تكون ممتعة هكذا ، لولا ما انطوت عليه من مصاعب ! »

فقال ميشيل ستروجوف معلقا : « ان ما كان عسيرا علينا أيها الصديق قد يكون مستحيلا بالنسبة للتتار ! »

وهكذا اطمأن ستروجوف أخيرا الى أن طريق اركوتسك صار مفتوحا أمامه ، والى أنه قد سبق التتار بعدة أيام ، فضلا عن أن النهر سيعوق تقدمهم أياما أخرى حتى تتسنى لهم اقامة قنطرة يعبرونه عليها !

ولأول مرة منذ لقائه المشئوم بايفان أوجاريف في أومسك أحس أن قلقه يزايله ، واطمأن الى أنه لن يصادف في الغالب عقبة أخرى تعوق وصوله الى هدفه ، وكانت العربة قد اتخذت الطريق الطويل الذى يخترق السهول الى اركوتسك ، وهو طريق ممهد ، يعد هذا الجزء منه أحسن كثيرا من الأجزاء التى انقضت في المراحل السابقة من الرحلة ، تتخلله أحيانا غابات من الأرز والصنوبر تسير فيها العربة مائة فرسخ في حمى من الشمس المحرقة ، لكن القرى والبلاد التى مروا بها كانت كسابقاتها مهجورة تماما من قاطنيها ، فخلا الطريق من فلاحى سيبيريا ذوى الطابع السلافى

وكان شهر أغسطس قد دنا من نهايته ، فكان الطقس جميلا ، والهواء عليلا ، وبخاصة في المساء ، فلم تضايقهم عاصفة هوجاء ، ولم تهطل عليهم أمطار

عاصفة . اما الحرارة اثناء النهار فكانت معتدلة ، ولحسنت صحة نادية وستروجوف بعد أن استراحا من عناء الاسر المرير ، بينما وجد نيقولا في الرحلة الممتعة خير عوض عن عطله الممل الذى كان يقتضيه الجلوس على مقعد امام جهاز التلغراف اثنتى عشرة ساعة في اليوم !

واستطاع ميشيل ستروجوف اقناع نيقولا بان يزيد في سرعة الجواد الى ستين فرسخا في اليوم ، متوسلا الى ذلك بانه وشقيقته نادية يتعجلان اللحاق بابيهما المنفى في اركوتسك .. وتاثر نيقولا بهذه القصة فقال لنادية مبتسما : « أى فرحة سوف يستشعرها مسيو كورپانوف حين تكتحل عيناه برؤيتكما ، وتنبسط ذراعاه لعناقكما .. ولكن ، آه ، لقد نسيت ! .. أى الم سيحسه المسكين حين يرى ابنه اعمى .. ان البهجة لا تكمل في هذه الدنيا ! »

وفي ٢٨ اغسطس جاوزوا محلة بلاپسك ، وفي اليوم التالى جاوزوا «ريسك» وفي اليوم الذى يليه وصلوا الى « كامسك » وهي بلدة صغيرة تقع على نهر صغير يسمى باسمها ، فالفوها خالية مهجورة ؛ بيوتها وكنيستها خاوية على عروشها .. ليس فيها ثمة انسان أو حيوان . ان امر حكومة موسكو قد نفذ بدقة تدعو الى الاعجاب .. والاشياء التى لم يتيسر حملها اتلفها السكان قبل أن يتركوا بلدتهم للغزاة صحراء قاحلة .. !



جثة على الطريق

في صبيحة ٤ سبتمبر بلغت العربة « بيروسسك » وهناك وجد نيقولا لحسن الحظ في فرن مهجورة بعض الكعك المصنوع من الشحم ، وكمية كبيرة من الارز المطبوخ بالماء ، فاضيفت المؤونة الجديدة الى قربة « الكوميس » التي ملئوها من كراسنويارسك . وبعد استراحة كافية واصل الركب سفره بعد ظهر يوم ٨ سبتمبر

كانت المسافة الباقية حتى اركوتسك لا تزيد على خمسمائة فرسخ ، ولم تظهر بعد في مؤخرة الطريق طلائع التتار ، فاستطاع ميشيل ستروجوف ان يوطن نفسه على انه سوف يمثل في حضرة الغراندوق بعد ثمانية ايام او عشرة على الاكثر !

وفي اثناء خروج العربة من « بيروسسك » اخترق الطريق على بعد ثلاثين قدما في مواجهتها ارنب برى .. فهتف نيقولا وقد اقلقت الابتسامة التي كانت تزين وجهه : « آه .. اراْيت ؟ »

فسأله ميشيل ستروجوف : « ماذا .. ؟ » . واستدرك نيقولا قائلا : « لكنك لم تر بالطبع ، من حسن حظك .. ! »

فقاطعته نادية بقولها : « انا ايضا لم ار شيئا ! » . فقال : « هذا افضل .. هذا افضل .. لكنى انا رايت ! »

وسأله : «ماذا رأيت؟ » . فقال : « رأيت ارنبا بريا يقطع الطريق امامنا ! »

وكان ذلك في عرف الروس المتطيرين نذير شؤم يلحق بالمسافر .. ومن ثم اوقف نيقولا العربة ! .. وادرك ميشيل ستروجوف الحافز الذى دفعه الى ذلك فقال له محاولا التسرية عنه : « ليس ثمة ما ينبغي ان تخشاه ايها الصديق »

فأجاب نيقولا : « هذا بالنسبة لك ، ولها ، اما بالنسبة لي ، فانه القدر ! » . ثم وخز الجواد فانطلق بالعربة من جديد .. ومر اليوم بسلام

وفي ظهر اليوم التالى ، ٦ سبتمبر ، توقف المسافرون في محلة « السالينفسك» - وكانت مهجورة أيضا - فعثرت فيها نادية ، عند عتبة بيت من البيوت ، على سكينين حادتين ، من تلك التى يستعملها صيادو سيبريا .. فأعطت احداهما لستروجوف فاخفاها في ثيابه .. واحتفظت بالاخرى لنفسها . وكان باقيا امامهم حتى المدينة التالية حوالى خمسة وسبعين فرسخا . وخلال اليومين الاخيرين لم يستطع نيقولا أن يسترد بهجته ومرحه المألوفين . فقد اثر فيه

حادث الاربب تأثيرا كبيرا ، وصار يلزم الصمت اكثر الاوقات ، وهو الذي اعتاد الا يكف عن الثرثرة ، ولم يعد يحرص على راحة جواده فيسير به متباطئا بل ضاعف من سرعته وقد احس الا امان له الا بين جدران اركوتسك ذاتها !

وبلغ المسافران غابة كثيفة ، وكم كانت دهشتهم بالغة حين تبينوا اثناء سيرهم آثارا تدل على ان حشدا كبيرا من البشر قد عبر الطريق قبلهم بزمن قصير .. وبعد مسيرة مسافة اخرى لحظوا من آثار التدمير والاتلاف ما يقطع بان الذين مروا لا يمكن ان يكونوا سوى التتار .. فقد رأوا حقولا درستها حوافر الجياد ، وغابات عملت فيها فؤوس المخربين ، والبيوت القليلة المتناثرة خلال الطريق كان منها المحروق ومنها الذي تتخلل جدرانه طلقات الرصاص !

وكان ذلك مبعثا لكثير من القلق والارتياع في نفس ستروجوف فراح يحدث نفسه : « لا شك ان طابورا من التتار قد عبر هذا الطريق حديثا .. لكنه لا يمكن ان يكون من جيوش الخان التي ما زالت في المؤخرة ، واذن .. من يكون هؤلاء الغزاة الآخرون ، وبأي وسيلة خفية استطاعوا الالتفاف حول طريق اركوتسك ؟ .. وهل قدر لنا ان ننجو من الاعداء الاول لتجابه اعداء جددا ؟ »

على ان ستروجوف لم يشرك نادية ونيقولا في خواطره القاتمة هذه حتى لا يزعجهما ، ولا سيما انه قرر ان يتابع رحلته ما دام في وسعه ذلك . لم يكن بعد ذلك ما يكون !

وفي خلال المرحلة التالية ازدادت الادلة على ان فيلقا من الفرسان المشاة قد مر اخيرا من الطريق . ولاحت عن بعد نار مشتعلة عند الافق ، وكانت بعض البيوت القروية ما تزال متقدة بالنار ، مما يقطع بان حرقها لم يبدأ منذ اكثر من يوم

واخيرا في صبيحة الثامن من سبتمبر ، توقفت العربة مضطرة وقد ابى الجواد ان يتقدم خطوة ، بينما جعل الكلب سيركو ينبح بشدة .. فتساءل ستروجوف : « ماذا هناك ؟ » . واجابه نيقولا وهو يترجل : « جثة على الطريق ! »

وكانت الجثة لاحد فلاحي « الموجيك » ، وقد شوهت تشويها رهيبا وبردت اطرافها .. واراد نيقولا ان يتولى دفن الضحية التعسة كيلا تلتهمها وحوش الليل ، لكن ستروجوف صاح به منفعلا : « فلنرحل .. فلنرحل فورا .. ليست لدينا ساعة واحدة نضيعها ! »

واستأنفت العربة سيرها ..

وباقترابها من « نيجني اودينسك » صارت الجثث المتناثرة على الارض تعد بالعشرات ، ودماؤها لم تتجمد بعد . ولم يصادف الركب انسانا حيا يمكن ان يسائله .. وفي حوالي الساعة الرابعة من المساء لمح نيقولا في الافق قباب كنائس نيجني اودينسك ، وقد اكتست بابخرة كثيفة لا يمكن ان تكون ضبابا ! ..

ووصف نيقولا ونادية ما رأياه لميشيل ستروجوف ، مشفقين من أن تكون

المدينة محتلة بالتتار ، فقال الشاب : « فلنتقدم حذرين .. ولكن لنتقدم ! »

وبعد مسيرة فرسخ آخر هتفت نادية : « انه ليس ضبابا ايها الاخ .. انه دخان . انهم يحرقون المدينة ! »

وكانت السنة اللهب تتصاعد الى عنان السماء ، فاستنتج المسافرون الثلاثة احد امرين : اما ان التتار احرقوا المدينة حين وجدوها مهجورة . واما ان الروس انفسهم قد احرقوها اطاعة لامر الغراندوق . ومن لم تردد الركب بين التوقف ومتابعة التقدم ! .. ثم ارتأى ستروجوف ان يتخذوا الجانب الاحوط فيلتفوا حول المدينة متجنبين المرور فيها ، ليضمنوا عدم الوقوع مرة اخرى في ايدي التتار ، وفيما هم يهمون بتنفيذ هذه الخطة سمع صفير رصاصة تخترق الهواء ، ثم تبين انها اصابت رأس الجواد فخر على الارض جثة هامدة . وقبل ان يدرك الثلاثة ماحدث انقض عليهم حوالي عشرة من الفرسان وقلبوا العربة راسا على عقب ثم اسروهم وذهبوا بهم الطريق نهبا نحو « نيجني اودينسك »

لم يفقد ميشيل ستروجوف اتزانه ازاء الحادث ، وجعل همه ان يتسمع ما يدور بين الفرسان من حديث بلغة التتار التي يفهمها جيدا ، فعلم انهم من طلائع تسبق جيش الغزاة كي يلتفوا وإياهم حول اركوتسك .. فهم بمثابة طابور ثالث اعده ايفان اوجاريف ليضمن الاجهاز على عاصمة سيبيريا الشرقية باوفر قوة واقصى سرعة . كما فهم من حديثهم ايضا ان جيشهم مؤلف من خمسين الف مقاتل وانهم بعد احراق « نيجني اودينسك » سينهبون الطريق الى مشارف اركوتسك حيث ينتظرون وصول جيش الخان !

وهكذا اسفرت الحوادث عن موقف غاية في الخطورة بالنسبة للروس ، لكن ميشيل ستروجوف لم يفقد مع ذلك آماله بل عبر بإيمانه وحدث نفسه بعبارته المعهودة : « سوف اصل ! »

وبعد نصف ساعة وصل الفرسان باسراهم الى المدينة المحترقة ، ثم تابعوا السير ، ولم يغفلوا عن ان واحدا من الاسرى فاقد البصر ، بل اتخذوا من عاهته موضعا للسخرية والزراية به وبخاصة حين كان جواده يجمح به فلا يملك المسكين توجيهه ، الامر الذي آلم نادية ونيقولا وان لم يستطيعا التدخل نظرا الى جهلهما بلغة التتار ولان تدخلهما كان خليقا ان يصد في غير رحمة . ولم يقتصر الامر على ذلك ، اذ لم يلبث الفرسان ان استبدلوا بالجواد الذي يمتطيه ستروجوف جوادا آخر اعمى مثله امعانا في النكاية به ، فصار يرتطم به في الاشجار آنا ، ويخرج به عن الطريق اونة . ولكن الشاب لم يبد احتجاجا او رفع صوته بشكوى . كان جواده يسقط به فينتظر حتى يأتوا ليرفعوها ، وعندئذ تبدأ المهزلة القاسية من جديد ! .. ولم يطق نيقولا ان يعامل رفيقه هذه المعاملة المنطوية على القسوة والنذالة ، فلما اراد ان يتدخل لاغاثته اوقفوه ومنعوه من ذلك بالقوة والعنف

واستمر العبث بالضرير التعس على هذا المنوال ، والقساة فرحون بلعبتهم المسلية . وفي احدى المرات جمح الجواد الاعمى براكبه نحو مستنقع على جانب الطريق يبلغ عمقه اربعين قدما ، فاراد نيقولا ان يخف لانقاذ صديقه ، لكنهم

حالوا بينه وبين ذلك فاندفع الجواد نحو المستنقع . واطلقت نادية ونيقولا صرخة فزع ، وقد حسبا الشاب هلك في الهاوية . . ولكن حين مضى العابثون الى مكانه وجدوه قد القى بنفسه من ظهر الجواد قبل ان يهوى به ، فلم يصب هو باي اذى ، اما الجواد فقد كسرت ساقاه ولم يعد صالحا للركوب . . فتركه القساة في مكانه بغير ان يريحوه من آلامه برصاصة قاضية ، وقيدوا ميشيل ستروجوف الى احد جيادهم كي يستانف الرحلة سائرا خلفهم على قدميه . . !

ومع ذلك لم يتذمر الشاب او ينبس بشكوى او احتجاج ، بل تبع القافلة بخطى سريعة مقيدا بحبل غليظ ، فاثبت بحق انه « الرجل الحديدي » الذي تحدث عنه الجنرال كيسوف الى القيصر !

وفي اليوم التالي – ١١ سبتمبر – توقفت القافلة في المساء كي ينعم افرادها وخيولهم بقسط من الراحة . وفي اثناء جلستهم المرحة اقدم احدهم – وكان ثملا – على اهانة نادية ، التي كانت قد عوملت حتى تلك اللحظة باحترام وتوقير . ولم ير ميشيل ستروجوف الاهانة ، ولا مرتكبها ، لكن نيقولا رآها ورآه . فتقدم منه ، ودون تفكير او تردد ، او وزن للامور اخرج من جيبه مسدسه وافرغ رصاصة منه في قلب المعتدي ، قبل ان يتمكن هذا من ايقافه او التنبه لنيته

وهجم الفرسان على نيقولا يريدون الفتك به ، لكن قائدهم امر بتقييد وثاقه وحمله امام واحد منهم على ظهر جواده . ثم انطلقت القافلة باقصى سرعتها وطيلة الطريق كان ستروجوف يقرض الحبل الذي يشده الى الجواد باسنانه . حتى انقطع الحبل في احدى اللحظات ، ولم ينتبه الراكب الثمل للامر . وهكذا وجد ستروجوف نفسه بعد قليل ، واقفا في الطريق ، ونادية الى جواره ، وليس من احد غيرهما هناك !



نهاية مؤلمة

سار ستروجوف ونادية حزينين ، ولكن بلا عون ولا مؤونة ولا وسيلة للمواصلات ، في طريق مقفر لا يبدو فيه اثر لانسان او قرية او كوخ ، والساعة العاشرة مساء . . !

وصاحت الفتاة جزعة : « ترى ماذا سيفعلون بصديقنا المسكين ؟ ان التقاءنا كان قاضيا عليه ! » . . فلم يجب ستروجوف ، واذ ذاك استطردت نادية : « الا تعلم انه دافع عنك حين جعل منك التتار العوبة في ايديهم ، وانه خاطر بحياته من اجلي ؟ »

ومع ذلك لم يجب ستروجوف بكلمة ، وانما ظل كالعهد به جامدا وراسه بين يديه . . وعادت الفتاة تساله : « الى اين تريدني ان اقودك ؟ » . فقال : « الى اركوتسك »

قالت : « عبر الطريق العام ؟ » . فقال : « نعم يا نادية » . فاخذت بيده ، وبدآ المسير . . !

وفي صبيحة اليوم التالي – ١٢ سبتمبر – بعد مسيرة عشرين فرسخا ، توقف الاثنان في محلة محروقة ومهجورة ، كي ياخذا قسطا من الراحة . . وطيلة الليل ظلت نادية تبحث بين الاشلاء وجثث الموتى عن جثة نيقولا . . ولكن دون جدوى ، حتى رجحت ان يكون القساة قد ابقوا عليه حتى تلك الساعة ، ولكن ترى هل يدخرون له نهاية اشد قسوة ، حين يصلون الى اركوتسك ؟

وكان الجوع قد عضهما بنابه ، فلما عثرت نادية في احد البيوت المهجورة على كمية من اللحم المجفف والخبز تكفيهما اياما حملها الاثنان فرحين ، واستانفا المسير

وكان ميشيل يسير بخطى جادة منتظمة ، ولا يتاخر الا من اجل مرافقته ، التي لم ترد ان تعوق سرعته فتحاملت على نفسها ومضت في ركابه . ولم يستطع ان يلمح مبلغ الارهاق الشديد الذي حل بها ، لكنه احس به ، فكان يقول لها بين الحين والآخر : « انك قد استنفدت قواك ايها الطفلة المسكينة » . فتغمغم قائلة : « كلا ! » . فيقول لها : « حين تعجزين عن المسير سوف احملك يا نادية » . فتقول : « حسنا »

وكانا يسيران ويدها في يده ، لا يتكلمان الا قليلا ، ونادية تنظر الى الامام والخلف ، كما كانا يستريحان مرتين في اليوم ، احداهما في الليل حيث ينامان ست ساعات . . وعثرت نادية مرة اخرى في احد الاكواخ على كمية من اللحم تكفي لوجبات اخرى . . لكنهما – خلافا لما كان يامل ستروجوف – لم يصادفا

ماشية أو جيادا على الاطلاق ، فقد نهب التتار أو ذبحوا كل ما وجدوه منها ، ومن ثم صار لزاما عليهما ان يواصلا رحلتهما سيرا على الأقدام ، عبر هذه السهول التي لا نهاية لها . وكانت تعترضهما أثناء السير آثار الطابور الثالث للتتار الزاحفين على أركوتسك ، بين جواد ميت هنا ، وعربة مهجورة هناك ، وجثث لآدميين من أهل سيبريا التعساء متناثرة عند مداخل القرى !

لكن الخطر لم يكن في الواقع يكمن امامهما ، بل كان يطاردهما من الخلف .. فان طلائع جيش الخان الرئيسي الذي يقوده ايفان اوجاريف كان يحتمل ان تظهر من لحظة الى اخرى ، والزوارق التي ارسلت من مجرى نهر « ينيساي » الأدنى كانت لا بد قد وصلت الى كراسنويارسك واستخدمت في عبور النهر .. ومن ثم فقد صار الطريق مفتوحا امام الغزاة ؛ لا يقوى جيش روسي على ان يسده بين كراسنويارسك وبحيرة بايكال . وهكذا لبث ستروجوف يتوقع وصول طلائع التتار في اي وقت .. وصارت نادية تتسلق كل مرتفع يعترض به في الطريق كي تتطلع باشتباه الى الغرب .. لكن عاصفة من الغبار لم تلح في الافق منبئة بوصول الغزاة .



احس ميشيل ستروجوف اثناء السير بأنه ارهق نادية بخطواته السريعة فانقص من سرعته بعض الشيء . ولم يكونا يتكلمان الا قليلا ، واذا تكلما فعن نيقولا ، الذي صارت الفتاة تستعيد ذكريات الايام القليلة التي رافقهما خلالها . وكان ميشيل يحاول جهده ان يدع باب الأمل في شأن صديقهما مفتوحا ، برغم ترجيحه أن يكون التعس قد لقي حتفه على يد الأعداء . وذات مرة سألها معاتبا : « انك لا تحدثين البتة عن امي يا نادية ..؟ »

امه ؟ ولم تجد نادية الامه ؟ . او لم تمت السيبرية العجوز ؟ . او لم يطبع ابنها القبلة الأخيرة على جثتها الممددة في ساحة المهرجان في مدينة تومسك ؟ .. وناشدها الشاب ملهفا : « حدثيني عنها يا نادية .. تكلمي . انك بذلك تدخلين البهجة على قلبي ! »

وعند ذاك فعلت الفتاة ما لم تفعله من قبل . روت كل ما جرى بين مارفا وبينها منذ لقائها في اومسك ، وكيف دفعتها غريزة غير مفهومة نحو الاسيرة العجوز دون أن تعرفها .. ثم مبلغ عنايتها بها ، ومبلغ تشجيع الاخرى لها .. في الوقت الذي لم يكن ميشيل فيه بالنسبة لها سوى التاجر نيقولا كوربانوف !

وعندئذ قاطعها الشاب قائلا وقد غام جبينه :

كان يجب أن اظل دائما ذلك التاجر . لقد حنثت في قسمي يا نادية ، فقد كنت اقسمت الا ارى امي !

فقالت : « لكنك لم تسع الى رؤيتها يا ميشيل ؛ وانما هي المصادفة وحدها التي وضعتك في طريقها »

فقال : « انني اقسمت الا اكشف عن شخصيتي مهما يحدث ! »

قالت : « ميشيل .. اوكان في مقدورك ان تكتم مشاعرك وانت ترى السوط يهوي فوق جسد امك ؟ . ان اغلظ قسم لا يستطيع ان يعوق ابنا عن اغاثة امه ! »

قال : « لقد حنثت في قسمي يا نادية ، ولا يجدي الانكار .. فليغفر الله والقيصر لي »

فقالت : « ميشيل ، عندي سؤال لك .. لكنك في حل من الاجابة اذا رأيت ان واجبك يقتضيك الصمت »

فقال : « تكلمي يا نادية »

قالت : « لماذا تتعجل الآن الوصول الى اركوتسك ، بعد ان انتزعت رسالة القيصر منك .. اوكنت تعرف مضمون الرسالة قبل ان تغادر موسكو ؟ »

فقال : « كلا ، لم اكن اعرفها ! »

قالت : « اذن هل لي ان افهم من ذلك ان الرغبة في تسليمي الى ابي هي التي تدفعك نحو اركوتسك ؟ »

فقال : « كلا يا نادية ، انني اخدعك اذا تركتك تعتقدين ذلك .. وانما انا اذهب حيث يقتضيني واجبي الذهاب . اما تسليمك الى ابيك ، فهل نسيت انك انت التي تقودينني الآن ؟ .. اليست يدك هي التي ترشدني ؟ الم تردي الى اضعاف الخدمات التي اديتها لك من قبل ؟ . لست ادري اذا كان القدر سيكف من عرقلة طريقنا بعد الآن ، ولكن في اليوم الذي تشكرينني فيه على توصيلك الى ابيك سوف اشكرك اضعافا على توصيلي الى اركوتسك ! »

فقالت نادية وقد غلبها التأثر : « ايها المسكين . لا تتكلم هكذا ، فليس هذا هو الجواب الذي اطلبه منك . ميشيل . لماذا تتعجل الآن الوصول الى اركوتسك ؟ »

فقال : « لانني يجب أن ابلغها قبل ايفان اوجاريف »

قالت : « وهل ما زلت تأمل ذلك ؟ »

قال : « نعم ، ولسوف اصل ! »

وفيما هو ينطق بهذه الكلمات تبينت نادية في لهجته الكراهية الشديدة للخائن ، كما تبينت أن مرافقها يخفي عليها شيئا ، لانه لا يستطيع ان يبوح لها بكل شيء !



في يوم ١٥ سبتمبر — بعد ثلاثة ايام — وصل الاثنان الى محلة (كوتوتونسكاو) على بعد سبعين فرسخا من (تولونوفسكاو) . وكانت الفتاة تعاني آلاما مبرحة من فرط التعب ، حتى لقد كادت قدماها تعجزان عن حملها ،

لكنها تماسكت وقاومت الاجهاد ولسان حالها يقول: « ما دام ميشيل لا يستطيع أن يرى مبلغ تعبي فسأواصل السير ما اسعفتني قواي! »

وطيلة الايام الثلاثة التالية كانت الرحلة آمنة من كل خطر او عقبة جديدة، لا يعرقلها غير التعب الشديد .. وكان واضحا ان طابور التتار الثالث ينهب الطريق نحو الشرق، مخلفا وراءه حطاما واطلالا وحرائق وجثثا متخللة متناثرة على الارض!

اما من الغرب، فلم يكن هناك على الاطلاق ما ينبيء باقتراب طلائع جيش الخان .. وجعل ميشيل ستروجوف يفترض في تأويل ذلك ابعد الاحتمالات واغربها: ترى هل جمع الروس قوات كبيرة يهددون بها تومسك وكراسنويارسك مباشرة؟.. وهل يكون مصير الطابور الثالث المعزول عن الطابورين الآخرين ان يقطع عليه الطريق؟. اذا كان الامر كذلك فسوف يسهل على الغراندوق الدفاع عن أركوتسك وكسب الوقت الكافي لرد جيوش الغزاة على اعقابها؟

وكان ستروجوف يستسلم احيانا لهذه التصورات والآمال .. لكنه لا يلبث ان يفيق منها على الواقع المرير، فيتبين ان امامه مجرى يتعين عليه عبوره، هو نهر « دنكا » وهو آخر مجرى يتخلل المائتين وثلاثين فرسخا التي تفصله عن اركوتسك .

وبدأت قوى نادية تخونها، وحدثت نفسها بانها ـ لو كان ميشيل مبصرا ـ لقالت له بغير تردد: « دعني يا ميشيل في اي كوخ يصادفنا واسرع انت الى غايتك فاتمم رسالتك وقابل ابي واخبره عن مكاني ثم عودا الى معا فيما بعد لاستردادي!.. اذهب فلست خائفة، وسأعرف كيف اختبيء من التتار، واصون حياتي من اجله .. ومن اجلك!.. اذهب يا ميشيل، فلست استطيع السير! »

واضطرت نادية للتوقف مرارا، فكان ميشيل يحملها بين ذراعيه ويغذ السير بخطى سريعة وباقصى طاقة نشاطه .. وهكذا بلغ الاثنان في الساعة العاشرة من مساء ١٨ سبتمبر محلة « كيمبلتاركاو » . ولمحت نادية من اعلى تل هناك خطا قاتما عند الافق هو نهر دنكا، وكانت تقسمه ومضات من النور لا يصحبها رعد



وقادت نادية ستروجوف عبر المحلة المهدمة، وكانت آثار الحرائق والتخريب فيها تدل على أن التتار قد مروا بها منذ خمسة ايام او ستة على الاقل .. وتهالكت نادية على مقعد حجري في طرف البلدة فسألها ميشيل: « انتوقف هنا؟ »

فقالت: « ان الليل قد هبط يا ميشيل، الا تبغي ان نستريح بضع ساعات؟ »

فقال: « كنت اود ان اعبر النهر واجعله فاصلا بيني وبين طلائع جيش الخان، لكنك فيما احسب عاجزة عن المسير! » . فقالت: « بل هيا بنا! »

وقادته على ضوء البرق المتلاحق، فرسخين او ثلاثة، في صحراء لا حد لها، لا شجرة فيها ولا تل . ولا نسمة هواء تحرك جوها الساكن وهدوءها الشامل .. وفجأة توقفا كما لو كانت اقدامهما قد غاصت في الارض، على صوت عواء يشق فضاء البرية.. وهتفت نادية: « أتسمع؟ ».. ولبث ذلك صرخة لوعة ويأس، كأنما صدرت من شخص يستغيث وهو يحتضر .. فصاحت نادية مدفوعة بشبه الهام خفي: « نيقولا .. نيقولا! » .. وجذبت رفيقها من يده نحو مصدر الصوت وقد امدها الانفعال بقوة خفية .. وبعد مسيرة بضع دقائق على ارض خالية تكسوها الحشائش والاعشاب وصلا الى بقعة لا يفصلها عن النهر اكثر من نصف فرسخ .. وعندئذ سمعا صرخة استغاثة أخرى أضعف من الاولى، وان كانت أقرب منها، يصحبها نباح كلب!

فقال ميشيل على الفور:

ـ انه سيركو، الذي لا بد قد تبع سيده!

ونادت نادية ملهوفة: « نيقولا ..! »

لكن نداءها ظل بلا جواب . وحلقت بضعة طيور برية في السماء حتى اختفت عن الانظار

وارهف ميشيل سمعه، بينما سرحت نادية بصرها فيما حولها، فلم تر شيئا يلفت النظر ..

واقبل الكلب سيركو على نادية مضرجا بالدماء يعوي عواء الاستغاثة، وتقدمها نحو نسر ضخم كان جاثما على الارض، فطار النسر الى ارتفاع قليل ثم عاد فاهوى بمنقاره على رأس الكلب بشدة .. فسقط الحيوان الامين على الارض جثة هامدة!

وفي تلك اللحظة بدت من نادية صرخة فزع .. فقد كادت قدمها تصطدم برأس ملقى على الارض، لولا الضياء الذي كانت تلقيه السماء على اديم السهل ..!

وخرت نادية على ركبتيها بجانب ذلك الرأس!

كان نيقولا مدفونا حتى رقبته في التراب، تبعا لعادة التتار الوحشية في الانتقام من اعدائهم، بتركهم هكذا يموتون من الجوع او العطش او بين انياب ذئب عابر او منقار نسر جائع، دون ان يقوى المدفون على الفكاك من سجنه الرهيب في بطن الثرى؛ فلا يملك غير ان يدعو الموت اليه والموت لا يقبل عليه الا بطيئا وئيد الخطى ..!

على هذا المنوال كان التتار قد دفنوا ضحيتهم التعسة نيقولا منذ ثلاثة ايام .. ولمحت السور الكاسرة ذلك الرأس الناتيء فوق الثرى فهاجمته،

ومنذ ساعات اشتبك كلبه معها في معركة ودافع فيها من سيده دفاع الأبطال، حتى سقط صريعا!

شق ميشيل ستروجوف الأرض المجبلة بجسم صديقه بسكينه الحادة كي يخرجه من باطنها حيا .. ففتح المسكين عينيه اللتين كانتا حتى تلك اللحظة مغمضتين، وعرف ميشيل ونادية على الفور، فغمغم بصوت خافت: « وداعا يا صديقي .. انني قانع بأني رأيتكما ثانية .. صليا من أجلي! »

وكانت تلك آخر كلماته .. فعندما فرغ ميشيل من حفر الأرض الصلبة المجبلة بجسم صديقه، واستطاع اخراجه من باطنها، بادر بوضع أذنه على موضع القلب منه .. فألفاه قد سكن الى الأبد!

واذ ذاك عمد الى توسيع الحفرة التي دفن فيها التعس وهو حي، ثم الى تعميقها كي تتسع لجثمانه وجثمان كلبه الأمين .. وفي تلك اللحظة سمع ضجيج على بعد نحو نصف فرسخ، فأرهف ميشيل ستروجوف أذنيه .. واذا هو يتبين في الضجيج ضوضاء فرقة من الفرسان تتقدم نحو نهر دنكا، فهتف بصوت خفيض:

ـ نادية !.. نادية!

فتنبهت من صلاتها التي كانت مستغرقة فيها، راحمة على الميت، بينما تابع ميشيل كلامه قائلا:

ـ انظري .. انظري!

فغمغمت هي في اكتئاب: « التتار! »

كانت تلك الضوضاء صادرة من طلائع جيش الخان، الزاحف نحو اركوتسك بأقصى سرعته. ولكن ميشيل قال كالمحدث نفسه: « انهم لن يمنعوني من دفنه! »

واستمر في مهمته .. وبعد قليل كان جثمان نيقولا قد ووري في قبره، ويداه معقودتان فوق صدره. ثم ركع صديقاه أمامه وصليا من أجل روحه صلاة أخيرة. وحين نهضا قال ميشيل ويده المتوعدة ممتدة نحو فيلق الفرسان الذي مر:

ـ هيا يا نادية!

لكنهما لم يستطيعا المضي في الطريق الرئيسي الذي شغله التتار، وصار لزاما عليهما أن يدورا حول اركوتسك من طريق آخر، وبذلك لم تعد بهما حاجة الى عبور النهر

وكانت نادية قد انهارت تماما من فرط التعب، فحملها الشاب بين ذراعيه القويتين ومضى يشق بها طريقه نحو الجنوب الغربي

كان امامهما نحو مائتي فرسخ!

فكيف يقطعانها؟

وكيف يقاومان التعب؟

وأين يجدان غذاءهما؟

وبأي نشاط خارق يمكنهما تسلق المرتفعات الأولى من جبال «ساياتسك»؟!

هذه هي الأسئلة التي طافت برأسي ميشيل ستروجوف ونادية في تلك اللحظة الرهيبة التي دهمتهما فيها طلائع جيش فيوفار خان

ولم يكن لديهما أي جواب عن سؤال منها

ومع ذلك، نهضا من مكانهما، وغادرا تلك البقعة التي حوت جثمان صديقهما الوفي العزيز. ثم واصلا سيرهما من طريق آخر غير الطريق الرئيسي، وبعد اثني عشر يوما ـ في ٢ اكتوبر ـ نحو الساعة السادسة مساء، لاحت لهما رقعة شاسعة من الماء

وكانت تلك هي بحيرة « بايكال »



بايكال .. وأنجارا

تقع بحيرة بايكال على ارتفاع نحو الف وسبعمائة قدم فوق مستوى البحر، وطولها نحو تسعمائة فرسخ ، وعرضها مائة . أما عمقها فغير معروف . وتحيط بهذه المساحة الشاسعة من الماء ، التي يغذيها نحو ثلاثمائة نهر ، سلسلة رائعة من الجبال البركانية . وفي تلك الايام الاولى من اكتوبر كانت الحرارة تهبط في الليالي الطويلة الى درجة الصفر ، والثلوج الباكرة تغطي القمم القريبة من البحيرة ، اما في الشتاء فكانت مياه البحيرة تتجمد الى عمق بضعة أقدام ، فتعبر الزحافات والقوافل ارضها المنبسطة الملساء بسهولة كبيرة

وفي تلك الليلة ـ الثانية من اكتوبر ـ كان ميشيل ستروجوف قد بلغ الضفة الجنوبية الغربية من البحيرة حين أبصرت نادية على الشاطئ، جمعا يقرب من الخمسين شخصا ، خشيت في البداية أن يكونوا من التتار ، ثم تبينت ـ لفرحتها ـ انهم من الروس . ولمحها الجمع ورفيقها الأعمى فخفوا اليهما على الفور وصحبوهما الى زورقهما الراسي على الشاطئ، على أهبة الرحيل ، وكانوا نفرا من المهاجرين الهاربين من غزو التتار . واتلحت خطتهم في الاتجاه نحو المدينة بطريق البحرقلب ميشيل ستروجوف ، الذي رأى فيها فرصته الاخيرة، وان لم يظهر فرحته علانية امعانا في اخفاء شخصيته . وكانت الناقلة التي اختاروها للسفر مصنوعة من خشب الشوح يتسع لنحو مائة راكب .. فلم يروا باسا في أن يدعوا ضيفيهما الى ظهرها . ولم تكد نادية وميشيل يستقلانها حتى عاود الفتاة شيء من نشاطها ، ولاسيما بعد أن زودت وصاحبها بالغذاء الكافي الذي كانا شبه محرومين منه في الايام الاخيرة . وبعد قليل أوت الى فراش من القش واغصان الشجر فلم تلبث أن استغرقت في نعاس عميق

ولم يحدث ميشيل سائليه عن شيء مما وقع له في تومسك ، بل زعم أنه من سكان كراسنويارسك ولم يستطع بلوغ اركوتسك قبل أن تعبر طلائع جيش الخان نهر الدنكا ، ثم أضاف ترجيحه أن تكون نخبة قوات التتار قد اتخذت مراكزها في مواجهة العاصمة السيبيرية ، الأمر الذي يقتضي عدم اضاعة دقيقة واحدة من الوقت بلا مبرر

وهكذا أقلعت الناقلة في الثامنة مساء ، يقودها بحارة من فلاحي الموجيك الأقوياء . وكان رئيسهم بحارا مسنا في نحو الخامسة والستين ذا لحية بيضاء غزيرة تتدلى فوق صدره ، وعلى رأسه غطاء من الفراء ، وملامحه تنبئ بالصرامة والشدة . وقد اتخذ هذا الربان مكانه في مؤخرة الناقلة ولم ينطق

الا بعشر كلمات في عشر ساعات ، وكانت مهمته الرئيسية الشاقة أن يحتفظ بالناقلة في اتجاه تيار المياه المنطلق دون أن تجنح الى عرض البحيرة

وكان منظر المسافرين على ظهر الناقلة يوحي بأنهم خليط من الروس ذوي الظروف والنزعات المتباينة ، منهم الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فضلا عن اثنين من الحجاج فاجأهم الغزو أثناء رحلتهم الدينية ، وبضعة رهبان ، ورئيس ديني .. وكان هؤلاء المتدينون عاكفين على صلواتهم في فترات منتظمة، يرفعون عقيرتهم بها وسط الليل الساكن وقد جلسوا في مقدمة الناقلة

ومضت الرحلة على ما يرام ، بينما استغرقت نادية في سنة عميقة من النوم ، وجلس ميشيل بجانبها متنبها لا يكاد يغفو الا لماما . وفي مطلع النهار عاقت سير الناقلة ريح عنيفة مضادة لتيار الماء ، وكانت على بعد نحو اربعين فرسخا من مصب نهر « انجارا » الذي تنتهي اليه البحيرة ، بحيث لم يكن ينتظر أن تبلغ ذلك المصب قبل الساعة الرابعة مساء . على أن اشد ما كان يخشاه الربان الشيخ أن تتجمد مياه البحيرة في الليل بتأثير البرد الشديد

واهتم ميشيل ستروجوف بهذا الأمر ، فلما استيقظت نادية لبث يسألها كل حين عن عدد القطع الجليدية الطافية على سطح البحيرة ، فكانت تجيبه بما تراه .. وقرب الساعة الرابعة لاح مصب « انجارا » للربان تحف به بضع صخرات عالية ، وعلى الضفة اليمنى ظهر ميناء « ليفنتشناي » الصغير ، وكنيسته ، وبيوته القليلة المتناثرة

ورأى الربان أن يتوقف في الميناء لاجراء بضعة اصلاحات وترميمات في السفينة تستلزمها مواجهة القدر الباقي من الرحلة ، ولاسيما أن التيار يبلغ فيها أقصى عنفه وشدته . وكان اهل البلدة الصغيرة قد هجروها هربا من الغزاة المنتشرين على ضفتي « انجارا » .. ولم ينسوا أن يرسلوا الى اركوتسك اسطولهم من الزوارق والسفن التي كانت راسية في مينائهم وما خف حمله من المؤن التي يحتاجون اليها في ماواهم المؤقت بعاصمة سيبريا الشرقية



في هذه اللحظة التي تأهبت فيها الناقلة للاقلاع من الميناء الصغير خرج من أحد البيوت المهجورة رجلان راحا يعدوان بأقصى سرعتهما نحو الناقلة .. ولمحتهما نادية ، التي كانت تجلس في المؤخرة ، فكادت تفلت منها صيحة حادة ، وامسكت بيد ميشيل ستروجوف كأنما تلتمس منه العون والتشجيع، فسالها بصوت خافت :

ـ ماذا بك يا نادية ؟

فقالت : « زميلانا خلال جبال الأورال » !

فقال : « ذلك الفرنسي وزميله الانجليزي ؟

قالت : « نعم » .

وأحس ميشيل ستروجوف بالارتباك ، ازاء هذا الخطر الجديد الذي يهدد تنكره الصارم بالافتضاح . فالواقع أن الصحفيين الاجنبيين لن يريا فيه الآن ذلك التاجر كورباتوف ، وانما ميشيل ستروجوف رسول القيصر !.. وكان الصحفيان قد التقيا بصاحبنا قبل ذلك مرتين ، منذ افتراقهما عنه في محطة ايشيم : المرة الاولى في معسكر « زابيديرو » حين أهوى بالسوط على وجه ايفان أوجاريف . والثانية في تومسك حين مثل أمام الخان ليحاكم . ومن ثم فهما يعلمان الآن شخصيته الحقيقية

واتخذ ميشيل ستروجوف قراره في الموقف بسرعة ، فهمس لرافقته : « نادية .. حينما تطأ اقدامهما أرض الناقلة اطلبي منهما أن يقتربا مني .. »

وكان جوليفيه وبلونت قد غادرا تومسك قبيل تنفيذ العقاب في ميشيل ستروجوف . قاصدين الانضمام الى صفوف الجيش الروسي في أقرب وقت ، وبلوغ أركوتسك قبل أن يبلغها التتار . لكن ظهور الطابور الثالث عاقهما كما عاق ستروجوف واضطرهما الى أن يسلكا مثله طريق بحيرة بايكال .. فوصلا الى الميناء الصغير منذ أيام ثلاثة . لكنهما وجداه مهجورا . فلبثا حائرين حتى سخر الله لهما هذه الناقلة التي راحا يعدوان للحاق بها في آخر لحظة !

ولما بلغا الناقلة هتف جوليفيه بربانها طالبا نقلهما على ظهرها مقابل أي مبلغ يطلبه . فأجابه الشيخ : « لا أحد هنا يدفع مالا . وانما حسب كل راكب انه يعرض حياته للخطر ! » . ورأت نادية الصحفيين يتخذان لهما مكانا في مقدمة الناقلة . وفي اللحظة التالية أحس جوليفيه يدا توضع على كتفه ، فاستدار ليرى نادية . واذ ذاك كادت تفلت منه صرخة دهشة ، لولا أن لمح الفتاة تضع اصبعها على فمها محذرة .. وقالت له : « تعال ! » .. فأشار الرجل الى زميله وتبعاها كلاهما

وكانت دهشة الرجلين أشد عند وقوع نظرهما على ستروجوف ، فقد كانا يحسبانه فارق الحياة !.. ولم يتحرك الشاب لدى اقترابهما ، فقالت نادية لهما موضحة : « انه لا يراكما أيها السيدان ، فلقد أحرق التتار عينيه .. ان أخي المسكين أعمى ! » ، وندت منهما صيحة اشفاق مكتومة ، واقتربا منه ثم جلسا بجواره وانتظرا أن يبدأ بالحديث . فقال بصوت خفيض : « ينبغي ألا تعرفا من أكون ، ولا الغرض الذي من أجله جئت الى سيبيريا .. وأنا أطالبكما باحترام سري . فهل تعداني بذلك ؟ »

فقالا : « نعدك بشرفنا »

فقال : « حسنا ! »



اشباح فوق الجليد

بعد نصف ساعة كانت الناقلة قد تركت البحيرة وانسابت في مجرى النهر وكانت الساعة الخامسة مساء والبرودة شديدة تقل درجتها عن الصفر ، والظلمة تامة شاملة !

وحمل الصحفيان يرويان لميشيل ستروجوف آخر الانباء التي وقفا عليها ، ومنها عرف أن جيوش التتار الثلاثة قد التقت واتحدت ، وان الخان وشريكه ايفان أوجاريف يطرقان أبواب اركوتسك !.. ومن الناحية الاخرى روى ميشيل لحدثيه تفصيل العراقيل والتجارب المريرة التي استهدف لها هو ومرافقته منذ فرا من أسر التتار ، بينما كانت الناقلة تمرق مسرعة بين كتل الجليد الطافية على مجرى النهر ، ورجال الدين على سطحها يواصلون صلواتهم بصوت مسموع

وكانت الساعة حوالي الثامنة مساء ، وقد خيم على المنطقة كلها ظلام كثيف ، حجب ضفتي النهر عن الانظار ، وأعان المهاجرين على مواصلة رحلتهم في أمان ، غير ملحوظين من عيون التتار وأرصادهم المنبثين على ضفتي النهر .... وكان سطح الناقلة يسوده السكون التام ، منذ انحدرت في مجرى النهر ، امعانا في التكتم والاختفاء . وحتى الرهبان كفوا عن صلواتهم المسموعة واكتفوا بغمغمة خافتة لا تبلغ الشاطئين ... بينما جعل الربان همه الوحيد أن يتجنب قطع الجليد العائمة حتى لا تصطدم ناقلته بها

وكان البرد قارسا يلذع العظام ، وليس ثمة ما يحمي المسافرين منه ، والهواء الذي انخفضت برودته الى عشر درجات تحت الصفر يسبب لهم رجفة شديدة . وكانت نادية ورفيقها نائمين في المؤخرة ، يحتملان البرد صامتين ، وبجانبهما جلس الصحفيان يقاومان ما وسعهما الهجمات الاولى لشتاء سيبيريا ، وقد لاذ الجميع بالصمت ، يستغرق تفكيرهم حرج موقفهم الذي ينذر بالكارثة في أية لحظة

وكان أشد ما يخشاه ميشيل ستروجوف حينذاك - برغم هدوئه الظاهري - أن يتصدى للناقلة سد من الجليد يعوق سيرها قبل أن تبلغ اركوتسك !

اما نادية فقد أعانتها بضع ساعات من الراحة والنوم على استرداد نشاطها ، وقوة روحها المعنوية ، فراحت تفكر في أبيها الذي يعيش وحيدا في المنفى السحيق ، والذي لن تلبث أن ترتمي بين ذراعيه بعد ساعات

معدودات اذا سارت الرحلة على ما يرام ، فتروى له آخر ذكريات امها وهي تحتضر .. ولا تفارقه بعد ذلك قط !

وبدت من الشاطئ، اضواء تنبعث من الغابات والقرى التى احرقها التتار اثناء زحفهم ، وتنعكس على مرايا الثلوج العائمة فى جميع الزوايا والاتجاهات، وفجأة لاح خطر جديد !

كان جوليفيه قائما فى مكانه وقد ادلى يده فى الماء على سبيل اللهو من حين لآخر ، فشعر بمادة لزجة مختلطة بالماء ، وحين قربها من انفه ادرك توا انها زيت « النفط » .. والحال مثل فى خاطره الخطر الماحق : ان الناقلة تسبح على ماء تطفو فوق سطحه مادة قابلة للاشتعال !.. ترى من اين جاء هذا النفط ؟.. وبعد تفكير طويل اهتدى جوليفيه الى التعليل الصحيح، وهو أن اهل ميناء باكو ، الذين يعبدون النار ، اعتادوا أن يلقوا على وجه الماء فى اعيادهم الدينية سائل النفط الذى يكثر فى تلك الاقاليم الغنية بثروتها المعدنية ، ثم يشعلون فيه النار ويتلهون بمنظر النهر المشتعل حتى ينفد الوقود او تطفئه الرياح ، لكن هذا اللهو الذى كان يحدث فى باكو ، يعد الآن مصدر خطر كبير فى نهر « انجارا » ، فقد تمتد النيران الى اركوتسك ذاتها .. واذا لم يكن ثمة احتمال لان يشتعل النفط بواسطة شخص من ركاب الناقلة ، فانه ليس من المستبعد أن تتطاير شرارة من الحرائق المشتعلة على ضفة النهر فتلهب النفط السابح فوق مياهه !

لبث جوليفيه برهة قريبة لتردد محير .. هل يصارح زملاءه المسافرين بالخطر الجديد الماثل ؟ ام يكتمه عنهم ليوفر عليهم القلق المروع ؟، وهل يحسن أن تلجأ الناقلة الى البر فرارا من الخطر ، ام تواصل رحلتها المحوطة بافظع الاحتمالات ؟!

وانتهى من حيرته الى وجوب الكتمان ، فلم يصارح بهواجسه غير زميله هارى بلونت !

وقبيل الساعة العاشرة مساء خيل الى بلونت انه يرى اجساما سوداء تتحرك فوق الجليد العائم ، وتقترب ظلالها !

ولم يلبث أن تحقق الأمر فهتف مأخوذا :

– التتار ! .. التتار !

ثم اقترب فورا من ربان العائمة فلفت نظره الى ما يرى

واجابه الربان قائلا :

– انها ذئاب ، وانا افضلها على التتار على اى حال ، ولكن ينبغى اتخاذ الأهبة للنجاة منها دون احداث جلبة أو ضوضاء !

وهكذا واجه الركاب مهمة الصراع ضد هذه الحيوانات المفترسة التى اطلقها الجوع والبرد فى ارجاء الاقليم ، دون اللجوء الى اطلاق الرصاص عليها ، خشية لفت أنظار التتار المبثين على الشاطئ .. ومن ثم تجمع النساء والاطفال فى وسط العائمة ، واحاط بهم الرجال وقد تسلح كل منهم بسكينه او عصاه

وتأهبوا للمعركة الصامتة ، بينما كانت همهمة الذئاب الجائعة تملأ الهواء .. ولم يشأ ميشيل ستروجوف أن يظل مكتوف اليدين ، فاستل سكينه وجعل يطعن بها كل ذئب يمر به فى رفقته بالهام الأعمى المتفتح البصيرة !.. كما ساهم الصحفيان فى الصراع بنصيب ملحوظ ، واستمرت المذبحة فى سكون تام دون أن تبدر من احد الركاب صرخة الم او صيحة رعب ، برغم أن بعضهم اصيب من انياب الذئاب بجروح غائرة !

لكن المعركة بدت كأنها لن تنتهى ، فبعد مضى نصف ساعة على احتدامها كانت افواج الذئاب ما زالت تتواثب من الجليد العائم الى الناقلة بالمئات .. ثم اقبلت عشرة منها ذات اجسام ضخمة وعيون براقة تلمع فى الظلام وقد اصلها الغضب والجوع .. فارتمى عليها ميشيل ستروجوف وزميلاه الصحفيان بجرأة خارقة ، ولكن ، فى تلك اللحظة الحرجة حدث امر لم يكن فى الحسبان .. فقد شبت على الشاطئ حرائق متوهجة فى محلة « بوشكافسك » ، احالت الفضاء كله نورا ونارا !

ولما كانت الذئاب بطبيعتها لا تهاجم الا فى الظلام ، فقد ازعجها الضوء ، فانسحبت فى مثل لمح البصر من العائمة بل من النهر كله ، وسبحت من نورها صوب ضفة النهر الاخرى التى يسودها الظلام !

وكان التتار ابتداء من تلك البقعة حتى اركوتسك يحتلون ضفتى النهر ، وهكذا دخل المهاجرون اخطر مناطق رحلتهم وان لم يبق بينهم وبين غايتهم غير بلاثين فرسخا !

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف حينذاك ، ومضت العائمة تشق طريقها وسط الثلوج وقد حرص ركابها على التزام الصمت والهدوء ، ولعل اهم ما انقذهم من انتباه التتار اليهم انشغال هؤلاء بحرق المحلة التى بلغوها حديثا

وفى خلال ذلك كان الصحفيان : جوليفيه وبلونت ، يتوجسان خيفة من أن تمتد شرارة من البر فتشعل النفط السابح على وجه المياه ، ولاسيما أن بعض الشرر كان يتطاير فى الجو الى ارتفاع خمسمائة قدم أو ستمائة ، ولكن من حسن الحظ أن الهواء كان شبه ساكن فى تلك الساعة ، فقوى امل الصحفيين فى النجاة من ذلك الخطر الداهم ، الذى لم يكن يعلم بامره سواهما !

على ان العائمة لم تتجاوز منطقة تلك الحرائق حتى داهمها خطر جديد ، هو ازدياد الثلوج العائمة وتعذر المرور بينها الا بشق النفس .. وهب الملاحون جميعا بمجاذيفهم لدفع قطع الجليد بعيدا عن طريق عائمتهم ، وتوقع بعضهم أن تسد الثلوج مجرى النهر تماما بعد مسيرة نحو ساعة واحدة ، بينما تشبث آخرون بايمانهم بمعونة الله ، وخلال ذلك كان الموقف يزداد حرجا لحظة بعد اخرى ، فلو أن مجرى النهر سد فى وجوههم لما اقتصر الخطر على تعذر بلوغهم اركوتسك ، بل لتعداه الى تحطم العائلة بفعل صدمات الثلوج

واضطرار ركابها الى الاتجاه الى البر حيث يكون مصيرهم الذبح بأيدى التتار في غير رحمة !

وكان على المهاجرين اذن ان يبلغوا اركوتسك قبل الساعة الخامسة صباحا والا ما بلغوها على الاطلاق !

ووقع المحظور !.. فقد وصلت العائمة الى بقعة يضيق فيها مجرى النهر الى نصف عرضه المعتاد ، وهناك تزاحمت عليها الثلوج فسدت الطريق امامها سدا لا أمل في اختراقه ، وبعد لحظات انهالت على العائمة طلقات الرصاص من ضفتي النهر .. ترى هل أبصرهم التتار آخر الأمر ؟.. وجرح من الرصاص بعض الركاب ، ودب الفزع في صفوفهم

وعندئذ همس ميشيل ستروجوف في أذن نادية :

ـ هل أنت على استعداد ؟

فأجابته دون تردد : « نعم ! »

واذ ذاك قال لها : « اذن قوديني الى خارج العائمة بغير أن تدعي أحدا من الركاب يلحظ نزولنا ! »

تسلل الاثنان تحت وابل الرصاص المنهمر بالمطر ، مستترين بالظلام المتكاثف وضوضاء الفزع السائد . وبعد عشر دقائق كانا قد وضعا اقدامهما فوق قطعة من الثلج العائم لم تلبث أن جرفها التيار وسط المجرى السريع ، بينما تناهت الى سمعهما أصوات استغاثة ركاب العائمة وصرخاتهم المتتابعة .. وحوالى الساعة الثانية صباحا بدت لنادية أضواء اركوتسك منبعثة من الضفة اليسرى !

وكان باقيا على المدينة المرموقة نصف فرسخ لا أكثر .. فغمغم ستروجوف وهو يتنفس الصعداء : « أخيرا .. ! »

ولم يتم عبارته ، اذ صرخت نادية فجأة ، وأفلتت يدها ذراعه فوقف فوق قطعة الجليد التي بدأت في الذوبان بسرعة على وهج الحريق الهائل الذى اشتعل بغتة في زيت النفط الذى يكسو النهر ، وبدت على وجهه أمارات رعب مخيف ، وهتف قائلا : « آه ، يبدو أن الله ذاته ضدنا .. ! »



في تلك الآونة كانت اركوتسك ـ عاصمة سيبيريا الشرقية ـ قد غدت معزولة عن العالم كله ، ولم يكن امام الغراندوق شقيق القيصر الا أن يعيد تنظيم الصفوف لبذل محاولة أخيرة لانقاذ العاصمة من الاحتلال الذى أصاب قبلها « ايشيم » و « اومسك » و « تومسك » ، ولما كانت اغاثة المدينة بجيوش روسية كبيرة أمرا متعذرا بسبب انقطاع المواصلات ووقوف التتار على أبواب العاصمة ، فلم يبق أمام المدافعين عن المدينة الا أن يعدوا عدتهم لحصار طويل الأمد يتعين عليهم أن يصمدوا له ، وقد بدأ الاستعداد لذلك في اليوم الذى سقطت فيه « تومسك » بين أيدى الغزاة

وكان الغراندوق قد علم بنبأ زحف جيوش الخان على المدينة باستعداد

ضخم ، لكن الذى لم يعرفه هو أن قائد تلك الجيوش لم يكن سوى (ايفان اوجاريف) الضابط الروسى الذى جرده هو من رتبه العسكرية يوما ، وان لم يعرفه غير معرفة سطحية

وقد سارت أعمال تحصين المدينة ضد الغزاة على قدم وساق ، بهمة وحماسة عظيمتين ، ليل نهار .. واشترك فيها الجنود والتجار والمنفيون والفلاحون ، حتى أتم الجميع بناء سور ضخم لحماية العاصمة من غزاتها ، واكتمل البناء قبل ظهور طلائع التتار عند مداخل اركوتسك بنحو ثمانية ايام . وهكذا لم يبق من سبيل لاقتحام المدينة بهجمة خاطفة ، وانما صار لزاما على المهاجمين أن يعمدوا الى خطة الحصار الطويل والحرب البطيئة . وكانت جيوش التتار الثلاثة قد التقت على أبواب اركوتسك في الخامس والعشرين من سبتمبر ، واحتلت الضفة اليمنى من نهر « انجارا » .. ثم أخذت أهبتها لمحاصرة المدينة

على أن الخطة التى كان ايفان أوجاريف قد أعدها من قبل لغزو المدينة ، منيت بالفشل نتيجة عاملين : أولهما معركة تومسك التى عاقت التتار عن الوصول الى اركوتسك في الموعد المحدد . والثانى سرعة المدافعين عنها في اقامة السور الهائل والتحصينات الضخمة . وهكذا وجد أوجاريف أن الخطة المثلى للاستيلاء على العاصمة هي التوسل بالحيلة بدلا من القوة ، ومن ثم تنفيذ مشروعه الاحتياطى القديم بشأن كسب ثقة الغراندوق والتنكر امامه في ثوب القائد الروسى الباسل حتى تحين فرصة تسليم المدينة للعدو من الداخل لا من الخارج !

وفيما كان ايفان أوجاريف يدبر أمر تلك الخدعة ، علم أن جيشا روسيا كبيرا يزحف في اتجاه العاصمة لنجدة الغراندوق ، وانه قد يصل اليها بعد ستة أيام ، واذن فعليه هو أن يسلم اركوتسك الى التتار بواسطة الخداع والغدر قبل مضى هذه الايام الستة !

وفي أمسية اليوم الثانى من اكتوبر ، اجتمع في قصر الحاكم العام ـ مقر قيادة الغراندوق ـ مجلس حرب للتشاور في شؤون الدفاع عن العاصمة ، وقد حضره عدا الغراندوق كل من : الجنرال فورانسوف ، وحاكم المدينة ، ونقيب تجارها ، وكبار الضباط .. وبدأ الغراندوق الاجتماع بقوله : « أيها السادة .. ان لي عظيم الأمل في أن نستطيع الصمود حتى يصل المدد المنتظر . ومن حسن الحظ أن المدينة لم يتفش فيها حتى الآن وباء ولا مجاعة . وقد تسلل اليوم الى اركوتسك رسول اخبرني بأن الجيش القادم لنجدتنا بقيادة الجنرال (كيسلوف) مؤلف من خمسين ألف مقاتل »

وبعد أن تبادل المجتمعون الآراء التفت الغراندوق الى مدير الشرطة وسأله : « هل عندك ما تريد أن تقوله لي ؟ »

فقال : « عندى التماس موجه الى سموكم من منفيي سيبيريا البالغ عددهم في المدينة نحو خمسمائة .. »

فسأله : « وماذا تطلبون ؟ »

قال : « انهم يطلبون التصريح بتاليف فيلق منهم يكون في مقدمة الجيش المدافع عن العاصمة »

فقال الغراندوق : « لا بأس ! . انهم مواطنون مخلصون . ولقد لمست بنفسي مرارا مبلغ وطنيتهم »

فأردف مدير الشرطة قائلا : « وهم يلتمسون الاذن لهم في ان يتولى قيادتهم واحد منهم يدعى فاسيلي فيدور »

فسأله : « كم انقضى عليه في اركوتسك ؟ »

قال : « عامان ! »

فسأل : « كيف كان مسلكه خلالهما ؟ »

قال : « كان مسلكا مثاليا لا غبار عليه »

فقال : « اذن فلتحضره لمقابلتي »

ولم يمض نصف ساعة حتى مثل (فاسيلي فيدور) امام الغراندوق، وكانت ملامحه تشبه ملامح ابنته « نادية » التي اضناه القلق عليها منذ علم بوفاة امها وحصولها على الترخيص باللحاق به في اركوتسك . ومنذ ذلك التاريخ لم يتلق نبأ عن رحلتها الشاقة وسط مخاطر الغزو الرهيبة

وسأله الغراندوق : « هل توافق على ما يطلبه اخوانك من تعيينك قائدا لهم ؟ »

فقال : « نعم ، اذا كانت مصلحة روسيا تتطلب ذلك »

فقال : « أيها القومندان فيدور .. انك لم تعد منفيا ! »

فقال : « شكرا يا صاحب السمو ، ولكن هل استطيع ان أقود الذين ما زالوا منفيين ؟ »

فقال الغراندوق : « انهم منذ الآن لم يعودوا منفيين ! »

وهكذا عفا الغراندوق عن الجمع بأسره .. وفي نحو الساعة العاشرة مساء مضى نحو جناحه لينام ، وفي تلك اللحظة فتح باب غرفته وظهر على عتبتها حارس يقول :

ـ صاحب السمو .. هناك بالباب رسول من القيصر !



رسول القيصر

دخل رسول القيصر غرفة الغراندوق ، وكانت تبدو عليه آثار التعب ، وهو يرتدي ثياب فلاحي سيبريا . وعلى جسمه آثار جروح وطلقات رصاص ، وعلى وجهه ندبة متخلفة عن جلده بالسوط .. يوحي حذاؤه الممزق بانه قطع مرحلة من الطريق مشيا على قدميه !

وقال الرسول وهو يؤدي التحية :

ـ أفي حضرة سمو الغراندوق انا الآن !

فأجاب الغراندوق : « نعم ، أأنت رسول القيصر ! »

قال : « نعم يا صاحب السمو »

فسأله : « من اين جئت ! »

قال : « من موسكو »

فقال له : « ومتى غادرتها ! »

قال : « يوم ١٥ يوليو »

فسأله اخيرا : « ما اسمك ! »

فقال : « ميشيل ستروجوف »

لكن هذا الرسول لم يكن سوى ايفان اوجاريف ! .. وقد انتحل شخصية ميشيل ستروجوف ، رسول القيصر الحقيقي ، بعد أن ظفر به وحصل على رسالة القيصر التي كان يحملها . وشجعه على ذلك أن أحدا في اركوتسك لم يكن يعرف ملامحه او ملامح ستروجوف .. ! وقد جاء الآن يتوسل بالغدر والحيلة الى تسليم المدينة للتتار والانتقام من شخص الغراندوق . غريمه الذي امر بتجريده من رتبه العسكرية واذلاله امام الملأ

واشار الغراندوق الى جميع من كانوا في الغرفة كي ينسحبوا ، فلما صار وحده مع الرسول الزائف تفرس في وجهه لحظات ثم سأله : « أكنت في موسكو يوم ١٥ يوليو ؟ »

فقال : « نعم يا صاحب السمو ، وفي ليلة ١٥ يوليو رأيت صاحب الجلالة القيصر في القصر الجديد »

فسأله : « أتحمل رسالة من جلالته ؟ »

قال : « هذه هي يا صاحب السمو ! »

ومد أوجاريف يده للغراندوق برسالة القيصر ممزقة الى اجزاء صغيرة . فسأله هذا : « هل تسلمت الرسالة وهي بهذه الحال ؟ »

فقال : « لا يا صاحب السمو ، وانما اضطررت الى تمزيقها كي اخفيها عن أعين التتار ! »

فسأله : « هل كنت اسير التتار ؟ »

فقال : « نعم يا صاحب السمو ، بضعة أيام .. وهذا ما جعلني برغم مغادرتي موسكو يوم ١٥ يوليو لم استطع الوصول الى اركوتسك قبل اليوم، اي بعد تسعة وسبعين يوما »

وتناول الغراندوق الرسالة ، وعرف فيها توقيع شقيقه القيصر ،مسبوقا بالعبارات الرسمية التقليدية ، ومكتوبة بخط يده ، فلم يبق لديه أدنى شك في صحة الرسالة ولا في حقيقة شخصية الرسول ، وزالت من قسمات وجهه علائم الريبة والشك . وراح يقرأ الرسالة بامعان، ثم قال لايفان اوجاريف:

– اسمع يا ميشيل ستروجوف .. هل تعرف مضمون هذه الرسالة ؟

فقال : « نعم يا صاحب السمو .. فقد كان يحتمل ان اضطر الى اتلافها ، كيلا تقع في أيدي الأعداء . وفي هذه الحالة كان ينبغي ان انقل الى سموكم نصها حرفيا »

فقال : « أتعلم أن هذه الرسالة تطالبنا بايثار الموت في اركوتسك على التفريط في المدينة ؟ »

قال : « نعم يا صاحب السمو »

قال : « وهل تعلم ايضا أنها توضح خطط الجيوش التي أعدت لوقف الغزاة »

فقال : « نعم يا صاحب السمو ، لكن هذه الخطط لم تنجح »

فسأله : « ماذا تعني ؟ »

قال : « اعني ان إشيم ، وأومسك ، وتومسك ، وغيرها من المدن الهامة قد سقطت بالتتابع في ايدي جيوش فيوفار خان »

فقال له : « ولكن هل وقع قتال ؟ هل التقى فرساننا القوزاق مع التتار وجها لوجه ؟ »

قال : « نعم يا مولاي ، لكنهم ردوا على اعقابهم مع الأسف الشديد ، اذ لم يكن عددهم كافيا »

فسأله : « أين حدث ذلك اللقاء الذي تتحدث عنه ؟ » . فقال : « في كوليفان، وتومسك »

وحتى هذه اللحظة لم يقل إيفان اوجاريف غير الحقيقة .. لكنه بغية تثبيط عزائم المدافعين عن اركوتسك بالمغالاة في تصوير تفوق التتار اضاف كاذبا : « كما التقوا مرة ثالثة في مواجهة كراسنويارسك ! »

فسأله الغراندوق : « وماذا كانت نتيجة ذلك الاشتباك الأخير ؟ »

فقال : « انه أكثر من اشتباك بسيط يا صاحب السمو ، كان معركة التقى فيها عشرون الف روسي بمائة وخمسين الف من التتار . وبرغم شجاعة الأولين ، فقد ابيدوا عن آخرهم ! »

فصاح الغراندوق، بعد أن فشل في السيطرة على غضبه : « انت تكذب »

فقال : « بل أقول الحقيقة يا صاحب السمو، فقد كنت في كراسنويارسك، وهناك وقعت في الأسر ! »

فاسترد الغراندوق هدوءه واستأنف استجوابه قائلا : « ومتى وقعت معركة كراسنويارسك هذه ؟ »

فقال : « في اليوم الثاني من سبتمبر »

قال : « وهل اجتمعت كل جيوش التتار الآن حول اركوتسك ؟ »

قال : « نعم »

فسأله : « كم تقدر عددها ؟ »

قال : « بحوالي اربعمائة الف »

وكانت هذه مغالاة جديدة من جانب إيفان اوجاريف ، عمد اليها للغرض السالف الذكر نفسه ، ثم عاد الغراندوق يسأله : « ألا انتظر اي مدد من الأقاليم الغربية ؟ »

فقال : « ليس هذا ممكنا يا صاحب السمو، على الأقل حتى نهاية الشتاء »

قال : « فليكن هذا ، علي الى حتى ان لم اتلق اي مدد من الغرب او الشرق ، ولو كان عدد هؤلاء البرابرة ستمائة الف لا اربعمائة الف .. لن اسلم اركوتسك ابدا »

على أن الغراندوق المرهف الأعصاب ، لم يستطع الاحتفاظ بهدوئه أمام هذه الأنباء الداعية الى اليأس ، فأخذ يذرع الحجرة ذهابا وجيئة أمام بصر إيفان اوجاريف الذي اعتبره فريسة مدخرة لانتقامه .. وانقضى ربع ساعة قبل أن يستأنف الغراندوق أسئلته ، وهو يعيد قراءة رسالة أخيه قائلا : « أتعلم يا ميشيل ستروجوف ان هذه الرسالة تشير الى خائن يجب ان احذر امره ؟ »

فقال : « نعم يا صاحب السمو »

فقال : « انه فيما تقول سيحاول دخول اركوتسك متنكرا ، وكسب ثقتي ، ثم تسليم المدينة الى التتار عندما تحين الفرصة »

فقال : « أعلم هذا كله يا صاحب السمو .. واعلم ايضا ان ايفان اوجاريف قد أقسم لينتقمن من شخص سمو شقيق القيصر »

فسأله : « لماذا ؟ »

قال : « لأن سمو الغراندوق جرده من رتبه واذله »

فقال : « أذكر ذلك ، لكن ذلك التعس الذى صار الآن يقود جيـــوش البرابرة الغزاة ، كان يستحق جزاءه .. ! »

قال : « لقد أراد جلالة القيصر أن تأخذوا حذركم من خطط إيفان أوجاريف الشريرة ضد شخصكم »

فقال : « نعم .. الرسالة تشير الى ذلك »

فقال : « وقد قاله القيصر لى بنفسه ، وهو يحذرنى من الوقوع فى براثن ذلك الخائن أثناء رحلتى »

فسأله : « وهل قابلته ؟ »

فأجاب بقوله : « نعم يا صاحب السمو ، بعد معركة كراسنويارسك .. ولو انه ارتاب فى أن أحمل الى سموكم رسالة تحذركم من خططه ومشروعاته لما تركنى حيا »

فقال الغراندوق : « وكيف استطعت الفرار من الأسر ؟ »

فقال : « بالقاء نفسى فى نهر ارتيش ! »

فسأله : « وكيف دخلت اركوتسك ؟ »

قال : « بفضل خروج احدى فصائل جيشكم لصد هجمة من التتار ، فقد اندسست ضمن فريق المدافعين دخلت فى ركابهم حينما عادوا الى المدينة »

فقال له : « حسنا يا ميشيل ستروجوف .. لقد اظهرت شجاعة وجلدا خلال قيامك بمهمتك الخطيرة ، ولى أن أسألك .. هل لك طلب خاص ؟ »

قال : « لا شىء سوى شرف القتال مع سموكم جنبا الى جنب »

فقال : « فليكن لك ما تطلب ، منذ اليوم أجعلك ملحقا عسكريا لى ، وسوف تنام فى قصرى »

فقال : « ولو استطاع إيفان أوجاريف أن يمثل أمام سموكم متنكرا باسم زائف ؟ »

قال : « سوف نكشف أمره بفضلك أنت الذى تعــرفه .. وسآمر بقتله بالسوط .. والآن تستطيع أن تذهب ! »



أدى إيفان أوجاريف التحية العسكرية للغراندوق حسب تقاليد فرقة رسل القيصر التى ينتمى اليها ستروجوف ، ثم انسحب من حضرة الأمير .. بعد أن نجح فى تنفيذ خدعته وكسب ثقة الغــراندوق ، انه سيعيش فى قصر غريمه ، فيراقب كل شىء ، ويتجسس على كل شىء ، وينتهز كل فرصة .. على أن يبدأ مؤامراته بلا ابطاء ، قبل أن تصل النجدة

وفى اليوم التالى حرص أوجاريف على أن يدخل فى روع ضـباط الحرس وقواد الجيش الذين يلتقى بهم فى كل مناسـبة ما يتفق مع خطة المغالاة فى وصف قوة الأعداء وشدة بأسهم . وكان من أوائل الذين جمعته الظروف بهم « فاسيلى فيدور » أحد المدافعين البواسل عن العاصـمة ، فقد أراد الأخير الاطمئنان على أخبار ابنته التى لا يعلم من أمرها شيئا ، فاتصل برسول القيصر المزعوم ــ الذى قطع الرحلة ــ لعله يقف منه على خيط يهتدى منه الى طريقها

وانتهز صاحبنا الفرصة الذهبية ، فوثق صلته اليومية بالقومندان الذى يتولى نصيبا كبيرا من مهمة الدفاع عن أركوتسك ، وفى أثناء حديثهما عن الابنة الضالة حرص إيفان أوجاريف على أن يزرع فى قلب الأب القلق بذور اليأس من سلامتها ونجاتها من مخاطر الغزو ، الأمر الذى حطم قلب التعس وبلبل أفكاره

وفى خلال اليومين التاليين ــ ٣ و ٤ اكتوبر ــ استدعى الغراندوق ميشيل ستروجوف المزعوم مرات ، وطلب منه أن يعيد على مسامعه كل ما سمعه من شقيقه القيصر فى موسكو ليلة رحيله . وكان إيفان قد أعد العدة لتلك المآزق فلم يبد ترددا أو ارتباكا فى اجاباته !

ثم استغل الخائن حريته الكاملة فعكف على دراسة تحصينات العاصـمة ، وأماكن الضعف والقوة فيها ، و« باب » بولشايا ، الذى اعتزم أن يسلم مفاتيحه للعدو ، وصار يلتقى مع شريكته سنجار عند عتبة ذلك الباب تحت جنح الظلام

وفى ليـلة السادس من اكتوبر ألقى اليها ورقة مطوية حـدد لها فيها الساعة الثانية صباحا من الليلة التالية موعدا لتسليم المدينة !

وهكذا رسم إيفان أوجاريف خطته بأقصى دقة وعناية ، بحيث كان مصيرها النجاح المحتوم ، ما لم يصادفها طرف ليس فى الحسبان ولا فى نطـاق الاحتمال

وكان مؤداها أن يقوم التتـار بهجومين كبيرين على نقطتيـن فى طرق المدينة ، لتحويل أنظار المدافعين وعتادهم وجيوشهم عن النقطة الثالثة التى يزمع الخائن فتح ثغرة فيها لهم ، وهى « باب » بولشايا .. وقد مهد إيفـان لذلك بأن نصح للغراندوق بأن يعزز حاميات المنطقتين المهددتين فيما يزعم ، حتى لا يبقى لحراسة الباب الثالث المقصود غير قليل من المدافعين ، وعلى هذا يسهل عليه تسليم ذلك الباب لآلاف التتار المحتشدين فى الغابات الكثيفة من جهة الشرق

لقاء غير منتظر !

في الليلة المحددة ، كانت الظلمة كثيفة ، وكان البرد قارسا شديدا يبرأ العظام

وانتصف الليل دون أن يقع حادث ما . فقد كان الهدوء الشامل يسود الجبهة الشرقية حيث بولشايا ، وما من نار تشتعل في الغابات الكثيفة التي تختلط عند الأفق مع سحب السماء الداكنة . أما معسكر التتار . فكانت الحركة دائبة فيه انتظارا للاشارة المرتقبة

وانقضت ساعة أخرى وما من جديد !

واوشكت ساعة كاتدرائية اركوتسك أن تدق الثانية صباحا . وما من حركة تدل على بدء العدوان المسلح !.. وبدأ الغراندوق واركان حربه يتساءلون

ترى هل اخطأوا حين صدقوا ما قيل من نأهب التتار لمحاولة الانقضاض على المدينة فجأة ؟!

وتتابعت الدقائق . والهدوء اشمل منه في الليالي السابقة . واولو الشأن على تمام الاستعداد لاصدار اوامرهم تبعا لتطور الظروف . وكانت الغرفة الفسيحة التي يشغلها ايفان أوجاريف من قصر الغراندوق تقع في الطابق الأرضي وتطل نوافذها على شرفة تشرف على مجرى نهر « انجارا » وقد ساد هذه الغرفة ظلام دامس . ووقف ايفان اوجاريف الى النافذة ينتظر حلول ساعة التنفيذ . كي يعطي اشارة البدء . ثم يغادر القصر ليقوم بدوره الشخصي في المؤامرة

ولبث ينتظر في الظلام . كوحش يتأهب للانقضاض على فريسته . وقبيل الساعة الثانية بدقائق ، طلب الغراندوق استدعاء ، ميشيل ستروجوف ، المزعوم الى حضرته . فمضى ضابط الى الغرفة وطرق بابها . فلما لاذ الحائط بالصمت . عاد الضابط لينبيء الغراندوق بأن رسول القيصر ليس في غرفته!



دقت الساعة الثانية ، المحددة لتنفيذ المؤامرة ، ففتح ايفان اوجاريف نافذة الحجرة وهبط منها الى الشرفة . حيث تجري تحت قدميه مياه النهر في الظلام ، ثم أخرج من جيبه ثقابا أشعله وأوقد به قطعة من الكتان المبلل بالبترول .. والقاها في النهر . الذي كان سطحه قد سكب عليه زيت النفط

يأمر منه . كي يحدث حريقا مروعا يلتهم اركوتسك ويقلب خطط الدفاع عنها رأسا على عقب

وهكذا ادى تحالف ايفان اوجاريف مع التتار الى تعرفه على غرائزهم واشهاره اسلحتهم الوحشية ضد مواطنيه الوادعين !

ولم يكد يلقي بقطعة الكتان المشتعلة في النهر حتى شبت النار في مياهه وانتشرت بسرعة خارقة فوق سطحه بين الضفتين .. كما تصاعدت منها الأبخرة الكثيفة التي عقدت في الجو سحبا كثيرة . وسرعان ما ذابت قطع الجليد العائم على وهج النار كما يذوب الشمع . وفي اللحظة التالية تفجرت افواه المدافع والبنادق عند طرفي المدينة كالرعد القاصف . واطلقت مدفعية التتار نيرانها بشدة وعنف بالغين ، ثم اشتعلت النار في المنازل الخشبية العديدة المتناثرة على ضفتي النهر !

وهمس ايفان اوجاريف لنفسه :

ـ اخيرا ! .. دنت ساعة الانتقام وكاد يصفق لنفسه !

لقد نجح في تشتيت القوى والاذهان بين مقاومة هجمات التتار ومكافحة الحرائق المروعة التي تهدد المدينة بالفناء . وصار باب (بولشايا) عشابة المهجور من المدافعين ، الذين خفوا الى منطقتي الهجمتين الشديدتين

وعاد ايفان أوجاريف الى حجرته ، التي كانت اضواء اللهب في الخارج تلقي عليها ظلالا متراقصة

ثم اتجه نحو الباب الرئيسي للغرفة بغية الخروج لكنه لم يكد يفتح الباب ، حتى هرعت الى داخل الحجرة امرأة مبللة الثياب مشعثة الشعر

وللحال هتف ايفان بوحي الاستنتاج المنطقي المعقول :

ـ سنجار

لكنها لم تكن سنجار ، بل كانت نادية .. !

كانت نادية في اللحظة التي صرخت فيها ورفيقها أثناء انزلاقهما على قطعة الجليد العائم نحو اركوتسك ، قد رأت النار تشب فجأة في مياه النهر ، وقد امسكها ميشيل ستروجوف بين ذارعيه وغاص معها الى القاع بحثا عن مخبأ يقيهما الحرائق المشتعلة فوق السطح . وكانا في تلك الآونة على بعد فشيل من الرصيف الأول لأركوتسك !.. وبعد أن سبحا تحت الماء برهة وضعا اقدامهما آخر الأمر على الرصيف ، فهتف الشاب قائلا لنادية :

ـ الى قصر الحاكم العام !

وبعد أقل من عشر دقائق وصل الاثنان الى مدخل القصر . واستطاعا ان يدخلاه بسهولة في غمرة الازعاج الذي طاف بقلوب الناس على اثر احتدام المعركة ، برغم أن ثيابهما كانت مبللة !

وكان القصر يموج بالضباط الذين يحملون الأوامر الصارمة . والجنود الموكلين بتنفيذها في تلك اللحظة

وفى غمرة الزحام الذى ساد ممرات القصر وقاعاته انفصل ميشيل ستروجوف ونادية من غير قصد ، فراحت نادية تعدو حائرة عبر ردهات الطابق الأرضى وابهائه وهى تنادى صاحبها ، ملتمسة من كل من تلقاه ان يأخذها الى حضرة الغراندوق

وفى أثناء سيرها على غير هدى داخل القصر ، انفتح امامها باب يفضى الى حجرة مضيئة ، فوجدت نفسها وجها لوجه مع الرجل الذى رأته اول الأمر فى محطة إشيم ، ثم رأته فى تومسك .. الرجل الذى سيسلم المدينة للاعداء بعد لحظات !

وهتفت الفتاة مأخوذة :

ـ إيفان اوجاريف !

ولم يكد التعس يسمعها تنطق باسمه الحقيقى حتى ارتعدت اوصاله كريشة فى مهب الريح

ليس امامه غير أن يقتل بلا رحمة هذه المخلوقة التى عرفت شخصيته ، والا فشلت خططه فى مثل لمح البصر !

وعادت نادية تصيح مذعورة :

ـ إيفان اوجاريف !

وفى هذه المرة كان صوتها مشبعا بالحقد والبغضاء

اما الخائن فقد اسكرته غضبته فاستل خنجرا من حزامه وتقدم نحو نادية يبغى حصرها فى ركن الغرفة

لقد قرر الاجهاز عليها قبل ان تقضى على خطته !

وصرخت الفتاة باعلى صوتها :

ـ ميشيل ! .. ميشيل !

وشد ما كانت دهشتها فى هذه اللحظة اذ رأت ميشيل ستروجوف امامها وجها لوجه

وكان هذا قد سمع نداءها فتبع الصوت الى مصدره ، واذ الفى الغرفة مفتوحة دخلها . واجابها وهو يقف بينها وبين ايفان اوجاريف :

ـ لا تخافى شيئا يانادية

فقالت : « آه ، خذ حذرك ايها الشقيق ! »

ثم اردفت قائلة : « ان الخائن مسلح ، وهو يرى جيدا ، اما انت .. ! »

واندفع ايفان اوجاريف نحو غريمه ، وقد احس هذا بتفوقه عليه فى المبارزة التى اوشكت ان تنشب بينهما

لكن ستروجوف امسك بذراع ايفان باحدى يديه ، وباليد الاخرى انتزع سلاحه منه والقاه ارضا !

شحب وجه ايفان اوجاريف غضبا وخزيا ، ثم تذكر انه يحمل سيفا باستله من غمده وتأهب لمهاجمة خصمه . وادركت نادية الخطر الذى يهدد صديقها الأعمى فى هذا الصراع غير المتكافئ ، فهرعت نحو الباب تصرخ فى طلب النجدة

لكن ميشيل ستروجوف صاح بها حازما

ـ اغلقى هذا الباب يا نادية ولا تنادى احدا . دعينى اعمل فقد دنت ساعة العمل .. ان رسول القيصر ليس له ما يخشاه اليوم من هذا التعس ، فليأت الى اذا جرؤ .. انى فى انتظاره ! »

ولم يفكر الخائن فى مبارزة ستروجوف مبارزة قانونية حقة ، وانما اراد ان يقتله غدرا وغيلة

اراد ان يطعنه طعنة قاتلة قبل ان يحس الشاب باقترابه !

وقفت نادية تتأمل هذا المنظر الرهيب حائرة معجبة ، وقد استمدت من هدوء مرافقها هدوءا شاملا .. بينما استل هذا سكينه التى لم يكن يحمل سلاحا غيرها !

انه لايرى غريمه ، ولا يحمل فى يده سيفا مثله ! .. ولكن اية بركة سماوية انزلت على نفسه السكينة العجيبة وهو واقف بلا حراك فى مواجهة خصمه القوى المبصر ؟!

وفلت سكينة الأعمى من سكينة الخائن . ومن عزيمته ، فتردد برهة ثم ادرك حرج الموقف فهجم على ميشيل ستروجوف وسدد سيفه الى صدره !

ولكن فى تلك اللحظة تجنب الأعمى الطعنة بحركة من سكينه الحادة فلم يمس باذى .. ووقف ينتظر الهجمة الثانية ببرود يثير الأعصاب !

وتفصد جبين ايفان اوجاريف عرقا باردا كالثلج ، ثم رجع خطوة الى الخلف ، وهجم على ستروجوف بسيفه المدبب . لكن حظ الهجمة الجديدة لم يكن خيرا من حظ الاولى ! .. وبدافع من الغضب والرعب اللذين تملكاه بازاء هذا التمثال الحى الذى لا تزايله سكينته ، ركز بصره فى عينى الاعمى المفتوحتين عن آخرهما

وكان لتينك العينين اللتين لا تبصران ، واللتين تتغلغلان الى اعماق روحه ، تأثير السحر على عزيمته ونفسيته .. !

وفجأة اطلق ايفان اوجاريف صرخة ، وقد ومض فى رأسه خاطر غير متوقع : « انه يرى ! .. انه يرى ! »

ثم تراجع خطوة فخطوة نحو نهاية الحجرة مثل وحش يحاول الرجوع الى وكره وقد بلغ منه رعبه اشده ! .. وعندئذ تحرك التمثال .. مشى الأعمى نحو ايفان أوجاريف مباشرة وصاح به : « نعم ، انى ارى .. ارى لطمات السوط الذى وسمتك بها ايها الخائن الجبان مدى الحياة ! وارى المكان الذى سأضربك فيه ، فدافع عن نفسك .. هذه مبارزة الطرع فاهلك اياها ، وستكفينى سكينى ضد سيفك ! »

وصاحت نادية في تأثر : « انه يرى .. رباه ، أهذا معقول ! »

أما ايفان اوجاريف فقد ادرك انه ضائع لا محالة ، لكنه بتأثير وثبة أخيرة من وثبات عزيمته المنهارة استعاد شجاعته واندفع بسيفه نحو صدر غريمه الصامد فتقابل السلاحان !

وبفعل صدمة السكين الحادة من يد ميشيل ستروجوف الصياد السيبيري القوي ، طار السيف من يد الخائن ، في اللحظة التي انغرس فيها نصل السكين في قلب اوجاريف .. فسقط على الأرض بلا حراك ، جثة فارقتها الحياة !

وفي اللحظة التالية دفع أحدهم باب الحجرة من الخارج فانفتح .. وظهر الغراندوق ونفر من أركان حربه ، ثم تقدم الغراندوق الى داخل الغرفة وقد تعرف في الجثة الممددة على ملحقه الذي يحسبه رسول القيصر .. ثم قال بصوت ينطوي على التهديد :

ـ من قتله ؟

فأجاب ستروجوف : « أنا .. ! »

وامام ذلك الرد وضع احد الضباط فوهة مسدسه على صدغ الشاب ، متأهبا لاطلاقه في أية لحظة .. بينما سأله الغراندوق ، قبل أن يصدر الأمر بتحطيم رأسه :

ـ ما اسمك ؟

فقال ستروجوف : « يا صاحب السمو ، اسألني اولا عن اسم الرجل الطريح عند قدميك ؟ »

قال : « هذا الرجل ؟ .. انني أعرفه .. انه من خدام القيصر المخلصين .. انه رسوله ! »

فقال ستروجوف : « هذا الرجل يا صاحب السمو ليس رسولا من القيصر ، انما هو ايفان أوجاريف ! »

فصاح الغراندوق مأخوذا :

ـ ايفان اوجاريف ؟ .. ومن انت اذن ؟

فأجابه في هدوء :

ـ ميشيل ستروجوف !





« وبفعل صدمة السكين الحادة من يد ستروجوف ، طار السيف من يد الخائن ايفان »

النصر فى النهاية

لم يكن ميشيل ستروجوف فى الحقيقة أعمى ، ولا كان يوما كذلك ٠٠ فان ظاهرة انسانية قد أفسدت تأثير السلاح المحمى الذى مر به الجلاد أمام عينيه !

كان الشاب وقتئذ ينظر - لآخر مرة فيما يحسب - الى أمه التى وقفت ملتاعة تشهد تنفيذ الحكم الوحشى فى فلذة كبدها وقد مدت نحوه ذراعيها ملهوفة ٠ فامتلأت عينا الابن بدموع حاول جاهدا أن يقمعها وراء أهدابه ، فلما مر السلاح المحمى أمام عينيه ذاد بخار الدموع الأذى عن حدقتيه وخفف من حرارة الحديد فلم تحرق قرنية العين

وبذلك نجا بصر الشاب من التلف ، وسلمت أعصاب عينيه بمعجزة !

وللحال أدرك ميشيل ستروجوف مدى الخطر الذى يعرض نفسه له لو أفصح عن سره ، فقطع على نفسه عهدا أن يكتم نبأ المعجزة عن الجميع حتى نادية - خشية أن يبدو منها ما قد ينم عن الحقيقة ، ومن ثم مثل دور الأعمى طيلة المرحلة الثانية الشاقة من الرحلة ٠ لكنه رأى من واجبه نحو أمه أن يطمئنها على بصره

ولما انحنى فوقها ليقبلها وهى ملقاة فى ساحة المهرجان بمدينة تومسك ، همس لها بالحقيقة السارة ، وأوصاها بالكتمان !

وشاءت المصادفة السعيدة أن تتحول سخرية ايفان أوجاريف به الى نصر له ، حين رفع الخائن رسالة الامبراطور أمام بصر « الأعمى » وطلب منه قرأءتها

لقد قرأ الشاب الرسالة فعلا فى تلك اللحظات ، فوعى ما فيها ليبلغه الى الغراندوق حين يلقاه !

ولم يكد يجهز على ايفان أوجاريف ويفصح للغراندوق عن شخصه حتى سرد عليه محتويات الرسالة وما اقترن بها من ملابسات أقنعت شقيق القيصر

كما روى له تفاصيل رحلته من أولها الى منتهاها ، والدور المشرف الذى أدته نادية له ولوطنها

واذ ذاك سأله الغراندوق :

- ومن تكون هذه الفتاة ؟

فقال : « انها ابنة المنفى فاسيلى فيدور ! »

فقال الغراندوق :

- بل قل ابنة القومندان فيدور الحر الطليق ٠٠ !

وأمام ذلك النبأ السار ضعفت نادية عن احتمال فرحتها ، وهى التى لم تضعف عن احتمال آلامها .. فخرت جاثية على ركبتيها عند قدمى الغراندوق، فأعانها هذا على النهوض وهو يمتدح بطولتها النادرة

وبعد ساعة كانت نادية بين ذراعى أبيها .. !

أما التتار فقد ردوا على أعقابهم وفشلت هجماتهم ، وكان لفاسيلى فيدور نصيب الأسد فى صدهم عن باب (بولشايا) الذى اعتزم أوجاريف تسليمه ! يسلمه لهم !

وفى نهـاية النهار عاد التتـار الى معسـكرهم مدحورين وقد تركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى ، بينهم الجاسوسـة الغجرية سنجار

وفى يوم ٧ أكتوبر وصل الجيش الروسى الذى جاء لنجدة المدينة بقيـادة الجنرال كيسيلوف .. فآثر التتار الفرار ، وبذلك نجت اركوتسك

وفى ركاب الجيش الروسى الذى وصل حديثا جاء الصحفيان المتلازمان : جوليفيه وبلونت ، وكانا قد تمكنا من بلوغ الشاطىء سالمين بعد فرارهما من العائمة التى هاجمها رصاص التتار فى النهر

وكان سرورهما لا حد له برؤية نادية وميشيل ستروجوف سالمين ، بل برؤية الاخير مبصرا !.

وبعد أن استراح الصحفيان من متاعب الرحلة عكفا على كتـابة تفاصيل رحلتهما ومغامراتهما الشائقة لارسالها الى صحفهما ، ثم أعلنا أنهما يعتزمان السفر الى الصين لتتبع ما يجرى فيها من احداث

وحررت الجيوش الروسـية جميع البلاد التى غزاها التتار ، ولم يعد من هؤلاء الى بلادهم غير عدد ضئيل بعد أن هلك أكثرهم بالحرب والبرد والجوع !

أما نادية وميشيل ستروجوف فقد تزوجا ، وبارك فاسيلى فيدور زواجهما السعيد. وعقدت حفلة الزفاف فى كاتدرائية اركوتسك ، وحضرها الغراندوق وجمع كبير من كبار رجال الدولة الذين عرفوا الدور الخطير الذى أداه العروسان لانقاذ وطنهم

ثم استقل العروسان زحافة سريعة نهبت بهما الطريق نهبا عائدة الى موسكو وبقدر ما كانت رحلة الذهاب شاقة موجعة كانت رحلة الاياب موفقة مريحة ، وقد راحت الزحافة تنزلق بهما فوق سهول من الثلوج الشاسعة

وفى الطريق وضع الاثنان صليبا على قبر صديقهما نيقولا الذى ضـحى بحياته من أجل المحافظة على شرف نادية وكرامتها

وفى أومسك استقبلت الأم مارفا ابنها وعروسه فى بيتها فرحة تتخطف مشاعرها السعادة الخالصة ، وضمت عليهما ذراعيها فخورة ببطولتهما ..

وحين وصل ميشيل ستروجوف الى موسكو ، اسـتقبله القيصر مهنئا ، ومنحه وسام « سان جورج » ، تقديرا لخدماته الجليلة لبلاده

وارتقى الشـاب فى مناصب الدولة حتى وصل الى منصب كبير . لكن القصة التى استحقت أن تروى هى قصة تجاربه المريرة !